من أدب الرحلات

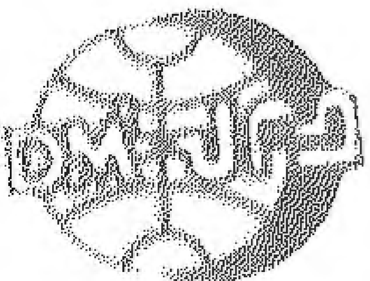
سليمان مظهر

سياحة فى ربوع
النمور الآسيوية

• هونج كونج • سنغافورة
• تايوان • كوريا الجنوبية



تقديم
مختار السويفي



الدار المصرية اللبنانية

سياحة فى ربوع
النمور الآسيوية

الناشـــر : الـــدار المصريـــة اللبنانيـــة
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ١٣٠٣٠ / ٩٦
الترقيم الدولى : 5- 316 - 270 - 977
جمـع وطبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

الطبعة الأولى : رمضان ١٤١٧ هـ ـ يناير ١٩٩٧ م .

سليمان مظهر

من أدب الرحلات

سياحة فى ربوع النمور الآسيوية

• هونج كونج • سنغافورة
• تايوان • كوريا الجنوبية

تقديم
مختار السويفى

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

من صحيح البخارى :

قال رسـول الله ﷺ :

« من سلك طريقاً يطلب فيـه علماً

سهـــل الله لـه طريقاً إلـى الجنـة »

صدق رسول الله ﷺ

إهـــداء

إلى الصديق الدكتور محمد الرميحى
فاكرا فضله فى تسهيل رحلاتى فى
حول العالم بمشاركة الأخ المصور
الفنان : سليمان حيدر

سليمان مظهر

تقديم

بقلم الاستاذ مختار السويفى

كيف نتعرف على أحوال الأمم والشعوب دون الانتقال إليها والسياحة فيها بقصد دراسة هذه الأحوال بعين متفحصة واعية ؟

لقد كانت الرحلة إلى بلاد الله ـ ومازالت حتى الآن ـ من أهم وسائل التعرف على أحوال البلدان وأحوال من يسكنها من خلق الله .

● وفى إطلالة سريعة على معاجم وقواميس اللغة العربية ، نتبين مدى ثراء هذه اللغة فى تفسير الكلمات والألفاظ الدالة على الارتحال والسفر والسياحة . . فالسفر ـ لغويًا ـ هو الانتقال أو الارتحال من مكان إلى مكان بعيد . و « المسافر » هو المرتحل مترجّلاً أوراكبا الدواب أو أية وسيلة أخرى من وسائل قطع المسافات البعيدة . و«المسْفار » هو القادر على السفر والقوى على تحمل مشاقه ، وهو أيضا من كثرت أسفاره ورحلاته .

أما الارتحال فمعناه القيام « برحلة » إلى مكان معين مقصود . وتطلق كلمة «الرحلة» أيضا على « الكتاب » الذى يصف فيه الرحّالة تجاربه ومشاهداته خلال الرحلة التى قام بها . وتطلق كلمة « الرّحّالة » على من يُكثر القيام بالرحلات ، وأصلها « رَحَّال » وأضيفت التّاء للمبالغة . ويختلف معنى هذه الكلمة عن معنى كلمة « الرُّحَّال » وهم القوم الذين لا يستقرون فى مكان واحد ، وإنما يتنقلون بين الأماكن باحثين عن الغيث أو المرعى .

أما « السّياحة » فهى مصدر فعل « ساح » ويقال ساح الماء بمعنى سال وجرى . كما يقال ساح فلان فى الأرض [سَيْحاً وسَيَحَاناً وسِيَاحَةً] بمعنى ذهب وسار وتجول

بين البلدان ، وبمعنى آخر مختلف انه ذهب للعبادة والترهب . ويقال « سائح » للمفرد وجمعه « سُيَّاح » ولا يجمع « سُوَّاح » كما هو شائع فى بعض الكتابات ، والسائح هو المرتحل المتنقل فى البلاد لتحقيق أغراض منها النزهة والاستطلاع والبحث والكشف . وللسائح معنى آخرفهو الصائم الملازم للمساجد أو دور العبادة للتبتل ودوام الصلاة والتعبد . أما « السَّيَّاح » فهو من يكثر السياحة من السُّيَّاح .

ومن مستحدثات التركيبات اللغوية تقسيم السياحة إلى عدة تصنيفات . . فالسياحة الدينيةهى الحج أو السفر لزيارة الأماكن المقدسة . . والسياحة العلاجية هى السفر بقصد العلاج من مرض وطلب الشفاء . . والسياحة السياسية هى السفر أو الانتداب للقيام باتصالات فى بلاد أخرى لتحقيق أغراض تتعلق بمسائل ذات طابع سياسى . . والسياحة الثقافية هى السفر لطلب العلم والمعارف العامة أوالخاصة . . والسياحة الترفيهية بقصد تحقيق المتعة أو الأغراض والرغبات الشخصية . . وسياحة رجال الأعمال بقصد تحقيق المبادلات التجارية أو المالية .

● وكانت « الرحلة » و « السياحة » و « السفر » من أسس وسبل التواصل بين المجتمعات الإنسانية ، ومن أهم وسائل المعرفة والثقافة والتعلّم وتمازج الحضارات بين شعوب العالم ، وذلك منذ أقدم العصور حتى وقتنا الحاضر .

وليس معنى هذا أن شعوبًا بأكملها كانت ترحل أو تسيح فى الأرض لتلتقى بشعوب أخرى كى تتأثر بها أو تؤثر فيها ، بل كان الأمر يتم ـ ومازال ـ برحيل أو سياحة أفراد وهبهم الله حسن البصيرة والقدرة على نقل ما شاهدوه وعلموا به أثناء رحلاتهم وسياحاتهم إلى شعوب أخرى ، قد تكون مجاوره أو بعيدة عن شعوبهم التى ينتمون إليها . ويقوم هؤلاء الأفراد الموهوبون بتسجيل تجاربهم ومشاهداتهم فى « كتب » يتركونها للناس ، فتنتقل بينهم جيلاً بعد جيل ، فى حلقة من التواصل المعرفى داخل إطار مااصطلح على تصنيفه وتسميته « أدب الرحلات » .

●وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن المصريين القدماء هم أول من ساحوا ورحلوا إلى أقاصى الأرض التى كانت معروفة فى أزمانهم ، لتحقيق أغراضهم الحربية

والتجارية والدينية والثقافية ، وأول من أوفدوا البعثات الاستكشافية إلى بلاد النوبة العليا وأواسط أفريقيا وغيرها من بلاد ومناطق العالم القديم ، وأول من كتبوا التقارير التى تدخل فى نطاق « أدب الرحلات » .

ويذكر التاريخ أن الملك سنفرو [أول ملوك الأسرة الرابعة ٢٦١٥ ـ ٢٥٠٠ ق م] أرسل أسطولاً بحريًا ضخمًا مكونًا من أربعين سفينة لجلب أخشاب الأرز من لبنان وتدعيم العلاقات مع الأهالى الذين كانوا يعيشون على السواحل الشرقية للبحر المتوسط .

وفى عصر الأسرة السادسة [٢٤٢٠ ـ ٢٢٦٠ ق م] أرسلت البعثات إلى أواسط أفريقيا لدرجة أن بعض المؤرخين المحدثين يصفون فترة حكم هذه الأسرة بأنها فترة «ارتياد الجنوب » .

ومنذ عصور ما قبل التاريخ وطوال حقب وعصور التاريخ المصرى القديم ، لم تنقطع رحلات قدماء المصريين إلى بلاد بونت [الصومال أو اليمن أو هما معًا] . ومن أشهر هذه الرحلات الرحلة البحرية التى أوفدتها الملكة حتشبسوت [الأسرة الثامنة عشرة فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد] . وقد أمرت الملكة بتدوين هذه الرحلة فى تقرير تفصيلى مدعم بالصور الوصفية على جدران معبد الدير البحرى بغرب الأقصر ، حيث نقرأ ونشاهد كل التفاصيل الخاصة بتلك البعثة البحرية الشهيره التى أبحرت فيها سفن الأسطول التجارى المصرى إلى بلاد بونت .

وكانت هذه البعثة مجهزة بمجموعة من الفنانين الرسامين الذين قاموا بدور الصحفيين الذين كتبوا أقدم وأدق « ريبورتاج » علمى مصور فى وصف بلاد بونت من النواحى الطبيعية والبيئية ، وجغرافيتها البشرية ، وتقاليد وعادات أهاليها ، بالإضافة إلى دراسة علمية ممتعة عن مختلف أنواع الأسماك والأحياء المائية فى البحر الأحمر .

وتضمن هذه التقرير الذى يعتبر أقدم نص مكتوب ومصوّر عن « أدب الرحلات » إحصاءً تفصيلياً عن أنواع « الواردات » التى عادت بها السفن المصرية مثل : العاج والأبنوس وجلود الفهود وسبائك الذهب والفضة وأحمال البخور والعطور والتوابل

والقرفة والأعشاب الطبية وشتلات أشجار البخور التى نقلت بجذورها ، وكذلك «التوتيا» المستعملة فى صناعة كحل العيون ، فضلاً عن مجموعة كبيرة من الحيوانات الحية تشمل الزراف والكلاب والنسانيس ، وذلك كله بالإضافة إلى نقوش تصور براعة المصريين القدماء فى أعمال النقل البحرى والنقل النهرى وأعمال شحن وتفريغ السفن .

وفى عهد الملك « نخاو » وهو ثانى ملوك الأسرة السادسة والعشرين والذى حكم مصر فى الفترة من عام ٦٠٩ ق م إلى عام ٥٩٤ ق م ، خرجت أول رحلة بحرية كشفية فى تاريخ العالم ، كان هدفها العلمى والثقافى هو الدوران والطواف حول قارة أفريقيا ، بدءاً من خليج السويس بالبحر الأحمر ، ومرورًا بالمحيط الهندى فالمحيط الأطلنطى ، ودخولاً إلى البحر المتوسط عن طريق مضيق جبل طارق [الذى كان يطلق عليه آنذاك اسم أعمدة هرقل] . وقد ذكر هيرودوت أخبارًا عن هذه الرحلة الكشفيةالتى استغرقت نحو ثلاث سنوات فى كتابه « حديث عن مصر » بوصف مسهب أشار فى نهايته بأن الذين قاموا بهذه الرحلة وعادوا إلى مصر وصفوا الطريق الذى سلكوه والمناطق التى زاروها ، وقصُّوا عديدًا من الحكايات غير المعقولةويتعذر تصديقها .

وخـــلال العصر اليونـانـى الرومانى الذى بدأ بفتح الاسكندر الأكبر لمصر عام ٣٣٢ ق م واستمر حتى الفتح العربى عام ٦٤١ م ، بلغت البحرية المصرية القديمة أوج عظمتها حتى أصبحت أقوى بحرية حربية وتجارية فى تاريخ العالم القديم . وأبحرت السفن المصرية إلى الهند ومناطق جنوب شرق آسيا ، فضلاً عن إبحاراتها المستمرة بين الدول المطلة على حوض البحر المتوسط ، وأصبحت مصر بالفعل قاعدة التحكم فى المواصلات العالمية والحلقة الرئيسية فى الاتصالات التجارية والثقافية بين دول وشعوب العالم القديم .

● وأدب الرحلات فى عمومه يعتبر نوعًا من الأدب التقريرى ، قد يتناول الوصف الجغرافى أو الجيولوجى للبلدان التى تمت زيارتها ، كما يتناول تاريخ تلك البلدان قديمه وحديثه ، وأوصاف الناس الذين يسكنون هذه البلدان وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم الدينية ومكنوناتهم الثقافية ، بل وقد يتناول أوصافًا لبيوتهم وعمائرهم السكنية ومعابدهم الدينية أياً كان الدين الذى يعتنقونه ، كما قد يستفيض فى وصف أكلاتهم

ومشروباتهم ومآدبهم ومطاعمهم ، وصف ملابسهم التقليدية وزينتهم وكل ما يتعلق بشئونهم الحياتية من تعليم وزراعة وصناعة وتجارة وأعياد شعبية .

ويضع علماء الاجتماع ودارسو « أدب الرحلات » مجموعة من القواعد الملزمة التى يجب توافرها فى هذا النوع من الأدب ، لعل أهمها قدرة « الرَحّالة » على صياغة انطباعاته ومشاهداته فى أسلوب أدبى جذاب يغرى القارىء فى أن يستمر فى القراءةبشغف ودون ملل ، وأن يكون « التقرير » عن الرحلة ملتزماً بالصدق ، وأن تكون « الأخبار » صحيحة وليست مختلقة أو غير قائمة على سند من الحقيقة ، وأن تكون « المعلومات » قد تم الحصول عليها سواء بالتجربة الشخصية أم بالنقل من مصادر موثوق بها دون ضلال أو تضليل أو تحريف عن حقيقة الأمور .

وإذا لم يلتزم « الرحّالة » بمثل هذه القواعد ـ وغيرها كثير ـ جاءت كتاباته مضللة ينخر فيها الكذب المكشوف الذى قد يصمد زمنًا ثم سرعان ما ينهار وينكشف زيفه عندما تعرف الحقيقة كأمر واقع ملموس .

● ويحفل التاريخ بأمثلة كثيرة لا تقع تحت حصر من أمثال تلك الأكاذيب والمعلومات التى قال بها كثير من الرحّالة والمؤرخين الأقدمين والذين مازالت كتاباتهم متداولة حتى الآن .

وربما كان السبب المباشر فيما وقعوا فيه من مغالطات هو أنهم لم يحكّموا البصر والبصيرة فى نقل الأخبار والمعلومات ووصف المشاهدات ، ولم يُخضعوا ما ذكروه لأصول المنطق وطبيعة الأشياء وطبائع البشر مهما اختلف الزمان واختلف المكان ، بل كانوا ينقلون معلوماتهم من مصادر غير عليمة أو تنهج نهج التخريف وترديد الأكاذيب ، فوقعوا بذلك فى غيابة جب الضلال دون أن يدروا ، وضلّوا عن الحق ، وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط [كما يقول ابن خلدون] .

وقد يكون من الطريف أن نذكر هنا بعضًا مما ذكره بعض الرحّالة والمؤرخين الأقدمين من أغلاط فى وصف مَعْلَمٍ من المعالم السياحية فى مصر وهو الهرم الأكبر . فقد وقع هيرودوت [القرن الخامس قبل الميلاد] فى الغلط حين قال ، دون تمحيص ولا

تبصّر ، إن بناء الهرم قد استنفد ميزانية مصر ، وعجز الملك خوفو عن تدبير بقية تكاليف البناء ، فتطوعت ابنته للقيام بهذه المهمة ، وأعلنت انها تهب نفسها لكل من يقدم حجرًا أو بعضاً من المال ، وبهذه الطريقة ـ الظاهرة الزيف والبهتان ـ استطاعت تدبير المال والمعدات حتى اكتمل بناء الهرم فى نهاية الأمر . ومن الواضح فى مثل هذا القول ان هيرودوت قد استقى معلوماته من بعض من صادفهم من المخرفين المصريين ، فنقل عنهم تلك الخرافة التى لا تحمل أى قدر من المنطق والحقيقة .

● وإذا انتقلنا إلى مجال « النثر العربى » خلال العصور الوسطى وجدنا دراسات وكتبًا عديدة ثم تصنيفها على انها نوع من « الأدب التأريخى » و « الأدب الجغرافى » و«أدب الرحلات » .

وعلى سبيل المثال نشير إلى كتاب « تاريخ المدن » لطيفور [عام ٨٩٣م]وكتاب «سير الملوك » للطبرى [عام ٩٢٣ م] كما عالج المسعودى [عام ٩٥٦ م] موضوعات عامة كتاريخ العالم ووصف الرحلات .

وقد حرص معظم الرحالة والمؤرخين والجغرافيين العرب فى العصور الوسطى على توخئ الحقيقة فيما خلفوه لنا من تقارير وكتب ، وصفوا فيها الحياة فى البلدان المعاصرة لهم ، وأشاروا فيها إلى أخبار الحكام وتراجم أرباب المهن وأصحاب الوظائف ، ومزجوا بين التاريخ والجغرافيا باعتبارهما يمثلان جزءًا لا يتجزأ من الثقافة العامة لكل من الكاتب وقرائه .

ومن أشهر كتب التراث العربى فى أدب الرحلات كتاب« رحلة ابن جبير » من تأليف العالم الأندلسى أبو الحسن محمدبن احمد بن جبير [١١٤٥ ـ ١٢١٧ م] وهو كتاب قيّم وصف فيه رحلته الشهيرة التى زار فيها جزيرة سردينيا ومصر وجزيرة العرب والعراق والشام وجزيرة صقلية .

ومن الكتب الشهيرة الأخرى كتاب « تحفة الأنظار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار » من تأليف محمد بن عبدالله اللواتى الشهير بابن بطوطة [١٣٠٤ ـ ١٣٧٨م]. وهو من أبناء مدينة طنجة ببلاد المغرب ، ويعتبر من أشهر

الرحالة العرب ـ بل والأجانب أيضا ـ فى خلال العصور الوسطى ،حيث قضى أكثر من ثمانية وعشرين عامًا فى رحلات وسياحات مستمرة ، قطع فيها مسافات تقدر بنحو مائة وعشرين ألف كيلو متر ، وصف فيها مشاهداته ومعلوماته عن بلدان شمال أفريقيا ومصر والشام وفارس وبلاد العرب ومناطق شرق أفريقيا وآسيا الصغرى والقرم وحوض نهر الفولجا والقسطنطينية وخوارزم وبخارى وتركستان وأفغانستان والهند والصين وإندونيسيا وجزر الملاديف ، فضلاً عن بلدان الأندلس وبلدان السودان الغربى [غرب أفريقيا] .

كذلك فقد كانت هناك بعض التقارير الهامة التى كتبها قلّة قليلة ممن كانوا يوفدون فى مهمات سياسية أو ثقافية أو دينية . ومن أطرف هذا النوع من التقارير « مذكرات إلياس بن يوحنا » عن رحلته إلى أمريكا عام ١٦٨٣ م .

وفى القرن التاسع عشر ظهر الكتاب القيّم « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » من تأليف رفاعة رافع الطهطاوى [١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م] . وهو كتاب تنويرى كتبه مؤلفه بأسلوب حديث وصف فيه صورًا حية موحية عن الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فى فرنسا خلال ذلك العصر .

● ومع ذلك فلا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن كثيرين من الرحالة والمؤرخين والجغرافيين الأقدمين كانوا يجنحون إلى التهويل والمبالغة وإلى اختلاق المعلومات المغلوطة اختلاقًا بقصد ادعاء المعرفة بأسرار ما تحفل به الدنيا من غرائب وعجائب . وإذا اتخذنا أهرام مصر مثالاً تطبيقياً لهذا الاتجاه فى وصف المعالم السياحية الذى جاء فى كثير من كتب التراث لقرأنا عجبًا .

يقول المسعودى [القرن العاشر الميلادى] مثلا : « إن الهرمين بُنِيَا قبل الطوفان ، وإن الملك الذى أمر ببنائهما طلب من كهنته أن يودعوا فيهما جماع حِكَمِهم ومعارفهم فى شتى العلوم والفنون ، وأن ينقشوا عليهما كتابات تحوى علوم الحساب والهندسة ومواقع النجوم ومداراتها وتواريخ الأزمنة الحالية وكل الأحداث المقبلة التى ستقع فى مصر وفى الدنيا كلها » .

ويقول المقريزى [القرن الخامس عشر الميلادى] : « إن بانى الهرمين هو الملك «سوريد بن سلهوق » وذلك بعد أن رأى فى المنام أن الأرض ستتعرض لطوفان مدمر ، فأمر بأن تحفظ فيهما كنوزه ، وتسجل فيهما علوم مصر وحضارتها » . وقال أيضا : « إن الهرم الأكبر كان مكرساً لحفظ علم التاريخ وعلم الفلك ، أما الهرم الثانى فقد كان مكرساً لحفظ علم الطب » .

ومن القدماء أيضا مؤرخون وجغرافيون ورحّالة عرب آخرون ذكروا معلومات عن الأهرام أكثر تطرفاً فى الخرافة وأكثر بعداً عن منطق الأشياء ، نذكر منهم « ابن وصيف شاه » و « الطبيب على بن رضوان » و « ابن اسحق النديم » و « القضاعى » و « ابن خرداذبة » و « البيرونى » و « البغدادى » و « أبو الصلت الأندلسى » . . وهؤلاء جميعاً كانوا يتداولون فيما بينهم أغرب ما يمكن أن يسمع أو يقرأ من معلومات عن الأهرام المصرية . .

منهم من قال فى طريقة بناء الهرم بأن المصريين كانوا يكتبون عبارات وطلاسم سحرية على أوراق البردى ، ويضعون هذه الأوراق على قطع الأحجار الضخمة ، فكانت الأحجار تطير فى الهواء ، ثم تهبط إلى حيث المكان المخصص لكل حجر منها ، ويلتصق كل حجر بما تحته وبما جانبه من أحجار أخرى . . ومنهم من قال إن الأهرام هى « الأهراء » التى بنيت فى زمن سيدنا يوسف عليه السلام لتكون مخازن حبوب من محاصيل السنوات السبع السمان ، لتستخدم فى سنوات المجاعة السبع العجاف . . بل وقال بعضهم إن الهرم كان يبنى فى الأصل مكعباً ، ثم يقوم المصريون بعد ذلك بكشط جوانبه وحوافه حتى يأخذ شكله الهرمى المعروف !

● ولم نُشر إلى تلك المعلومات المغلوطة قاصدين التفكّه أو الطرافة ، بل لنشرك القارىء الكريم معنا فى المقارنة بين منهج ذكر المعلومات هكذااعتباطًا واختلاقاً ، ومنهج هذا الكتاب القيم « سياحة فى ربوع النمور الآسيوية » لمؤلفه الرحّالة الأديب الاستاذ الكبير سليمان مظهر .

هنا سيلمس القارىء بنفسه مدى تمكن المؤلف من مواده العلميةوالسياحية ،

ومدى دقة وصدق المعلومات التى يعرضها المؤلف بأسلوب شيق جذاب ، لا يغفل صغيرة ولا كبيرة مما شاهده وعاينه وفحصه فى أرجاء تلك الدول الأربع : هونج كونج ، وسنغافورة ، وتايوان ، وكوريا الجنوبية . . وهى الدول التى اصطلح عالميًا على تسميتها « بالنمور الآسيوية » .



● وقد تعرفت بالاستاذ الكبير سليمان مظهر عام ١٩٥٦ ، وكان آنذاك يعمل فى جريدة « المساء » المصرية التى صدرت فى اكتوبر من ذلك العام . وكنت آنذاك مجندًا بالجيش المصرى وكاتبًا مبتدئًا يهوى نشر القصص القصيرة المؤلفة والمترجمة .

وكم كنت أحرص على السعى للقائه وحضور مجالسه بعد أن تبين لى بكل وضوح مدى علمه الغزير وثقافته الواسعة التى لا يحجبها عن جلسائه وقرائه ، بالإضافة إلى دماثة خلقه ورقة طباعه وأدبه الجم وتواضعه الشديد فى معاملة الناس ،وكم شَرُفْتُ بتشجيعه الملح لى ، وحتّى على الانغماس فى مجالى الثقافة والأدب .

ومنذ ذلك الحين وحتى الآن لم ينقطع تواصلنا بالرغم من كثرة سفرياته وسياحاته ، وبالرغم من مغادرته لمصر وإقامته فى الكويت لسنوات طويلة ، مديرًا لتحرير مجلة «العربى » الكويتية الذائعة الصيت . كنت أحرص ـ بقدر الإمكان ـ على تتبع مقالاته وكتبه ودراساته ، وأكتب إليه مهنئا بكل عمل جديد يصدره .

وكل العارفين بالاستاذ سليمان مظهر يعلمون أنه شعلة متوهجة من النشاط الثقافى والادارى . وفى أثناء وجوده فى مصر تولى أعمالاً صحفية خدم فيها الصحافة المصرية متدرجًا فى مناصبها محرراً وسكرتيراً للتحرير ومديراً للتحرير فى صحف : الزمان، والمساء ، والشعب ، والقاهرة ، والجمهورية ، ومجلة التحرير . . ثم ارتقى إلى رئاسة تحرير مجلة بناء الوطن ومجموعة صحف دار التعاون . . ثم أصبح رئيسا لمجلس ادارة دار التعاون للصحافة والنشر . هذا إلى جانب انغماسه فى النشاط السياسى حيث تولى عدة مناصب قيادية فى التنظيمات السياسية والشعبية .

● وقد يكون من الصعب العسير أن أعرض للقارىء الكريم كل الأعمال الصحفية

والسياسية والثقافية والأدبية التى شغلت هذا الكاتب الكبير وبذل فيها جهوداً تفوق كل وصف . ومع ذلك فإنى أسمح لنفسى أن أشير إلى بعض من أهم تلك الأعمال ، بادئاً بالأعمال السياسية التى أصدر فيها الكتب التالية :

* أضواء على واقعنا .

* عملاق من بنى مر .

* اعترافات قادة حرب يونيو .

* قصة الصراع بين السادات ورجال عبد الناصر .

* حكايـة الصهيونيـة .

وهذا الكتاب الأخير يتضمن عرضاً تاريخيا مسهباً عن ظهور الصهيونية وفلسفتها العدوانية منذ نشأتها الأولى ، وما دار فى المؤتمرات التى انعقدت لتكريسها ، مع التركيز على فضح أطماعها وأهدافها فى السيطرة الاقتصادية والمالية والإعلامية ، وعرض لأبرز الشخصيات الصهيونية منذ هرتزل حتى بن جوريون وجولدا مائير .

● وتبحر الأستاذ سليمان مظهر فى دراسة عالم العقائد والديانات السماوية وغير السماوية، وتفرغ عدة سنوات ساح فيها بين المواطن والأماكن والمواقع الأصلية لعديدمن الديانات والعقائد الحية التى مازالت قائمة وتمارس فى عالم اليوم ، وتابع حياة معتنقى هذه العقائد والديانات ، وما يؤمنون به من مبادىء وأفكار وأسس دينية وفلسفية . وأصدر فى هذا المجال عدة كتب منها :

* قصة العقائد بين السماء والأرض :

وهو كتاب حصل به المؤلف على جائزة الدولة التشجيعية .

* الطريق إلى الله .

* بيت الله .

* قصة الديانات :

وهو سفر ضخم يقع فى ٥٦٠ صفحة من القطع الكبير ، عرض فيه المؤلف مجموعة من الدراسات المستفيضة عن عقائد وديانات مصر القديمة . . وعقائد وديانات بلاد بين النهرين مروراً بالعقائد السومرية ، والأكادية ،والبابلية ، والأشورية ، والزرادشتية . . والعقائد والديانات السائدة فى القارة الهندية وبين دول وشعوب جنوب شرق آسيا مثل : الهندوسية ، والبوذية ، والجانتية ، وعقيدة السيخ . . ثم يعرض لنا المؤلف بعد ذلك أهم العقائد والديانات السائدة فى الشرق الأقصى وعلى الأخص فى الصين واليابان مثل : الكونفوشيوسية ، والداوية ،وعقيدة الشنتو . . ويخصص المؤلف الجزء الثانى من هذا الكتاب القيم لدراسة الديانات السماوية الثلاث : اليهودية ، والمسيحية، والاسلام .

* حاضر العالم الاسلامى :

وهو كتاب اشترك معه فى تأليفه الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور والاستاذ احمد عبد الرحيم سيد . ويعتبر على درجة كبيرة من الأهمية لما يحتويه من بحوث عن الاسلام كدين عالمى ، والتوزيع السكانى المعاصر للمسلمين فى جميع أنحاء ومناطق العالم ، وامكانات العالم الاسلامى ومشكلاته الحديثة التى تسبب فيها دور الاستعمار الأوربى فى تفكيكه وإثارة المشكلات بين أعضائه وأجزائه .ويضع الكتاب أمام المسلمين فكرة التضامن التى يفرضها الدين كطريقة مثلى للقضاء على كل مظاهر التشعب والتفكك بين الأمة الاسلامية ، كما يعرض سبل الحل الأمثل لمشكلات هذه الأمة ووضعها على الطريق الصحيح فى عالم اليوم .

* قصة الصناعة فى العالم الاسلامى :

وهو بحث تفصيلى ، جاد وشيّق فى تاريخ وتطور الصناعة فى كافة أرجاء البلاد الاسلامية . ويتضمن معلومات عن النهضة والطفرة الصناعية التى عاصرت وواكبت الدولة الاسلامية منذ عصورها الأولى ، وكيف كان لهذه الصناعة فضل السبق على ظهور الصناعة فى العالم الغربى ، سواء فى صناعات النسيج ، والبسط ، والسجاد، والورق ، والجلود ، والزيوت ، والصابون ، والشمع ، والزجاج ، والخزف، والتحف

المعدنية المصنوعة من الحديد والنحاس والفضة والذهب والمجوهرات . أو فى صناعة تشييد وبناء سفن الأساطيل الحربية الإسلامية التى ساهمت فى غزو وفتح مناطق أوربا والهند . ويحكى لنا الكتاب أيضا قصةرجل الصناعة السورى « حسن الرمّاح » الذى أشرف فى العصور الاسلامية القديمة على صناعة كيمياء تنقية « نترات البوتاسيوم » وتمكن بذلك من صنع ما كان يسمى « بالناريّات » وصُنْع الأسلحة الثقيلة من البارود والقنابل والمدافع والصواريخ ، بل وهو الذى وضع فكرة « الطوربيد البحرى » الذى أطلق عليه اسم « البيضة التى تحرك نفسها وتحترق فوق سطح الماء » . كما يتناول الكتاب أيضا تاريخ المراكز الصناعية فى أرجاء العالم الاسلامى فى مصر وسوريا والمغرب والأندلس وفارس . . وكيف كان العالم الاسلامى يقوم بتسويق صناعاته المتقدمة فى دول وبلدان أوربا خلال فترة العصور الوسطى .

● كذلك فقد اهتم الاستاذ سليمان مظهر بدراسة القضايا التاريخية والأدب الشعبى والفنون الشعبية ، وأصدر فى هذا المجال عدة كتب أذكر منها :

* حكايات أفريقية :

ويتضمن مجموعة من الحكايات الفولكلورية من : المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وغانا ، ونيجيريا ، وكينيا ، والكاميرون ، والسودان ، والصومال .

* أساطير من الشرق :

ويتضمن مجموعة من الأساطير والحكايات الشعبية الفرعونية، والأشورية ، والبابلية، والفارسية ، والهندية ، واليابانية ، والصينية .

* أساطير من الغرب :

ويتضمن عرضاً شيقا لمجموعة من أشهر الأساطير الإغريقية ، بالاضافة إلى مجموعة من الأساطير والحكايات الشهيرة الشائعة بين الشعوب الغربية فى كل من السويد ، والنرويج ، وروسيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وانجلترا ، وفرنسا ، وشعوب الهنود الحمر فى الأمريكتين .

* ملكات بين القمة والقاع :

وهو سياحة فى تاريخ بعض الملكات ممن اشتهرت أعمالهن وقصص حياتهن مثل : مارى انطوانيت التى كانت غطرستها وأرستقراطيتها من عوامل قيام الثورة الفرنسية ، والامبراطورة الروسية كاترين ، وبوبيا سابينا زوجة نيرون التى شجعته بحقدها على قتل أمه أجربينا ، والملكة مسالينا ، والملكة تيودورا، ولوكريشيا بورجيا ، وحتشبسوت ، وغيرهن من أشهر ملكات التاريخ .

* سيدة التاج :

ويتناول حياة « ممتاز محل » زوجة الملك شاه جيهان [القرن السابع عشر] الذى شيد لها ضريحاً رائعاً يعتبر من أجمل نماذج وطرز العمارةالاسلامية وأكثرها أناقة وفخامة ، وذلك فى مدينةأجرابولاية أوتار براديش بالهند .

* أسيرة البرج :

ويتناول عرضاً عن حياة الملكة شجرة الدر التى كانت إحدى جوارى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولكنه اعتقها وتزوجها بعد أن أنجبت منه ابنه خليل . وكان الملك الصالح ينيبها عنه فى إدارة شئون الدولة عندخروجه للحرب ضد الصليبيين . ويحكى لنا الكتاب كيف أخفت خبر وفاة زوجها أثناء المعركة التى دارت فى مدينة المنصورة بين قوات المماليك وقوات الصليبيين . واستمرت فى إدارة شئون الدولة وأمور الحكم . . وكيف تزوجت وزيرها عز الدين أيبك التركمانى ، وكيف أمرت بقتله عندما أوشك أن يتزوج عليها . . ونهايتها التراجيدية مقتولة بالقباقيب والنعال .

* فاتح السند :

ويحكى لنا قصة القائد العربى « محمد بن الحكم بن القاسم » وهو إبن عم للحجاج بن يوسف الثقفى الذى أرسله على رأس حملة لفتح السند بالرغم من أن عمره لم يكن قد تجاوز سبعة عشر عاماً ، فقام ابن القاسم بهذا الفتح المؤزر ، واستولى على عدة مدن وثغور هندية أخرى . ومع ذلك فقد انتهت حياته مقتولاً بعد أن أمر الخليفة سليمان بن عبد الملك باعدامه .

● ومن بين الانتاج الغزير للاستاذ سليمان مظهر مجموعة كبيرة من البرامج الثقافية والمسلسلات الدرامية الإذاعية والتليفزيونية فى كل من مصر والكويت ، تستهدف تزويد المستمع والمشاهد بمعالم التاريخ الإسلامى ، وإمتاعهما بمعلومات تثقيفية عن الأحداث والوقائع والشخصيات التى يحتويها هذا التاريخ . وقد تم إصدار معظم هذه الأعمال فى كتب مستقلة نذكر منها :

* نور نحو الشرق .

* بيت الله .

* البنورة المسحورة .

* إنهم يكرهون الحب .

* ملحمة الصحراء .

* نقطة البداية .

* طريق النور .

* صبيحة الأندلس .

* العباسة أخت الرشيد .

● هذا التنوع المقتدر المتمكن فى ميادين الكتابة عن الدين والسياسة والتاريخ والثقافة العامة والأدب والفنون الشعبية والدراما الإذاعية والتليفزيونية ، يقيّمه النقاد عادة بأنه نوع من الثقافة الموسوعية التى تمكّن الموهوب بها من ارتياد ميادين مختلفة يتعمق فى دراستها ويستخلص منها ما يختاره وينتقيه ليعرضه على قرائه ومريديه .

ويقول النقاد أيضاً أن هذا النوع من المثقفين يكتسبون مهاراتهم نتيجة لدوام الاستغراق فى القراءة والدرس والتحصيل ، بالإضافة إلى قدراتهم الشخصية فى التعبير عما استطاعوا تحصيله من تلك القراءات .

ولا جدال فى أن هذا الصفات تتجمع كلها فى كاتبنا الأستاذ سليمان مظهر ،

ويضاف إليها حسن حظه ـ وحظ قرائه ـ بما قام به من رحلات فى كوكب الأرض ، زار فيها بلاد الله جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً . ولم تكن تلك الزيارات ترفيهاً عن نفسه أو تحقيقاً لرغباته فى المتعة والتنزه ، وإنما كانت تبتغى خدمة قرائه فى المقام الأول وقبل أى غرض آخر . . فإن كان قد ساح فى هذه البلدان طلباً للعلم والمعرفة ، فإنه كان يضع فى تقديره منذ البداية ان تحصيل هذه المعارف يهدف أولاً وأخيراً إلى توصيل هذه المعارف إلى القراء كواجب مفروض . . تماماً مثل صياد اللؤلؤ الذى يبذل كل جهده فى الغطس إلى أعماق البحر ليعطى حصيلة صيده للراغبين فى التزين والتجميل ، ولمن يهوون اقتناء كل قيِّم وثمين .

● وأكاد أقول إن رحلات كاتبنا قد غطت ثلاثة أرباع الأرض ، تنقّل فيها لينقل للآخرين ما حصل عليه من معلومات . وأنا على يقين بأن الذين يقرأون مجلة «العربى» الكويتية بانتظام ، يعلمون جيداً فضل هذا الكاتب الذى وصف لهم معظم بلدان العالم وصفاً حياً ودقيقاً ، جعلهم يشعرون كأنهم كانوا معه يشاركونه فى تلك الرحلات ، ويقابلون نفس الشخصيات التى قابلها ، ويشاهدون كل ما رآه ووصفه باتقان ، وهذه هى القدرة الحقيقية التى يتميزبها رحّالة معين عن بقية الرحّالة الآخرين .

وقد تنبه الكاتب إلى أهمية تجميع ما كتبه عن سياحاته ورحلاته كلها ، وإصدارها فى شكل كتب تبقى مع الزمن كمراجع لكل هواة التمتع بقراءة « أدب الرحلات » .

* وبدأ هذا المجال بإصدار كتاب « فى جزءين » بعنوان : « مصر . . النيل والناس والآثار » أمتعنا فيه بمشاهداته ومعلوماته التى حصَّلها من رحلة طويلة مع نهر النيل ، بدءاً من منابعه فى تنزانيا وكينيا وأوجندا وأثيوبيا والسودان ، ومروراً بمصر واصفاً روابيها وجبالها وصحاريها ووديانها وصعيدها ودلتاها ، والناس الذين عاشوا ويعيشون فيها ، صانعين حضارتها القديمة وحضارتها الحديثة على حد سواء .

* وفى المطابع الآن سلسلة من عشرين كتاباً من الكتب الصغيرة ، يتناول كل واحد منها بلداً من البلدان التى زارها المؤلف ، ومن بينها : ألمانيا ، وإيطاليا ، واليونان ، وتركيا ، واليابان ، والمغرب ، والهند ، وباكستان ، وبروناى ، ونيبال ، وجزر المالديف .

* وفى المطبعة أيضا كتاب آخر بعنوان « سياحة فى ربوع النمور الصغيرة الزاحفة» .

* أما كتاب « سياحة فى ربوع النمور الآسيوية » الذى أتشرف بتقديمه إلى القارىء الكريم، فهو متعة حقيقية بما يحتويه من مشاهدات ومعلومات وآراء ، أرجو أن يعفينى القارىء من ذكرها وتفصيلها ووصف أسبابها ، وذلك على أمل أن يستغرق القارىء فى تلك المتعة بنفسه، وهويقلب صفحات الكتاب ليقرأ ما دُوِّنَ فيها من ذخائر المعرفة وكنوز الثقافة العامة .

والله وراء كل قصد نبيل ،

مختار السويفى

كورنيش النيل : القاهرة
فى أول ديسمبر ١٩٩٦

الباب الأول

هونج كونج
الجزيرة الحالمة
والخوف من الكابوس

الفصل الأول : ماذا عن المستقبل .

الفصل الثانى : عند مصب نهر اللؤلؤ .

الفصل الثالث : من قمة الأثرياء إلى قاع الفقراء .

الفصل الرابع : تاريخ الصين فى متحف الشمع .

الفصل الخامس : هنا .. فكتوريا .

الفصل السادس : الطريق إلى كولون .

الفصل السابع : [illegible] من كل لون .

الفصل الأول

ماذا عن المستقبل ؟ !

قالت لنا والحديث يدور حول التساؤلات التى تقوم على كل مظاهر الحياة ، وتصورات المستقبل الذى تتوقعه هونج كونج بعد أن تستردها الصين الشعبية من بريطانيا فى منتصف عام ١٩٩٧ .

« لست متشائمة أبدا . . لقد بدأنا من الصفر وصنعنا المعجزة ، ولن يستطيع أحد أن يعيدنا إلى نقطة الصفر مرة أخرى ، ثم لماذا نخشى المستقبل ؟ أليست الحياة نفسها مليئة بالأمور غير اليقينية ؟ وإذا كان اليقين غير مؤكد ، فالحياة يجب أن تستمر ، وعلينا أن نظل واقفين على أقدامنا فى اقتناع وثقة بأننا قادرون بأيدينا أن نصنع مستقبلا زاهرا تماما كما صنعنا من قبل . »

ولم تكن الدكتورة « هنريتا اب » عضو المجلس التشريعى فى هونج كونج تتحدث من فراغ . . فصورة المستقبل فى الحقيقة ليست قاتمة كما يصورها بعض أصحاب رؤوس الأموال الذين بدأوا يهربون ثرواتهم الضخمة التى جمعوها خلال فترة التبعية للاستعمار الإنجليزى . وهى مثل كثير من أبناء الشعب ترى أن هونج كونج تسير دائما على طريق التطور ، وسواء كانت السماء زرقاء مشرقة ، أو كانت ملبدة بالغيوم . فالحياة لابد أن تسير ، ولن يستطيع أحد قط أن يمنع الشعب الذى قلب كل الموازين بالجهد والمثابرة والثقة بالنفس من الاستمرار على نفس الطريق .

مع كل ذلك فالتساؤلات والمناقشات لا تنقطع فى كل مكان . . فى البيوت والأسواق والمكاتب والمصانع ، وفى مقار شركات الاستثمار واجتماعات الجمعيات والمجالس العامة والخاصة ، وبين جدران الغرف المغلقة ، فالأحاديث تتركز دائما حول موضوع واحد ، ماذا عن المستقبل بعد عام ١٩٩٧ ؟ .

● ماذا بعد عام ١٩٩٧؟

فى سبتمبر ١٩٨٤ توصلت بريطانيا والصين الشعبية إلى اتفاق حول مستقبل مستعمرة هونج كونج ، وسيتولى حكام الصين الشيوعيون فى بكين زمام الأمور فى المقاطعة التى يصل عدد سكانها خمسة ملايين ونصف مليون نسمة منهم ٩٨٪ صينيون، وتبلغ مساحتها ١٠٦٤ كيلو مترا مربعا مقسمة بين جزيرة هونج كونج بمساحة ٧٥ كم ٢ وجيولونج (كاولون) بمساحة ١١كم٢ وشينجيه (الأرض الجديدة) بمساحة ٩٧٥ كم٢ بما فيها ٢٣٠ كم٢ لجزيرة صغيرة محيطة بها .

على أنه توخيا لاستمرار الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بدون أى مشكلات أو منغصات ، فقد شمل الاتفاق بين الصين وبريطانيا أن يستمر النظام الرأسمالى والطرق والوسائل الحياتية بدون أى تدخل ولا أى محاولة للتغيير بعد أول يونيو ١٩٩٧ ولمدة خمسين سنة تالية ، وأن تصبح هونج كونج إقليما صينيا إداريا خاصا يتمتع بحكم ذاتى متميز ماعدا الشئون الخارجية والدفاع فهما من مسئولية الحكومة المركزية ، ويكون لها مجلسها التنفيذى وجمعيتها التشريعية واستقلالها القضائى ، مع وعد من الصين بألا تلجأ إلى أى تغيير فى القوانين السارية .

بالإضافة إلى ذلك يسمح للسكان المحليين فى هونج كونج بحكم أنفسهم بأنفسهم، ويعين الحاكم بمعرفة الحكومة المركزية على أسس الانتخاب أو الاستشارة ، أما الصينيون والموظفون والأجانب الذين يعملون حاليا فى الحكومة فيستمرون فى مواقعهم وإن كان لن يسمح للأجانب بتولى المناصب الإدارية الرئيسية ، ووافقت الصين على استمرار النظم والحقوق الاقتصادية والحياتية دون تغيير بما فى ذلك حرية الصحافة والسفر والشئون الدينية والعقائدية والاجتماعات والأحزاب وشغل المناصب والأبحاث العلمية .

أما الشئون الاقتصادية والمالية فتواصل هونج كونج دورها كميناء حر ومركز مالى عالمى ، ولها حريتها فى المعاملات الاقتصادية والمالية والمصرفية والأمنية والتجارية وأعمال أسواق الذهب والمال والعملة ، وأن يتمتع دولار هونج كونج بحريته وقيمته دون

أى تدخل ، وتعهدت الصين أيضا ألا تقوم بتحصيل أية ضرائب أو استنزاف أى أموال من ميزانية هونج كونج باعتبارها مستقلة اقتصاديا وماليا ، وأن تواصل حريتها فى التنمية الاقتصادية والزراعية والعلاقات الثقافية ، ولها أن تعقد اتفاقيات خارجية من الدول والمنظمات الأجنبية ، وتعهدت الصين بألا تجرى أية ممارسة للنظم الاشتراكية والشيوعية حتى عام ٢٠٤٧ فى الإقليم الجديد كما أعلن الزعيم الصينى دنج أن ذلك سيستمر بعد ذلك التاريخ دون تغيير .

والصين الأم نفسها لاتتعجل مثل هذا التغيير لأنها تدرك أن هونج كونج هى الباب المفتوح بينها وبين العالم ، وأنها المصدر الذى تنهال من خلاله العملات الحرة التى تحتاج إليها الصين ، فهى الدجاجة التى تبيض الذهب والاسترلينى والدولار ، ولابد من الحرص على حياة هذه الدجاجة فلا تتعرض للذبح ولايمسها أحد بسوء ولو حتى بنزع ريشها أو قص أجنحتها ، ويكفى أنها الإبنة التى عادت إلى أحضان أمها بعد ٩٩ عاما من « التأجير » للآخرين .

● الأفيون هو السبب !

سنوات الإيجار تلك لها قصة يرويها لنا مرافقنا الصينى ينوبو شينج :

كانت هونج كونج تحت إدارة محافظة شينآن ـ مدينة سنشن الحالية بمقاطعة قواندونج ـ فى عهد أسرة تشينج الملكية (١٦١٦ ـ ١٩١١) . وكانت جذور هونج كونج مغروسة فى أعماق التاريخ المظلم للأفيون وحروب الأفيون ، ففى منتصف القرن التاسع عشر كان أنشط التجار على السواحل الصينية هم الإنجليز المتاجرون فى الأفيون. كانت كمية الأفيون التى تصل إلى الصين قد ارتفعت من ٢٠ ألف صندوق عام ١٨٣٣م إلى أكثر من ٤٠ ألف صندوق فى عام ١٨٣٧م .

رجل واحد كان هو الذى وقف يقاوم تجارة هذه السموم هو « لين تسى هو » حاكم هوكوانج فى مقاطعة هوبان وكوانتون ، وطلب فى البداية تسليم جميع ما فى حوزة التجار من الأفيون وأنابيبه ومحاقنه ، وبعد أن ترك مهلة أصدر أوامره بشنق كل من يضبط بحوزته أية كمية من الأفيون أمام الجماهير .

وبعد أن تمكن «لين تسى هو » من القضاء على تجارة الأفيون فى مقاطعته أصبح مقتنعا بضرورة اتباع نفس الأمر فى بقية بلاد الصين ، وأصدر امبراطور المانشو « تاو كوانج» المعروف باسم التنين الامبراطورى أوامره بدعم موقف « لين تسى هو » فى كل أنحاء الصين وأرسله إلى كانتون بسلطات مطلقة كمفوض عام ونائب للملك للقضاء على تجارة الأفيون نهائيا .

فى ذلك الوقت عينت بريطانيا اللورد وليام نابيير القائد البحرى السابق فى معركة ترافلجار ، مفوضا عاما فى كانتون لرعاية مصالح التجار الإنجليز والتوسط بينهم وبين الحكومة الصينية . وفى معاملاته مع السلطات المعنية كان لديه تحذير من حكومته بتفادى أى صدام لا داعى له أو استخدام لهجة التهديد وأن يحترم قوانين البلاد ، ولكن فى الوقت نفسه كانت لديه أوامر من اللورد بالمرستون وزير الخارجية بألا يشجع عمليات تهريب الأفيون وإن كان عليه ألا يتدخل فى شئون التجار الإنجليز أو الوقوف فى وجههم ، وبمعنى آخر كان على نابيير أن يغلق عينيه عن تنفيذ كل مايقرره الامبراطور وأن يحاول الاحتفاظ بعلاقات طيبة معه ، ولم يكن من الممكن تفادى الصدام بين السلطات الصينية وممثل الحكومة البريطانية فى كانتون بعد أن تبينت هذه السلطات أن نابيير أصبح عينا على المنطقة لصالح تجار الأفيون ، فأرسل نابيير إلى حكومته بضرورة غزو هونج كونج ووضع اليد على مينائها ذى الأهمية الاستراتيجية لبريطانيا .

●بداية الغزو .. والبقية تأتى

وفى يونيو ١٨٤٠ تجمعت فى مواجهة ميناء هونج كونج قوة بريطانية تضم ثلاث سفن حربية و١٤ مدمرة وفرقاطة وأربع سفن تجارية و٤٠٠٠ جندى إنجليزى وهندى بقيادة كابتن إليوت ، وتلقى نائب الملك الصينى من الحكومة البريطانية إعلانا بضرورة المحافظة على الأفيون المصادر ودفع تعويض عن الإهانة التى لحقت بممثل المملكة وضرورة فتح موانىء أخرى للتجار الإنجليز .

فأما التعويض فيأخذ شكل التخلى عن واحدة أو أكثر من الجزر القريبة من

الساحل الجنوبى للصين ، وأعطى إليوت تلميحا باحتلال هذه الجزر قبل بدء المفاوضات .

وبدأ الانجليز يستخدمون الميناء وكأنه أصبح ملكا لبريطانيا ، ومنذ ذلك الوقت بدأ المسئول الإنجليزى إبحاره شمالا لمهاجمة جزيرة شوسان ، وعندما استولى الإنجليز على عاصمة الجزيرة بدأ إليوت يعرض التفاوض مع الصينيين الذين طالبوا ـ بعد أن وقعت معركة ثانية ـ بعودة شوسان مقابل إعطاء القائد الإنجليزى جزيرة هونج كونج ودفع قيمة الأفيون الذى سبق مصادرته .

وفى ٢٠ يناير ١٨٤١ وقبل توقيع الاتفاق نزلت القوات الإنجليزية فى هونج كونج ، ورفض الحاكم الصينى التوقيع ، وكانت النتيجة معركة أخرى وتراجع الصينيين وإعلان اتفاقية جديدة .

عندما وصل مشروع اتفاقية كانتون إلى لندن ثار غضب بالمرستون ، فقد اكتشف الإنجليز أنهم تنازلوا عن شوسان مقابل هونج كونج كمركز تجارى ، ولكن مع دفع الضرائب على التجارة للصين ، بالإضافة إلى أنها جزيزة صخرية عارية حتى من بيوت للإقامة .

ومرة أخرى عادت المعارك . وفى هذه المرة سقطت شنغهاى فى أيدى الإنجليز ، وتمت محاصرة نانكين العاصمة الجنوبية للصين . ولإنقاذ نانكين قبل الصينيون فى أغسطس ١٨٤٢ التوقيع على معاهدة أخرى أشد قسوة من الأولى ، أحد الشروط كان أن تتبع هونج كونج للتاج البريطانى ، وتعيين حاكم بريطانى عليها هو السير هنرى بوتنجار .

وفى ٢٩ أغسطس ١٨٦٠ أجبر الاستعمار الإنجليزى حكومة أسرة تشينج على التخلى عن جزيرة هونج كونج عبر معاهدات نانكين غير المتكافئة ، ثم أرغم الإنجليز الحكومة الصينية على توقيع معاهدات بكين فى ٢٤ أكتوبر ١٨٦٠ ، وبموجبها انفصلت جيولونج (كاولون) عن البر الصينى . ثم جاءت المرة الثالثة حين أكره الإنجليز حكومة أسرة تشينج على تأجير شينجيه (الأرض الجديدة) لبريطانيا لمدة ٩٩

سنة بموجب معاهدة استئجار حدود هونج كونج فى ٩ يونيو ١٨٩٨ بحيث تعود تسعة أعشار المستعمرة بعد ذلك التاريخ إلى الصين .

واستمرت تجارة الأفيون على أيدى التجار الإنجليز فى هونج كونج تتغير مع تحولها إلى أنواع أخرى من التجارة والنشاط الاقتصادى المتطور من خلال موقعها الاستراتيجى المتميز فى جنوب شرق آسيا .

• سوق تجارى عالمى

كل ذلك هو ماشهدناه منذ هبوط طائرتنا فى مطار هونج كونج الممتد كلسان طويل داخل البحر ، وهو يكاد يكون المطار الوحيد فى العالم الذى زحف إليه العمران ، ويقع فى منطقة آهلة بالسكان ، ولم نكد نخطو خطوات قليلة من المطار حتى وجدنا أنفسنا وسط مدينة تجارية تموج بالحركة ليل نهار .

ونتساءل على الفور . . هل نحن فى جزيرة . . أم فى سوق عالمى ؟ وهذا الخليط الغريب من الأجناس البشرية التى تتباين ملامحها ما بين الأشقر والأسمر والأصفر ، الصينى والهندى واليابانى والباكستانى والإنجليزى والأمريكى ، ما حكايته ؟ وتلك المبانى المتلاصقة المتصاعدة بعضها كناطحات السحاب والتى تجمع مابين الطراز الحديث فى المعمار وهندسة الإنشاءات ، ماهى قصتها ؟ ، وكيف جمعت هذه المساحة الصغيرة من الأرض ما بين الحضارات القديمة والحديثة . . وما بين قمة الثراء وقاع الفقر فى آن معا ؟ وماهو سر هذا السوق التجارى الذى يعرض كل منتجات العالم بأرخص الأسعار . . تباع كلها فى دكاكين الأزقة الضيقة والشوارع التى تتوزع فيها المحلات التجارية فى كل اتجاه وممرات مداخل الفنادق الضخمة الناطحة للسحاب وفى عمائر الأسواق الضخمة المسماة «امبريوم» .

الحقيقة ندركها حين نجرب الدخول إلى أحد هذه الأسواق . . واحد من مجمعات «الامبريوم » . إنه سوق شامل فى مبنى شاهق من عشرين طابقا ، وهو واحد من حوالى مائتين من العمارات المماثلة أقامتها الصين الشعبية فى هونج كونج ، فى هذه المجمعات تبيع الصين بأرخص الأسعار منتجات من صناعاتها ومختلف فنونها من تحف ونحت

وخزف وحرير منقوش وملابس وأزياء ومشغولات يدوية وصناعات حرفية وبضائع من كل نوع ، هذه المجمعات تجتذب السائحين الذين تستهدف الصين أن تعرض عليهم منتجاتها ليروا ما بلغته فى مجالات التصنيع والإنتاج وبأسعار تبدو زهيدة جدا ، وإن كان مجموع حصيلتها يتجاوز مليار دولار فى السنة . . وهى ينبوع من العملات الصعبة يتدفق عليها عن طريق هونج كونج .

ولا تكتفى الصين الشعبية بترويج منتجاتها فى مجمعات « الامبريوم » بل إنها تفتح حوانيت أخرى صغيرة تشجيعا للصينيين من أهالى هونج كونج ممن تعمر قلوبهم بالولاء لوطنهم الأم وتدع لهم أن يبيعوا المنتجات الصينية بأسعار تقل عما تبيع به فى الامبريوم حتى يحقق هؤلاء أرباحا إضافية تزيدهم تعلقا ومودة مع موطنهم الأصلى الذى لايبخل عليهم بشىء .

● الحقيقة التى تدركها الصين

فالصين الشعبية تجعل من هونج كونج فى الحقيقة متجرا أماميا لصادراتها ووارداتها أيضا ، ولهذا لاتهتم بنشر مبادئها وأنظمتها الاشتراكية بين سكانها لأنهم أكثر فائدة لها فى ظل النظام الرأسمالى القائم ويكفيها أنهم صينيون أبا عن جد . . فهم كلهم تمتد جذورهم فى أعماق أرض الوطن الأم وسيظل انتماؤهم لهذا الوطن حتى لو باعدت بينهم النظم والسياسات ، ورؤوس الأموال .

وتلك هى الحقيقة التى تدركها الصين جيدا . . فسكان هونج كونج فى أغلبهم صينيون تصل نسبتهم إلى ٩٨٪ بينما ٢٪ فقط من المهاجرين والفارين من بلادهم ومن الأجانب المستثمرين الذين وجدوا فيها أرضا خصبة للتجارة والكسب والثراء .

كانت الأصول الصينية التى تعيش فى الجزيرة الجرداء لا يتجاوز عددها بضعة مئات قبل ١٥٠ عاما وكان أغلب هؤلاء من الصيادين والقراصنة الذين يجدون فى مرفئها وصخورها مكانا لتهريب وتخزين بضائعهم ومسروقاتهم ، وفى منتصف القرن التاسع عشر ، فى عام ١٨٣٩ نزح إلى الجزيرة حوالى ١٥٠ من التجار الإنجليز الذين كانوا يتخذون من كانتون مكانا لتجارتهم التى كان أغلبها من الأفيون مما كان سببا فى

صدور أمر الامبراطور بطردهم وإبعادهم من المدينة ، وهرب هؤلاء إلى أقرب مكان لهم حيث جزيرة هونج كونج ومرفئها الطبيعى ، وبعد فترة من استقرارهم هناك بين المواطنين الصينيين بين أهالى الجزيرة كان الاستعمار الإنجليزى قد بدأ يضع أقدامه فى المنطقة قبل حرب الأفيون ، كما تزايد عدد السكان من الصينيين الوافدين خاصة بعد الثورة الصينية حتى بلغ عددهم عام ١٩٣٠ حوالى ٨٤٠ ألف نسمة ، وعندما نشبت الحرب الأهلية الصينية عام ١٩٤٨ وطوال الفترة حتى عام ١٩٦٤ تدفق على هونج كونج حوالى مليون من الهاربين وأصحاب الملايين من الصينيين يحتمون بالعلم البريطانى ولم تهتم الحكومة الشيوعية بتعقبهم هناك ، واستمر توافد الفارين من وجه الحكومة الثورية إلى الجزيرة ، ومعظمهم من أبناء الطبقة المتوسطة والبرجوازيين ليستقروا ويشتغلوا بالتجارة ، وأخذ عددهم يتزايد مع مرور السنين وتحول الجزيرة إلى النظام الحر حتى تجاوز فى عام ١٩٨٠ حوالى أربعة ملايين ليصل الآن فى ظل حرية التجارة إلى حوالى خمسة ملايين وخمسمائة ألف نسمة .

الفصل الثانى

عند مصب نهر اللؤلؤ

أول مايلفت أنظارنا ونحن نطل من الطائرة قبل هبوطها هو خليج هونج كونج فى النقطة الواقعة شرق مصب نهر اللؤلؤ والمرفأ الذى يعتبر مع سان فرنسيسكو فى أمريكا وريودى جانيرو فى البرازيل أحد ثلاثة موانىء ممتازة طبيعية فى العالم ، وأعلن قائد الطائرة أن خليج ويتليت بين جزيرة هونج كونج وكاولون يتسع بمساحة ٥٩ كم^{٢} ويتراوح عرضه بين كيلو متر ونصف وعشرة كيلو مترات ، وتدخل السفن الضخمة من خلال المجارى المائية الثلاثة إلى الخليج الذى يقع على امتداده ٧٤ مرسى عميق الماء وتمتاز الموانىء بفعاليتها فى العمل ، ونعرف أن ميناء هونج كونج له أهمية فى التجارة والمواصلات حيث يربط مابين الشرق والغرب ومناطق جنوب شرق آسيا ، ويتردد عليه حوالى ١٢٠ ألف سفينة منها عشرون ألف سفينة عابرة للمحيطات ومائة ألف سفينة للملاحة النهرية سنويا ، ويمثل الميناء فى خدمات النقل عن طريق حاويات المرتبة الرابعة فى العالم بعد نيويورك فى أمريكا وروتردام فى هولندا وكوبى فى اليابان .

وهونج كونج كميناء حر يطبق سياسة الانفتاح على استثمارات الصناعة والتجارة وبيع المنتجات العالمية ويتبع سياسات التجارة الحرة والتسويق الحر والمنافسة الحرة .

وقد كان الاقتصاد فى هونج كونج يقوم اعتمادا على خدمات المواصلات والنقل والتجارة فى السلع المشحونة عبرها فى أعقاب الأربعينيات ، واحتلت تجارة السلع الترانزيت ٨٤٪ من إجمالى قيمة تجارة الصادرات ، وأما بعد الخمسينيات فصار اقتصادها يطير بسرعة خاطفة ولاسيما صناعة التحويل والتركيب والتجميع ثم صناعة الإلكترونات فى الستينيات .

● صناعات الغزل والملابس الجاهزة

قال لنا محمد النمر نيو باوشنج الصحفى الاقتصادى وهو يحدثنا عن مسيرة الاقتصاد فى البلاد : يوجد الآن فى هونج كونج حوالى ٤٨ ألف مصنع يعمل بها حوالى ٩٠٠ الف عامل وعاملة . وغالبية المصانع ذات أحجام صغيرة ، ولكن هذه المصانع تمتاز بالسهولة فى تحويل إنتاجها إلى ماهو رائج ، مما يدر أرباحا كبيرة .

الغزل والنسيج وخياطة الملابس الجاهزة هى أهم الصناعات فى هونج كونج . وقد بلغ عدد المناسج فيها حوالى ٣٥ ألف وحدة ، وفيها ٧٦٦ ألف مغزل . وقد حقق إنتاج الأقمشة القطنية سنويا مايقرب من مليار متر مربع . والمنسوجات الخليطة حوالى ١٠٠ مليون متر مربع ، واحتلت نسبة الملابس الجاهزة والمنسوجات المصدرة ٤٠٪ من مجموع قيمة الصادرات .

وتعتمد المواد الخام والوقود الصناعى على الاستيراد من الخارج . وتصدر البلاد ٨٠٪ من المنتجات التحويلية إلى أمريكا وبلدان غرب أوربا . وقد بلغ حجم الواردات فى كل سنة من الأعوام الأخيرة ما متوسطه ١٤٠ بليون دولار هونج كونجى من منتجات البلاد و٤٢ مليار دولار من السلع المشحونة عبرها . وبلغ الحجم الإجمالى للصادرات والواردات فى التجارة الخارجيه ٤٦ مليار دولار أمريكى ويمثل بذلك المرتبة العشرين فى العام

أما منتجات هونج كونج المحلية بما فيها الساعات والملابس الجاهزة والزهور البلاستيكية ومصابيح البطاريات والشعور الصناعية (الباروكات) فقد بلغ حجم صادراتها مايجعلها تتربع على عرش المرتبة الأولى فى العالم .

وفى عام ١٩٧٣ رفعت القيود عن تدفق الذهب والعملات الصعبة من هونج كونج وإليها . وتطبق سياسة التجارة الحرة والتسويق الحر فى العملات الصعبة والذهب . وفى العام الأخير بلغ حجم تجارة العملات الصعبة ستة ملايين دولار أمريكى فى اليوم الواحد . وبذلك اعتبرت هونج كونج ولندن وزيوريخ هى المراكز المالية الرئيسية فى العام .

ومن خلال (صناعة العقارات فى السبعينيات) ارتفعت ناطحات السحاب على كل بقعة من الأرض فى هونج كونج ،حتى أصبحت تكاد تقترب من أعلى التلال المطلة على الخليج . . تلال «القمة » .

● أهل القمة .. وأهل القاع

حين بدأنا تجوالنا فى هونج كونج ، قالت لنا مرافقتنا : مارأيكم فى إطلالة على أجمل منظر فى العالم ؟ تعالوا بنا نستقل قطار القمة . . متسلق الجبال ! . قطار القمة نستقله من أسفل السفح عند خط أفق وسط المدينة من الطرف الغربى لمدينة كنيدى ، قبل أن ننزل إلى القطار نجد أنفسنا بين صفوف متراصة من سيارات اللورى المتلاصقة قرب صفحة الماء التى تتناثر عليها الصنادل والقوارب والسفن الصغيرة حيث تنتشر فوقها حبال منظومة علقت عليها الملابس المغسولة . . وعلى الرصيف حبّال من الأسلاك والرافعات تتأرجح فى الهواء ، ورجال ومنادون يصيحون فى كل مكان ، وعمال ينتشرون على مقاهى الشاى والمطاعم المخصصة لهم ، كما يجلس رسام أو خطاط منفردا على الرصيف وقد علق لوحاته على الجدران .

ويرتفع بنا قطار القمة صاعدا السفح مكونا من عربتين تحمل كل منهما ٧٢ راكبا ويشيد كلا منهما كابل من الصلب يبلغ طوله خمسة آلاف قدم حيث يصعد إلى ارتفاع ١٨٠٩ أقدام فوق سطح البحر ، فقطار القمة يصل ما بين وسط المدينة إلى القمة حيث يقيم أثرياء هونج كونج فى مساكن غاية فى الرفاهية والأناقة والجمال .

ومن قبل كان الناس يصعدون إلى القمة عن طريق محفة يتم سحبها إلى أعلى ، وظل ذلك معمولا به حتى عام ١٨٨٨ حتى تم تشغيل قطار القمة .

الوقوف عند السور فى القمة يتيح لنا مشاهدة منظر فريد لجزيرة هونج كونج وكاولون وصفحة مياه الخليج ، ولأن الزوار والسياح يتجهون دائما إلى هذا المكان للإطلالة على ذلك المشهد المثير فقد تناثر على جانب الطريق فوق القمة عدد كبير من الفنانين والرسامين والخطاطين الذين يبهرونك بلوحاتهم الطبيعية ويرسمون وجهك فى دقائق قليلة ، كما يكتبون اسمك على اللوحة بالخط الصينى بشكل فنى متميز .

وبين هؤلاء وهؤلاء تجد الباعة الجائلين وتجار التحف والمشغولات اليدوية الفنية والشعبية يعرضـون أعمالا غاية فى الدقة والجمال وبأسعار رخيصة متميزة .

ولن يجذبك بعد ذلك إلا المعارض المتناثرة التى تعرض مختلف المجوهرات والصناعات الفنية والتحف اليدوية المحفورة ، وخاصة من حجر اليشب الأخضر والزمرد والياقوت بالإضافة إلى أدق الصناعات وخاصة الذهبية والفضية التى تجتذب الزوار من كل أنحاء الدنيا .

● اليشب وصناعته

فى هذه المعارض ومشاغلها الصناعية نشاهد طرق الصناعة وأساليب حفر اليشب وتشغيل المصنوعات الذهبية والفضية والمجوهرات بكافة أنواعها التى يتحلق حولها الزائرون وخاصة النساء .

ويبدو لنا ـ كما يقول مرافقنا ـ أن هؤلاء الصناع الصينيين بلغوا درجة من الإتقان والكمال ، لم يفقهم فيها أحد قبلهم ، وبزوا جميع منافسيهم فى كافة أنحاء العالم فى قطع اليشب وغيره من الأحجار الصلبة .

ونحاول التعرف على اليشب الذى يصنعون منه أجمل التماثيل الصغيرة والتحف . يقول لنا كبير الصناع فى مصنع التحف الرئيسى وهو يداعب أحد الأحجار بين يديه قبل أن يكتمل تشكيله .

صناعة اليشب قديمة قدم التاريخ الصينى نفسه . وشاهد ذلك أن آثارها وجدت فى أقدم القبور . وتعزو أقدم السجلات التاريخية أول استخدامه فيما كان يسمى «حجر سمع » إلى عام ٢٥٠٠ ق . م . ذلك أن حجر اليشب كان يقطع على صورة سمكةأو نحوها تعلق فى إطار . فإذا ما أجيد قطع الحجر وتعليقه خرجت منه أنغام موسيقية واضحة جميلة تدوم لمدد طويلة . ويتركب حجر اليشب من معدنى «الجاديت والتفريت » . والأول يتكون من سليكات الألومنيوم والصوديوم . ويتكون الثانى من الكالسيوم والمغنسيوم . وكلا المعدنين صلب قاس يحتاج تهشيم البوصة المكعبة منه إلى ضغط خمسين طنا فى بعض الأحيان : وتكسر القطع الكبيرة منه عادة بتعريضها كما ترون هنا إلى الحرارة الشديدة ثم إلى الماء البارد على التعاقب .

وفى وسعكم أن تدركوا حذق الفنان الصينى من قدرته على إظهار ألوان براقة خضراء وسمراء وسوداء وبيضاء من هذا الحجر القديم اللون بطبيعته ، ومن صبره الطويل ومثابرته حتى يخرج منه أشكالا مختلفة لا عداد لها ، حتى لايكاد الإنسان يجد بين مجموعات اليشب التى فى العالم كله قطعتين متماثلتين . اللهم إلا أزرار الملابس .

ويضيف محدثنا وهو يقلب بين يديه مجموعات متباينة .

من التحف اليشبية التى تختلف جميعا عن بعضها البعض : أول ما عثر عليه من مصنوعات يشبية فى عهد أسرة شانج فى صورة ضفدعة تستخدم قربانا مقدسا . وصنعت منه أدوات غاية فى الجمال فى أيام كونفوشيوس . وبينما كان الناس فى غير الصين - وهونج كونج فى الأصل جزء منها - يتخذون من اليشب فئوسا ومدى وأوانى ، كنا نحن نعظم هذا الحجر تعظيما حملنا على ألا نستخدمه إلا فى التحف الفنية الجميلة . وكان اليشب عند أجدادنا أثمن من الفضة والذهب والحلى على اختلاف أنواعها . وكانوا يقدرون بعض مصنوعات اليشب الصغيرة كخواتم الإبهام التى يتحلى بها كبار الحكام بما يقرب من خمسة آلاف دولار. ويقدرون بعض القلائد اليشبية بمائة ألف دولار . وكان المعنيون بجمع القطع النادرة منه يقضون السنين الطويلة فى البحث عن قطعة واحدة .

● اللك وفنونه

وننتقل إلى ورشة أخرى فى أحد المعارض . ونشاهد كيف يطلون التحف بما يسمى «اللك»

يقول لنا كبير خبراء المصنع : اللك هو نتاج طبيعى لشجرة أصلها من أشجار الصين . ويؤخذ عصيرها من جذعها وغصونها ، ثم يصفى ويغلى ليزول منه مالا حاجة إليه من السوائل والشوائب ، ويطلى به بعد ذلك المعدن والخزف فى بعض الأحيان . ثم يجفف بتعريضه للرطوبة . ويتكون الطلاء من طبقات تتراوح بين عشرين وثلاثين طبقة يبذل فى تجفيف كل واحدة منها وصقلها جهد عظيم وعناية فائقة . وتختلف كل طبقة عن غيرها فى لونها وسمكها وتنقش هذه الطبقات بعد تمامها بآلة

حادة معينة بحيث يصل كل حز إلى الطبقة ذات اللون الذى يتطلبه الشكل المرغوب . .

وقد نما هذا الفن على مهل وبدأ فى صورة كتابة على شرائح من الخيزران . وكانت مادة اللك تستخدم لتزيين الأوانى والسروج والعربات وماإليها . ثم استخدم بعد ذلك لطلاء الأبنية والآلات الموسيقية . وقد ازدهرت فروع صناعة اللك وتحددت أشكالها حتى جاء عصر الإمبراطورين المستنيرين كانج شى وتشين لونج من أباطرة المانشو الصينيين حيث صدرت الأوامر الإمبراطورية بتشييد المصانع الخاصة بها والإنفاق عليها من مال الدولة : فأخرجت من روائع الفن أمثال عرش تشين لونج والستر الذى : أهداه كانج شى إلى ليوبولد الأول إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية . واحتفظ هذا الفن بتلك الدرجة الرفيعة حتى القرن التاسع عشر لنستمر الآن فى صناعة التحف وطلائها وخاصة فى أنواع كثيرة من الأثاث الفاخر .

● الخزف وخطوط المينا

فى أحد المشاغل داخل معرض المجوهرات والتحف الفنية نجد أنفسنا وسط مجموعة من القدور والتحف الخزفية ذات الألوان الزاهية البديعة . وتلك هى صناعة الخزف من الفخار . والخزف هو الفخار المزجج أى أنه هو الطين الممزوج بالمعادن والذى إذا عرض للنار ساح واستحال إلى مادة نصف شفافة شبيهة بالزجاج . والخزف أو ما أطلق عليه فى أوربا «البورسلين» صنعه أهل الصين من مادتين : الكولين وهو طين أبيض لقى مكون من فتات الفلسبار والجرانيت ومن مادة تسمى « بى - تن - دزى » هى كوارتز أبيض قابل للانصهار وهو الذى يكسب الأوانى الخزفية مافيها من شفافية . وتسحق هذه المواد كلها وتخلط بالماء فتتكون منها عجينة تشكل باليد أو على عجلة . ثم تعرض لدرجة حرارة مرتفعة تصهر العجينة وتحيلها إلى مادة زجاجية براقة صلبة . وفى بعض الأحيان تغطى العجينة أو الإناء قبل حرقه بطبقة من مسحوق الزجاج ثم يحرق فى الفرن وفى بعض الأحيان توضع هذه الطبقة الزجاجية على العجينة بعد حرقها قليلا ثم يستكمل حرق الإناء بعد ذلك . والطبقة الزجاجية تكون فى أغلب الأحيان . ولكن العجينة كثيرا ماتنقش وتلون قبل أن تضاف إليها المادة الزجاجية الشفافة أو تلون الطبقة

الزجاجية بعد حرقها ثم تثبت عليها برقها مرة ثانية . أما « الميناء » فتصنع من الزجاج الملون يدق ويسحق ثم يحول إلى مادة سائلة يضعها الرسام على الآنية بفرشاته الرقيقة وهناك فنانون قضوا حياتهم فى التدرب على عملهم ، يخصص بعضهم فى رسم المناظر الطبيعية ، وغيرهم فى رسم القديسين والعلماء المنقطعين للتأمل والتفكير بين الجبال ، أو الذين يمتطون ظهور حيوانات غريبة فوق أمواج البحار .

هنا شاهدنا أنواعا رائعة من الزهريات التى تتمتع بجمال فائق فى الشكل والصقل مصنعة من الخزف المطلى بالميناء والمرصع بالذهب . وهذا الفن كما تتبعنا مراحله يتم بقطع شرائح من النحاس أو الفضة أو الذهب وتثبيتها على حدها فوق خطوط شكل معين تم رسمه من قبل على جسم معدنى ، ثم يملأ مابين هذه الفوارق من فراغ بميناء من اللون المطلوب الملائم لها . ثم يعرض الإناء بعدئذ للنار عدة مرات ويدلك السطح الصلب بقطعة من حجر الخفاف . ثم يصقل بقطعة من فحم الخشب . ويتم تزليق أطراف الحواجز المعدنية الظاهرة لتصبح الآنية أو الزهرية بعد ذلك فى غاية الروعة والإتقان .

ويهز كبير الصناع رأسه فى أسف وهو يقول :

تلك هى الصناعة الأصيلة للخزف الصينى . أما ماترونه فى الغرب من صناعات الخزف أو ماسمى بالأوانى الصينية فهى أنواع منحطة من الخزف تصنع فى أحد المصانع الانجليزية ، وهى لا ترقى على الإطلاق إلى الخزف الصينى الحقيقى . لقد قامت مصانع فى سيفر بفرنسا ، ومصانع فى ما يسن بألمانيا ومصانع فى انجلترا تحاكى خزف الصينيين . ولكن الخزافين الأوربيين عجزوا رغم مابذلوه من محاولات وجهود جبارة فى أن يبلغوا مابلغه الخزافون الصينيون من الدقة والمهارة . صحيح أن طريقتهم فى الصناعة قللت من نفقات الإنتاج باستخدام الآلات ، وأخذت تستحوذ عاما بعد عام على تجارة الخزف الصينية الخارجية . . ولكنها لن تصل أبدا إلى جمال الخزف الصينى أجمل ماصنعه الجنس البشرى . . فهو ذروة الحضارة الصينية ورمزها .

الفصل الثالث

من قمة الأثرياء إلى قاع الفقراء

من فوق قمة فيكتوريا نطل إلى أسفل حيث أكثر الأماكن جاذبية ، غابات من ناطحات السحاب الضخمة تمتد إلى مرمى البصر ، تتخللها مجموعات من القصور والفيلات والفنادق التى تباهى أعظم قصور وفنادق العالم ، كلها تتناثر على مساحات الأرض الضيقة الممتدة على طول الساحل فى الجزيرة وفى كاولون على برها الصينى ، وتتألف أغلب المبانى الضخمة من حوالى ستين طابقا ، تقوم فيها مكاتب لإدارة الأعمال، والمشهد يبدو كبانوراما رائعة تزداد روعتها حين يهبط الليل فتتلألأ واجهات المبانى باللآلىء والأنوار ، وخاصة الحمراء فتبدو كأنها جبال من الأحجار الكريمة ، ومع انطلاق السيارات الفاخرة بأضوائها فى الشوارع وانعكاسها على أضواء الإعلانات التجارية تبدو الصورة من أعلى كأروع مشهد يطل عليه إنسان ، خاصة وقد كنا نطل عليه من نوافذ مطعم برج القمة الذى يرتفع حوالى ١٣٠٠ قدم على جبل فيكتوريا .

وننزل من قمة الأثرياء إلى قاع الفقراء ، إلى قرية أبردين . . الوجه الآخر لهونج كونج ، قرية عائمة يسكنها الصينيون الفقراء داخل قوارب لا يغادرونها حيث ينامون ويعيشون ويمارسون وظائفهم الطبيعية ، بعض القوارب مخصصة للصيد وبعضها للسكنى والإقامة ، وبعض آخر من القوارب القديمة تحولت إلى مطاعم تقليدية تقدم فيها الأطباق الشعبية والأكلات البحرية .

فى قرية أبردين البحرية التى تضم حوالى خمسة آلاف قارب يعيش حوالى أربعين ألفا من البشر فى ملاجىء وأكواخ وقوارب متهالكة يفضلون الحياة فيها على حياة البر ، ومعظم أصحاب القوارب من الصيادين الذين يمدون هونج كونج بالكميات الهائلة

من الغذاء ، ومن هذا المكان يخرج أكثر من ١٥٠ نوعا من الأسماك التى تغمر بها الأسواق ، ولعل زيادة كمية الأسماك التى بلغت قيمتها وحدها فى العام الماضى حوالى ٩٠٠ مليون دولار ، قد ازدادت بعد أن استطاع عدد من الصيادين تحويل قواربهم إلى الميكنة مما زاد دخلهم ورفع كفاءة الصيد ، ولبى أكثر من ٩٠٪ من الطلب على الغذاء البحرى . ويبشر هذا التحول فى قرية أبردين وصياديها إلى مستقبل أفضل ، وإن كان ذلك لن يمنع أن تستمر كمنطقة جذب سياحى لجميع القادمين من الزوار إلى هونج كونج ، باعتبارها مزارات زاهية تخرج منها صناعة اقتصادية حيوية ، برزت قيمتها مع تطور طرق زراعة أسماك الأحواض التقليدية فى المناطق الجديدة التى تطورت هى الأخرى ، وأصبحت من المشاهد التى تجذب الأنظار تربية الأسماك الصغيرة فى أقفاص معلقة فى أطواف داخل الخلجان المحمية .

وقد تهيأت الفرصة لنا لزيارة بعض العائلات المقيمة فى قوارب أبردين ، الأسرة كلها كبارها وصغارها ومواليدها تعيش فى القارب جنبا إلى جنب مع كلب أو كلبين وقفص كبير من الدجاج ، أما الأثاث وكل احتياجات المعيشة فتتناثر على سطح القارب وفى قاعة حيث قفص أو قفصين مملوء ين بحصيلة اليوم من الصيد .

ولم نشعر قط من أفراد الأسرة الكبيرة التى تتزاحم داخل القارب وجيرانهم أن لديهم أى رغبة أو تشوق للنزول إلى البر إلا لحاجة ملحة ، فيستقلون قوارب مجدافية صغيرة تلعب دور التاكسى مقابل قيمة زهيدة ، والكبار من السكان يفضلون ألا يغادروا قواربهم حتى الموت ، وبين حين وآخر تمر قوارب صغيرة تحمل المتاجر والطعام والاحتياجات الضرورية التى يحتاج إليها السكان ، وأصحاب هذه البقالات المتنقلة يقومون بالإضافة إلى ذلك بدور موظف البريد حيث يتسلمون الرسائل الواردة والصادرة ، كما يتولون نقل الأطباء الذين يحتاج إليهم الأمر لعلاج أى مريض ، كما يقومون بدور التاكسى للمقيمين من الأهالى على البر لزيارة أقاربهم وأصدقائهم ، وتوصيل التلاميذ إلى المدارس العائمة التى زودت بها الحكومة سكان أبردين من أجل تعليم أفضل لأبنائهم .

● صناعة السفن والقوارب

فى ملاجىء السفن والقوارب يتضح التناقض بين حياة الأهالى الصينيين وحياة اللاجئين الهاربين إلى هونج كونج . على صفحات الماء يظهر التقاء الشرق والغرب واضحا فى تباين أشكال القوارب وطرق صناعتها ، وبالرغم من كثرة القوارب الموجودة فى القرى البحرية والتى جاءت من مختلف مناطق الهجرات إلا أننا نستطيع أن نشهد ـ وخاصة فى جزيرة لانتاو واحداة من أكبر ساحات صناعة القوارب فى العالم حيث الآلاف من أمهر النجارين والصناع المتخصصين فى هذا المجال .

وهونج كونج هى موطن المراكب والقوارب الصينية التقليدية والتى وصفها أحد الكتاب الأوربيين بأنها أشبه بفراشة بنية مزخرفة تنزلق على الماء ، ويمكنك أن تشهد أساطيل ضخمة من هذه المراكب تنتقل بك بين الشواطىء والقرى القابعة على السواحل .

الشىء المثير للعجب هو أن بناة هذه السفن حتى فى أكبر ساحات صناعتها لا يستعملون التصميات الهندسية أبدا ، فخبرة العمال هى التى تقود العمل ، ويبدأ العمل بصنع القاع وتركيب الألواح الخشبية فى جوف السفينة ، بعد ذلك تصنع الدعامات والأجزاء المانعة لتسرب الماء ، وهم لايسدون الفراغات بين الأخشاب والألواح بأى مواد لأن الألواح الخشبية تنتفخ تحت الماء بحيث تملأ هذه الفراغات .

وفى الأرض الجديدة بهونج كونج والتى تبلغ مساحتها ٩٧٥ كم ٢ بما فيها جزرها الصغيرة ، شاهدنا أكبر أماكن صناعة الأشرعة فى العالم ، المكان واسع يكاد فى اتساعه يمثل ملعبين لكرة القدم ، ولأن الأرض هى منضدة العمل فإن الساحة تتميز بالنظافة التامة ، وتنتقى نماذج الأشرعة ويتم توصيلها معا ثم تشبك وتسوى ، ثم تختبر على صارٍ طويل ، وفى النهاية يتم قصها بماكينة خاصة يمكنها أن تمر من خلال مائة طبقة من قماش القلاع السميك ، ثم توضع النماذج على القماش وتقص باليد بسكين ساخنة خاصة لتجرى خياطة الأشرعة سويا حسب القياس المطلوب .

● جولة فى الأرض الجديدة

هنا فى «الأرض الجديدة» شينجية . . ندخل حديقة التنين التقليدية . الحديقة أقامها رجل أعمال غنى من جزيرة هونج كونج . يمتد عند مدخلها تمثال تنين طوله حوالى خمسة عشر مترا . وأغلب النباتات الموجودة فى الحديقة مستوردة من الصين الأم .

تطل على الحديقة من أعلى «رأس القلعة » . وهنا يقوم معبد ضخم يسمى « شبخ شون كونج » يختلف عن بقية المعابد الأخرى . فى جانب من المعبد أقيم بيت للمسنين الذين ليس لهم أقارب أو إمكانيات للحياة . وهنا أيضا متحف لكثير من كنوز الفن الصينى ، بينها مصابيح عمرها أكثر من مائتى سنة ، وأختام من اليشب منذ أكثر من ألف سنة . . كما توجد مكتبة تضم أكثر من أربعة آلاف كتاب توثق لتاريخ القصيدة الداوية .

والداوية التى آمن بها الصينيون كانت مخالفة للكونفوشيه وإن كانت قد ظهرت فى وقت أقرب إليها أو بعدها بقليل . وكانت الداوية طريقة للحياة تهدف إلى الحصول على السلام الشخصى على ظهر الأرض ويبدو أن الصينيين يؤلهون هذه الطريقة أو يتخذونها نوعا من العبادة ، كما أنهم لم ينظروا إليها على أنها ثمن يؤدونه فى الدار الدنيا ليشتروا الحياة فى الدار الآخرة ، وقد آمن الداويون بأرواح الشر وعرفوها وحاولوا تجنبها ، ولكنهم عندما فعلوا ذلك لم يفعلوه خلال تلك الأيام التى عاش فيها «لاوتسى» صاحب عقيدتهم ، بل فعلوها بعده بمئات من السنين . . لأنه هو نفسه لم يقل ذلك . . ولا كان يؤمن به . فقد كانت له آراء أخرى غير تلك التى آمن بها أتباعه بعد ذلك بسنوات .

وقد عدلت قواعد الداوية على يد رجال ادعوا أنهم قد وصل إليهم عن طريق لاوتسى إكسير يهب الحياة والخلود . وكان هذا الإكسير فى صورة شراب شاع بين الصينيين وأسرفوا فيه إسرافا أدى إلى وفاة الكثيرين منهم . وقد أقبل الناس على الدين الجديد وشيدوا له الهياكل وأغدقوا المال على كهنته بسخاء عظيم . واتخذ الناس لاوتسى إلها يعبدونه وقالوا إن أمه حملت فيه حملا سماويا ، ثم ملأوا الأرض بشياطين وآلهة جديدة . وظلت العقائد الداوية ألف عام عقيدة الملايين الصينيين .

وحاول كهنتها بكل الطرق أن ينتزعوا من الكنفوشيين حقهم المقدس فى فرض الضرائب وإنفاق حصيلتها . ثم قضى عليها آخر الأمر . ولكن الذى قضى عليها لم يكن منطق كونفوشيوس وأتباعه ، بل قضى عليها دين جديد أقدر منها هى نفسها على إلهام رجل الشارع وبعث السلوى فى نفسه . . هذا الدين الجديد هو البوذية التى بدأت تنتقل من الهند إلى الصين فى القرن الأول الميلادى . . ولكن هذا لم يمنع استمرار عدد من الناس فى الإيمان بالداوية وزيارة هياكلها ومعابدها .

● سر الممرات الملتوية .

المعبد الذى دخلناه وصلنا إليه عن طريق ممرات ملتوية متعرجة . وقبل أن ندخل القاعة الكبرى التقينا فى الواجهة بغابة كثيفة من الأشجار كان لها سرها . فالداوى يؤمن بأن فى الإمكان منع الروح الشريرة إذا اندفعت داخلة إلى البيت أو الهيكل وذلك إذا وجدت فى وجهها جدارا يعيدها ، وتفاجأ بالجدار أثناء اندفاعها السريع فتصطدم به وتموت . . فإذا كان الجدار عبارة عن أشجار كثيفة أو حتى صورة لها ، وجاءت الأرواح الشريرة محاولة الدخول اندفعت داخل أشجار الغابة المقامة أو المرسومة . . فلا يسمع بها بعد ذلك أبدا . . !

القاعة الرئيسية للمعبد كانت مزينة بالزخارف الملونة القديمة بأفاريز ذات لونين أخضر وأصفر . والسقف المرفوع فوق الجدران يترك فراغا تملؤه شباك من الخشب المزخرف . هذا المعبد مكدس لأحد الداويين المقدسين وهو «ليو كوين مون» . وقد ولد هذا القديس الداوى عام ٧٨٩ وأصبح قديسا بعد أن جاءه الوحى خلال حلم يسمى فى الأساطير «حلم نبيذ الأرز» فنقض الرجل عن نفسه كل شرور الدنيا وأصبح خيرا مؤمنا فاضلا حتى التقديس . وكانت له قوى سحرية بينها سيف يقطع رؤوس الشياطين وسوط يحوم طائر فوق تمثاله بالمعبد . وأمام المذبح يوجد خاتم من اليشب عمره ألف سنة موضوع فى صندوق زجاجى . ويحمى المذبح تمثالان نحتا من الحجر الأبيض قبل ٣٠٠ سنة لأحد المعابد فى بكين قدر ثمن كل واحد منهما بخمسة وسبعين ألف دولار . وداخل المعبد توجد غرف متتالية تحمل جدرانها صورا لأناس توفوا يدفع

أقاربهم مبالغ للحراس للمحافظة على الصور دون أن تمتد اليها الأيدى . فتظل موجودة فى أماكنها باستمرار كلما جاءوا لعبادة الأسلاف وتقديم القرابين لهم . وعبادة الأسلاف منتشرة بين جميع الطبقات . وكانوا يقربون فى كل يوم قربانا متواضعا للموتى ويرسلون الدعوات الصالحات إلى أرواحهم . فالزارع أو العامل كان يعتقد أن آباءه أو أسلافه يعيشون بعد موتهم فى مملكة غير محددة أو واضحة له . وأن فى مقدرهم أن يسعدوه أو يشقوه . كما أن الصينى المتعلم كان يقرب لأسلافه مثل هذا القربان الذى يكون فى العادة شيئا من الطعام دون أن ينظر الى المراسم التى تصحبه على أنها عبادة ، بل كان ينظر إليها على أنها نوع من إحياء ذكراهم . من أجل ذلك كانت كثرة القبور التى لايمكن انتهاك حرمتها . وكان الذين يعظمون أسلافهم يعدون فى المجتمع أتقياء متدينين .

من هنا لم يكن غريبا أن نشاهد على سفح التل مجموعات متتابعة من القبور عبارة عن جرار ضخمة ذات حواف خشبية . هذه القدور أو الجرار تضم عظام الموتى الأقدمين الذين دفنوا على سفح التل . وبعد مضى عدة سنوات تم جمع هذه العظام لتوضع فى القدور انتظارا ليوم راحتهم الأبدية . هذه القبور تبدو ضخمة فى كثير من الأحيان . والدفن بهذه الطريقة يتيح للميت أن يتمتع بنسمات الهواء ورذاذ الماء على سفح التل الذى يتيح لأقاربه وأحفاده أيضا أن يوالوا زيارته ويزيدوا من متعته فى مقره الأخير .

● راكب الفنجان

بقرب معبد «توين مون» وعلى سفوح رأس القلعة ، ندخل معبدا أصغر منه يسمى «لجاتو» مكرسا لأحد الرهبان الأسطوريين ويبدو أنه كان راهبا داويا ولكنه لم يكن يتمتع بالأمانة اللازمة مما كان يوقعه فى أزمات مستمرة . وذات ليلة قضاها فى بيت إحدى الأسر مضى فى الصباح وقد أخذ معه أحد التماثيل الذهبية . وطارده صاحب البيت وأقاربه راكبين الجياد ولكنهم لم يلحقوا به . وفى النهاية وجدوه وأحاطوا به عند منحنى النهر . فلجأ إلى إحدى قواه السحرية حيث أخرج فنجانه الخشبى وسحره

فاتسع له حتى دخل فيه وسبح به فى ماء النهر ليختفى وراء التل . ولم يستطع مطاردوه النزول بجيادهم فى مياه النهر السريع الجريان .

ومنذ ذلك الوقت أطلق على الراهب اسم «راكب الفنجان» ويعنى بالصينية «بى تو » . وسمى التل الذى اختفى وراءه «تل راكب الفنجان . . لجاتو »

● النساء والرجال لهم قصة

فى الأرض الجديدة نزور « حديقة المنظر الجميل » . وهى مرتع العائلات الصينية بأبنائها ، حيث تعتبر مكان اللقاء بين الشرق والغرب . الحشود السعيدة من الشباب تتلهى بكل المتع الحديثة والأضواء المثيرة والهواء الطلق والشمس المشرقة بعيدا عن زحام البيوت وأصوات آلات المصانع . عند السورّ الخلفى من الحديقة يوجد مرتع لأنواع متباينة من الطيور التى تجذب انتباه الجميع بألوانها الرائعة الجميلة وزقزقتها البديعة الألحان . .

وغير بعيد ندخل القرية ذات الأسوار «كام تين » . وهذه القرية بنيت عام ٦٠٠ ويسكنها ٤٠٠ نسمة وسمك أسوارها حوالى ستة أمتار وعند كل ركن منها توجد نقطة حراسة علوية ، وترتفع ساريات التليفزيون فوق المبانى القديمة فى القرية ، وليس للقرية سوى مدخل واحد مغلق ببوابة حديدية لاتفتح لأحد من الزائرين إلا مقابل دفع رسم معين ، ولكن فى العهود القديمة كانت هذه البوابة مغلقة باستمرار فى وجه غير المرغوب فيهم .

وعند سفح التل قرب « لوك ماشو » نطل على ساحة خالية يخترقها نهر « شوم شون»

حيث خط الحدود مع الصين ولم يكن مسموحا لعبور هذا الخط إلى الصين قبل ١٩٧٨ ، أما الآن فقد أصبح متاحا بعد الانفتاح برغبة من الصين لإتاحة الفرصة لزوار . هونج كونج الأجانب للاطلاع على المنتجات الصينية وشراء مايرغبون منها تشجيعا للصناع الصينيين . وقد فرضت الصين على البائعين المحليين أن يبيعوا منتجاتهم للسياح الأجانب بتخفيض ٢٠٪ من أسعارها التى تباع بها فى المجمعات الصينية «الامبريوم » داخل هونج كونج كما تقدم فى هذه المنطقة الحدودية معالم وعروض

للحياة التقليدية الشعبية الصينية ربما لا يقدم مثلها داخل الصين نفسها هنا فى الأرض الجديدة يعمل الرجال والنساء معا . والنساء هنا يسمين « الهاكا » ويتحملن أشق الأعمال وهن يرتدين نوعا من « البيجاما » السوداء ويضعن على رءوسهن قبعات واسعة ذات شراشيب ودلاديل حول حوافها . إنهن ينتمين إلى مجتمعات وقبائل بدائية تقليدية ولايهمهن أن يعملن تماما مثل الرجال . وهن يكرهن التصوير والصور التى يحاول السياح التقاطها لهن ويرفضن السماح لهم بالتقاطها . وقد ينجح المصور فى التقاط صورة من بعيد بالعدسات المقربة ، على أن يكون مستعدا للهرب سريعا قبل أن تلحق به إحداهن . . !

● معبد العشرة آلاف « بوذا »

النزول من التل يتيح للزائر الذهاب إلى معبد « فونج بينج سن كون » وهى كلمة معناها « الجنة » . الوصول إلى المعبد يقتضى المرور خلال ممرات طبيعية جميلة المنظر صاعدة بالتواء فوق منحدرات ذات أبواب منقوشة يسمونها «البايلر» نصعد إليها على عدد كبير من الدرجات تقود فى النهاية إلى مذبح القرابين ، بالقرب من المعبد يوجد سوق «تاى بو » أى «مكان التسوق » حيث يلتقى منذ أزمنة طويلة الفلاحون وباعة الأسماك ويتبادلون بضائعهم . ومن هناك يمكن الإطلالة على النهر ومشاهدة زرافات الصيادين فى قواربهم متجهين أو عائدين من ميناء تولو . وغير بعيد من الميناء تقوم عدة هياكل فى وادى شاتان أهمها معبد « العشرة آلاف بوذا » . . !

الوصول إلى المعبد يقتضى الصعود على ٤٣٠درجة على سفح التل قرب محطة السكك الحديدية . هنا توجد قاعة صخمة معلق على جوانب جدرانها ١٢٨٠٠ تمثال صغير لبوذا . ويحرس المعبد تماثيل حراس ضخام بشعى الوجوه عنيفى النظرات وضعت لتخيف الشياطين الأرضية فتبعدها عنها وهى تمثل عددا من الآلهة . كما توجد حولها تماثيل أخرى لكلاب الحراسة البشعة المنظر لإبعاد الأرواح الشريرة عن بوذا خلال النهار .

ضمن مجموعة المبانى المحيطة بالمعبد تقوم « باجودا » ذات تسعة طوابق على الطراز الهندى باعتبارها ذكرى لبلوغ البوذ مرحلة النيرفانا . . أو السمو الأعلى .

والباجورا عبارة عن هياكل تتخذ عادة شكل أبراج ذات ثمانية أضلاع تشيد من الآجر وترتفع فوق قواعد حجرية ذات خمس أوسبع أو تسع طبقات . الأعداد الزوجية لا وجود لها لأنها فى اعتقادهم أعداد مشئومة . وقد اصطبغت هذه الصروح الجميلة ، كما اصطبغت العقائد البوذية التى ألهمت من شيدوها ببعض الخرافات الداوية . وكانت هذه الهياكل أو الصروح تشيد اعتقادا بأنها تقى الناس غوائل الأعاصير والفيضانات وتسترضى الأرواح الشريرة كما تجتذب الرخاء ورغد العيش . . !

● المرأة رمز الوفاء بالعهد

إلى أعلى هذا المعبد يمكن صعود ٦٩ درجة للوصول إلى هيكل « مان فات » حيث نلتقى بالرجل الذى أقام المعبد والباجودا برغم أنه توفى قبل عدة سنوات . . ولكن الناس يعتقدون أن الوصول إليه حتى وهو ميت معناه إتمام اللقاء .

اسم الرجل هو « يوث كاى » ، وكان راهبا قضى حياته كلها فى دراسة العقيدة البوذية . وكان هدفه الرئيسى الوصول إلى حقيقة الخلود . وعندما مات دفن فى مكانه . ولكن طبقا للتقاليد الصينية القديمة كان لابد من إعادة استخراج جسده ليدفن من جديد فى مكان الراحة الأبدية . وعندما أخرج من مدفنه فوجئوا بشىء غريب لم يشهدوا مثله من قبل . كان جسده محفوظا تماما ويرسل شعاعات صفراء سماوية لامعة . وساد الاعتقاد بأنه خلود أسطورى للراهب . لهذا أجرى تغليف الجسد برقائق ذهبية . وقد وضع الجسد الذهبى وحوله صندوق زجاجى ليراه الجميع ويذكروه .

ومن فوق معبد العشرة آلاف بوذا ، وعبر الوادى ، شاهدنا «صخرة الأما » . هذه الصخرة تشبه فى شكلها امرأة تحمل طفلا فوق ظهرها . وتحكى الأسطورة المحلية أن أحد الصيادين ذهب مع أسطول الصيد ولكنه لم يعد مع بقية الصيادين . وظلت زوجته تنتظر عودته فى صبر يوما بعد يوم ، ولكنه لم يظهر . وبعد عام كامل أشفقت الآلهة على المرأة فحولتها إلى صخرة ، الآن تعتبر هذه الصخره مكان تقديس يؤمه الجميع رمزا للمرأة الصينية المخلصة الوفية للعهد . . !

● المرأة .. لها دور كبير

يختلف أسلوب الحياة فى هونج كونج تبعا لاختلاف المستوى الثقافى ، فنجد التقاليد الصينية القديمة إلى جانب أحدث مظاهر الحياة الحضارية المتجددة .

وهذا التناقض يبدو واضحا إذا ما عرفنا وضع المرأة فى الصين القديمة . فى ذلك الوقت كان هناك تحامل كامل ضدها ، وكان الأبناء والصغار هم حماة العش ، وفى البيت لم يكن يسمح حتى بتعليق ثياب البنات إلى جانب ثياب إخوتهم الذكور على نفس المشجب . وكانت الفتيات لا يمثلن فى البيت أكثر من جليسات للأطفال . كما لا يمثلن أى فائدة للآباء .

وكان زواج الفتيات مسألة مقررة لا رأى لهن فيها ، وقد قال كونفوشيوس : يستطيع الرجل أن يطلق زوجته لأى سبب من سبعة أسباب : الفقر ، الدعارة ، الغيرة ، الثرثرة ، السرقة ، عدم الطاعة للأبوين ، الجذام ، أما بالنسبة للنساء فإنهن لا يستطعن تطليق أزواجهن لأى سبب ، حتى وجود عشيقات ليس سببا كافيا للشكوى .

الثورة الصينية غيرت كل ذلك بهدف المساواة رسميا بين الجنسين ، وفى هونج كونج لم يكن التشريع هو الذى غير وضع المرأة , ولكن التغيير فى الأفكار هو الذى فعل ذلك .

وقد عبرت عن ذلك « نانسى كوان » حين قالت : « أنا أستمتع بكونى فتاة . فلم يعد من العار بالنسبة للمرأة أن تشترك فى مسابقات الجمال . وأن تعمل كعارضة أزياء ، أو أن تشاهَد بمفردها مع أحد الفتيان ، وهناك حرية للفتاة لم يكن يسمح بها فى الأجيال السابقة .

بعض أسباب هذا التحول اقتصادى بحت ، فصناعة الأقمشة والمنسوجات وأحدث موضات الأزياء هى من أهم الصناعات فى هونج كونج ، فصادراتها التى تبلغ حوالى ١٥ مليون دولار ، وعروض الأزياء والملابس الجاهزة فى المعارض التى تقام سنويا ، تجتذب مئات الآلاف من المشترين من جميع أنحاء العالم .

وهكذا ارتفع قدر المرأة التى تستطيع أن تدخل إلى البلاد هذا القدر الكبير من الأموال . والتى تشكل نسبة كبيرة من القوى العاملة . وبسبب أهمية المرأة للاقتصاد تم تعليم الفتيات وأصبح الجنس الذى كان ينظر إليه بازدراء يبعث على الاحترام اليوم من أكثر الرجال تعصبا .

الفصل الرابع

تاريخ الصين فى متحف الشمع

ونواصل تجوالنا بين ربوع هونج كونج . . وندخل قرية سونج التقليدية . . ، حيث نقدم صورة الحياة فى الصين القديمة فى عصر مملكة سونج بين عامى ٩٦٠ و١٢٧٩م ، نخترق بوابة القرية المحاطة بالأسوار العالية لنجد أنفسنا وسط سلسلة من الأجنحة ذات الأعمدة ممتدة على طول النهر ، ونشترى مجموعة من النقود القديمة التى كانت تستخدم فى ذلك العهد لنتعامل بها داخل المدينة أثناء زيارتنا لمعالمها ومعارضها ومشاغلها ومتاحفها ، ومشاهد الحياة الاجتماعية والثقافية . والاستراحة فى مقاهيها التقليدية التى تعود بنا إلى حوالى ألف عام ، هننا يقدم الصينيون صورا من الحياة المنزلية وأشغال الحفر والنحت وكتابة الخط وصناعة المراوح الملونة والمعلقات التى تعلق فى البيوت والمعابد وأعواد البخور والشموع ، وكل هذه الصناعات تقدم فى مشاغلها بأيدى العاملين والفنانين المهرة الذين يصورون كيف كانت تصنع فى الصين القديمة ومدنها وقراها وبيوتها .

ونشاهد ألوانا مختلفة من العروض الاستعراضية والرقصات الشعبية وألعاب الأكروبات والحظ والسحر التى برع فيها الصينيون منذ مئات السنين . ومازالوا يمارسونها حتى اليوم . ونزور نماذج من البيوت والأكواخ التى كانوا يعيشون فيها على ضفاف الأنهار . بالإضافة إلى معبد صغير نموذجى يقام فيه حفل عرس تقليدى حيث يرتدى العروسان ملابس العرس التقليدية الحمراء الزاهية والعروس تغطى وجهها يقودها شقيقها وأمها إلى بيت العرس .

ومن المشاهد الجميلة نماذج الشوارع والطرق القديمة والبيع والشراء فى الأسواق والجلوس على المقاهى حيث يشاهد الرواد ألعاب الشعوذة واستعراضات القرود

وعروض الملاكمة والمصارعة الصينية ولعبة الكونج فو . وطوال الجولة داخل القرية نستمع إلى ألوان من الموسيقى والغناء الشعبى الذى يعبر عن ذلك العصر القديم .

على أن أروع المشاهد التى نزورها فى القرية التقليدية هو متحف الشمع . هنا نعيش خمسة آلاف سنة من التاريخ الصينى خلال مختلف عصور الأسر الملكية التى تربعت على عرش الصين . ونتابع هذه العصور من خلال تماثيل شمعية تبدأ عند بوابة المتحف بالحارسين الإلهيين « شن تو » و«يوليو » ، الشقيقين المعروفين فى الميثولوجيا ، واللذين يحميان مداخل القصور والبيوت ويمنعان عنها الشياطين والأرواح الشريرة .

هنا نشاهد تماثيل بالحجم الطبيعى لجميع الأباطرة يمثل كل منها الامبراطور فى صورة حقيقية حية ، تعرض طريقة الحكم وقصة النهاية لكل منهم ، بما فى ذلك قصص الاغتيال أو النهايات المأساوية والانقلابية ،كما يمكن من خلالها ومن خلال اللافتات الوصفية أمام كل امبراطور متابعة معالم تاريخ الصين السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، ومظاهر النهضة الثقافية فى مختلف العصور ، مصحوبة كلها بمعالم من التحف وأعمال الحفر التى كشفت عن آثار الملوك ومدافنهم .

مسيرة أباطرة الصين

تماثيل الأباطرة فى المتحف تبدأ من الامبراطور «هوانج تى » الذى حكم فى عام ٢٦٩٨ قبل الميلاد ويسمى بالامبراطور الأصغر والأب الأول للشعب الصينى وهو الذى اخترع البوصلة وقدم ألوانا من الاختراعات التعليمية والثقافية التى كانت بداية للنهضة الصينية، بين الأباطرة الامبراطور « واى أو » الذى اعتلى العرش مائة سنة بين عامى ٢٣٥٧ و ٢٢٥٥ قبل الميلاد وتميز حكمه بفترة من الهدوء والطمأنينة عاش فيها الشعب تحت قيادة حاكم نموذجى فى الحكمة والفلسفة . أما الامبراطور «هوسيايو » رأس الأسرة الحاكمة المعروفة باسم « عصر هوسيا » والذى حكم بين عامى ٢٢٠٥ و ٢١٩٧ قبل الميلاد فهو يعتبر الأب الأول للمهندس فى الصين ، فقد تعرضت البلاد فى عهد سلفه الامبراطور شون لفيضان هائل أغرق الأرض كلها ، وحين كلف بإنقاذ البلاد من الدمار الذى لحقها قام بأعمال بطولية استمرت حوالى ثلاثة عشر عاما لم يذهب إلى بيته

خلالها يوما واحدا ، وواصل الكفاح بعقليته الهندسية حتى استطاع إنقاذ البلاد ودفع غائلة الفيضان ، وقام بتنظيم الرى والصرف والزراعة حتى أصبح بعد توليه العرش أحد أبطال الصين المرموقين. ومن بين التماثيل الشمعية تبدو الامبراطورة «هى سى شى» التى عاشت حوالى عام ٤٢١ قبل الميلاد وكانت من أجمل نساء عصرها فى إقليم «يوهى» ، وقد حدث عندما انهزم الملك وأسره عدوه ملك (وو) أن اتفقت مع « الامير فان » أحد قادة الملك المهزوم على لعب دور العشيقة للملك المنتصر حتى استولت على قلبه واستطاعت أن تورده حتفه داخل قصره ، وتولى الأمير فان عرش المملكة وتزوج الفتاة التى أصبحت بعد ذلك امبراطورة على الصين ، ثم انتهت حياتها منتحرة بعد ذلك عندما انهزم زوجها وهو يدافع عن بلاده .

أما عصر أسرة سونج التى شيدت المدينة التقليدية باسمها فهو الامبراطور «لى تسونج» الذى حكم بين عامى ١٢٠٥ و١٢٦٤ ميلادية ، وفى عهد هذا الامبراطور اتحدت الصين مع منغوليا لمواجهة جحافل التتار الغزاة واستطاع أن ينتصر عليهم ، إلا أن حكومته فى النهاية تعرضت لفترة من الاضطرابات الداخلية مما أدى إلى وفاته يائسا .

وكان الامبراطور شاوينج هو آخر أباطرة هذه الأسرة الذى تولى العرش وهو طفل ، ثم واجه مع رئيس وزرائه هجوم المنغوليين مما اضطرهما إلى الهرب عندما انهزمت جيوشهما ، وخلال تراجعه أمام المنتصرين فر الى جزيرة هونج كونج حيث انتحر غرقا فى المياه المحيطة بها ، وكان هو الامبراطور الوحيد فى الصين الذى وضع قدميه فى هونج كونج .

تاريخ الصين يروى من خلال تماثيل متحف الشمع التى تتواصل حتى قيام الجمهورية وثورتها الاشتراكية وحتى تولى ماوتسى تونج حكم الصين الشعبية .

● جولة فى السوق

لابد قبل أن نغادر المدينة التقليدية أن نخرج حاملين الكثير من التحف والمشغولات الصينية مقابل كل مابقى معنا من النقد الصينى القديم .

أما النقد الجديد فاستخدامه ضرورى فى كل مكان ، وزحام الأسواق وأساليب التجارة الحرة المتنقلة شاهد على إمكانية الحياة الحرة فى الشوارع ، وأن أصحاب الحرف

الذين يقومون بعملهم على الأرصفة يمكنهم أن يتولوا كل شئون الإنسان من الطعام إلى صنع الحذاء .

فى كل مكان بمدينة هونج كونج يتناثر حوالى ٣٤ ألف بائع متجول ، هذا العدد هو فقط ماهو مُثبت فى دفاتر تصاريح مزاولة المهن ، ولكن أعداد الممارسين لها فى الحقيقة أكثر من ذلك بكثير ، ومع مرور الزمن أصبح هناك قبول شعبى لوجود الباعة الجائلين والقائمين على الأرصفة ، وهناك تعاطف عام مع هؤلاء الذين سعون إلى رزقهم ، كما أن هناك حاجة ضرورية ملحة لمثل هذا النشاط فى مدينة تعانى من التكلفة العالية لعناصر النشاط الإضافية ، والتى تعرض فى المعارض الكبيرة والمتاجر الضخمة ذات الطوابق الكثيرة الزاخرة بكل أنواع التجارة والبضائع .

وبالنسبة للزائر أو السائح أو حتى السكان المقيمين فالأسعار يمكن أن تتناسب مع الجميع لأنها سواء فى المعارض الكبيرة أو الدكاكين الصغيرة أو فى معروضات الأرصفة تباع أرخص كثيرا من أى مكان فى العالم . وكل شىء هنا يمكن شراؤه بأقل الأسعار ، فالإنتاج كثير ، والمنتجون المحليون من كل جنس لديهم قدرة كبيرة على الإنتاج لاتعدلها غير قدرة اليابانى ، فأبرز ما يتميز به الشعب الصينى فى هونج كونج دأبه وتفانيه ، وذلك هو ما جعل من هونج كونج ذلك السوق التجارى العالمى الذى وصلت إليه . والجميع هنا ينتجون ويبيعون ، حتى المصانع تصنع منتجاتها لتوزعها على الدكاكين والمحلات وباعة الأرصفة ، وهى أيضا تبيع للزبائن مباشرة وبأسعار خاصة .

ولاشك أن انخفاض الرسوم الجركية عامل رئيسى فى انخفاض الأسعار سواء بالنسبة للمصنوعات المحلية أو البضائع المستوردة . كل شىء يمكن استيراده ، والمنافسة الشديدة بين التجار والباعة تؤدى أيضا إلى هبوط الأسعار إلى درجة أدنى من ثمنها الأصلى . . من هنا تكون هناك ضرورة للمساومة عند الشراء حيث يهبط الشعر فى بعض الأوقات إلى الربع أو أقل بكثير .

الفصل الخامس

هنا فيكتوريا

كل ذلك نحس به حين نعاود جولتنا الحرة فى شبه جزيرة كاولون وفى جزيرة هونج كونج القلب النابض للمستعمرة الإنجليزية التى سيرحل عنها الاستعمار مع مطلع عام ١٩٩٧ لتعود إلى الوطن الأم ... بشروط . . !

اسم فيكتوريا تسمعه فى كل مكان من أنحاء الجزيرة . فالبريطانيون الأوائل الذين نزلوا بها كانوا من الاسكتلنديين . ولأن اسم الملكة فيكتوريا كان يشدهم إلى وطنهم فقد أطلقوا اسمها على كل شىء مهم . . مركز المدينة سموه مدينة فكتوريا . وقمة الجبل سموها قمة فيكتوريا . والمعهد العالى سموه كلية فكتوريا . . والمتنزة سموه متنزة فيكتوريا والثكنات العسكرية سموها ثكنات فيكتوريا . . وحتى السجن أطلقوا عليه اسم «سجن فكتوريا »

وندور فى وسط هونج كونج المعروف باسم « سنترال » . المبانى هنا حديثة تتلألأ ديكوراتها الداخلية والخارجية بالذهب والفضة والعاج والأبنوس . والأضواء المشعة المنطلقة منها تبهر الأنظار لكل القادمين من بعيد . فى المنطقة الشرقية وتسمى «وانشاى» وهى مركز تجمع الصينيين وهى منطقة سياحية لتصريف العمال فى المكاتب والفنادق والمطاعم والمحلات وكانت من قبل تشتهر بحياتها الليلية الصاخبة تحت اسم خليج «وزواى » . أما المنطقة السكنية فيه فتحمل اسم خليج كوارى وتسكنها الطبقة المتوسطة بعد أن كانت فى الماضى فقيرة ثم تطورت تطورا حضاريا سريعا .

أما منطقة الوسط فتضم مبانى من الطراز الفيكتورى أهمها مبنى الجامعة والحدائق النباتية ، ومنها يتم الانطلاق إلى قمة فيكتوريا حيث أهم وأغنى المناطق السكنية فى

هونج كونج والتى لا ينافسها إلا قصور البارونات قرية شبك القديمة وتمتد منها الشواطىء القليلة الخاصة برياضة ركوب البحر وأمواجه المنكسرة .

التجول السياحى السريع لمن يحب أن يجرب كل ماهو جديد يتم بركوب عربات الدكشو التى تقف أمام محطة المراكب . . وهى عربة ذات عجلتين تشبه الحنطور ولكن يجرها انسان لاحصان . وقد كانت هذه العربات منتشرة فى الماضى بالآلاف ولم يبق منها الآن إلا القليل بعد أن رفضت الحكومة منذ سنوات إعطاء تراخيص جديدة لمزاولة هذه المهنة التى تعتبر مهينة للإنسان الذى يقوم الآن بهذه المهمة بينما هو عجوز تبرز ساقاه النحيفتان من بنطاله القصير وتنطلق أنفاسه وزفراته من بين شفتيه الموجوعتين وهو يضع على رأسه قبعة ملونة صفراء تشبه ألوان عربة الدكشو نفسها .

ساحة البنوك والمصارف تقع فى قلب الساحة وترتفع أبراج مبانيها الذهبية والفضية متداخة مع ألواح الزجاج المدفن الذى يغطى جدران العقارات وبخاصة مبنى البورصة . أما مجمع «قاعة المدينة» فهو من أهم أماكن الجذب السياحى وهو مواجه للميناء وتقام فيه احتفالات الفنون الدولية ومهرجان السينما . كما توجد فى متحف الفنون مجموعة متميزة من الأعمال الفنية الكبيرة . أما «ميدان الدولة» فهو واحة خضراء صغيرة بممراته وينابيعه ويحيط بالساحة عدد من أهم المبانى فى هونج كونج وتقع تحتها محطة المترو المركزية وهى غاية فى الازدحام ليلا ونهارا حيث تنقل حوالى مليونى مسافر يوميا . فى نفس الميدان يقع مبنى المجلس التشريعى ، وهو من المبانى القليلة التى لا تزال بطرازها الفيكتورى ، وفى مواجهته يقوم النصب التذكارى للشهداء الذين سقطوا خلال الحربين العالميتين .

فى آخر الساحة يقع برج مصرف هونج كونج شنغهاى وهو أكبر المؤسسات المالية فى البلاد . كما يقع إلى يساره برج مصرف الصين الذى ينافسه . وبين المصرفين يوجد أحد أوائل الفنادق الفخمة وأفضلها فى المدينة وهو برج فندق هلتون وفى طوابقه السفلية أحد أهم مراكز التسوق فى هونج كونج والتى تنتشر فى هذه المنطقة حيث تجرى أفضل أسواق المساومات بالنسبة للملابس والأحذية والمجوهرات والأصواف والحقائب .

●أسواق البيض والأفاعى

من الأشياء المثيرة فى أسواق الجزيرة سوق البيض هنا نشاهد مختلف أنواع البيض المعروضة للبيع ويلتف حولها المشترون من جميع الجنسيات . نجد بيض الأوز وبيض السمانى والبيض المحفوظ المعروف ببيض الألف عام ولكنه فى الحقيقة لايتعجاوز عمره بضعة شهور وهو يعالج بمزيج من الليمون الحامض ورماد الخشب وأوراق الشاى . وهناك أيضا البيض المحفوظ بالملح وقشرته سوداء بسبب تغليفه بالفحم الحجرى .

جانب آخر من الأسواق تباع فيه الأفاعى الحية التى يستلذ لحومها السكان الصينيون كما يستفيدون بها طبيا . وهذه الأفاعى تستورد من الصين وتحفظ فى أقفاص للعرض خارج المحلات . وحساء الأفاعى من ألذ أنواع الأطعة عند السكان .

أما سوق العقاقير الصينية التقليدية فهى أهم أنواع الأدوية والعلاج الشعبى . ومن بين هذه العقاقير الحشرات المجففة ولحاء الأشجار التى تجفف وتنقع بالماء الساخن أو فى الشاى كما تباع فى شكل مساحيق مدقوقة أو أقراص . ولعل أبرز أنواع هذه الأدوية والعقاقير الشعبية عشبة الجينسنج التى يقولون إنها تطيل العمر وتقوى قدرات الأعصاب عند الرجال .

على أن أهم مالفت نظرنا المحلات التى تبيع التحف الأثرية والمنحوتات والخزفيات والرسومات والمنقوشات الخشبية والعاجية والأثواب المطرزة .

ووسط محلات الأثريات يقوم معبد « مان مو » وهو من أقدم المعابد فى هونج كونج هوه مكرس لكل من إله الأدب وإله الحرب . تمثال إله الأدب يبدو فى لباس أخضر حاملا ريشة كتابة بينما إله الحرب يرتدى لباسا أحمر وهو يحمل سيفا . وإلى يمينهما يقف تمثال إله المدنية « شنج دونج » . وكما هو متبع فى جميع المعابد فهناك جرس كبير مصنوع فى كانتون عام ١٨٤٧ وطبل بالقرب منه وذلك لجذب انتباه الآلهة عند إقامة الصلاة .

وغير بعيد نلتقى بحديقة الحيوانات والنباتات . هنا يأتى الناس فى الصباح الباكر لممارسة رياضة « تشاى تشى شوان » وه فن قديم للملاكمة الذاتية .

● المعالم الثقافية

من أبرز المعالم الثقافية فى هونج كونج متحف الآثار الصينية التاريخية وهو يعرض معروضات أثرية تغطى ألف عام من التاريخ الصينى وثقافته مع كل ألوان الفنون والتحف والحرف . وهناك مركز الفنون وأكاديمية الفنون وهما من أبرز مراكز الأنشطة الثقافية حيث تستضاف فيهما المعارض الدولية والمحلية . وغير بعيد منهما يوجد مبنى مركزالمؤتمرات وهومن المعالم البارزة فى هونج كونج .

وفى نهاية الطريق توجد حديقة « بلسم النمر » . الحديقة عبارة عن ديزنى لاند شرقية الطابع ، وبعض مشاهدها مأخوذة من الميثولوجيا البوذية والداوية . . وإلى جوارها تقوم باجودا مزخرفة ترتفع سبعة طوابق وتتضمن آثارا بوذية ورفات الرهبان والراهبات البوذيين .

ونتوقف عند جامعة هونج كونج . تأسست الجامعة عام ١٩١١ وتنتشر مبانيها على طول شارع بونهام ، ويقع بالقرب منها متحف «فونج بنج شان » الذى يضم مجموعة رائعة من التحف الصينية خاصة الأوانى الخزفية والبرونزية التى تعود إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد . كما أن المتحف يضم عددا من اللوحات الفنية الرائعة والمنقوشات من اليشب والخشب .

الفصل السادس

الطريق إلى كولون

إذا كانت جزيرة هونج كونج هى موطن التجارة العظمى حيث تضم المقار الرئيسية والبنوك والشركات الكبيرة والمحامين والمحاسبين كما تضم أماكن إقامة عمالقة رجال الأعمال . . فإن كولون هى المركز الصناعى ومركز الأنشطة السياحية . والتنقل بين جزيرة هونج كونج وكولون يتم إما برا بالسيارات أو بالمترو عبر نفقين تحت البحر .

النفق الذى عبرناه بالسيارة أعجوبة طولها كيلو مترين وعرضها سبعة أمتار وتغوص ٢٤ مترا تحت سطح الماء .

وعند عبور السيارة ندفع عشرة دولارات ، بينما هذه القيمة فى الباص تبلغ ١٥ دولارا وفى الدراجة النارية أربعة دولارات . والنفق نظيف بشكل ملفت لأنه يغسل يوميا بين الساعة الثانية عشرة والواحدة صباحا . ولايسمح بالتوقف فيه على الإطلاق والسيارة التى تتعطل داخله يدفع صاحبها غرامة قدرها ٤٠٠ دولار ثم ٥٠ دولارا عن كل دقيقة بعد ذلك : !

وكولون شبه جزيرة فى أرض الصين الرئيسية مباشرة نصل إليها عبر ميناء فيكتوريا . أما اسم كولون فهو يعود إلى أحد الأباطرة الصينيين الذى هرب إليها خلال حكم سلالة سونج . وقد أحصى الامبراطور فى شبه الجزيرة ثمانى هضاب فأطلق عليها اسم « التنانين الثمانية » ولكن أحد رجاله لفت نظره إلى أن الامبراطور هو نفسه تنين بدوره . فما كان من الامبراطور إلا أن أطلق على المنطقة اسم التنانين التسعة «جاو لونج » والذى أصبح «كاولون » باللغة الإنجليزية .

نتجه إلى الجانب الشرقى حيث ضاحية « تسيمشاتسو » . أمواج من البشر

والسيارات تتدفق من حولنا فى اتجاه محطة الباصات أو نفق المترو أو إلى مراكز التسوق أو المكاتب التجارية أو الفنادق التى تعمر المنطقة حيث معظم فنادق هونج كونج . فى المنطقة القديمة من الحى نشاهد برج ساعة محطة السكك الحديدية القديمة بين كانتون وكولون ونزور المركز الثقافى الحديث . أما المنطقة الحديثة من الحى فتقع فوق أرض متقطعة من الميناء حيث العديد من الفنادق الضخمة ومراكز التسوق والساعة ذات الواجهة المائية حيث تقع محطة السكة الحديد الجديدة . أما المتحف الفضائى فهو من أكبر المتاحف الفضائية تطورا ويضم قاعة على النظام الشمسى وصالات عرض ومسرحا فضائيا . وهو يقدم سبعة عروض يوميا

● سوق اليشب والطب الشعبى

الزحام شديد فى شارع ناثان الذى يسمى « الميل الذهبى » بكل ما يحتشد فيه من الفنادق والمحلات التى تتلاصق عى طول الجانبين والتى تتفرع منها شوارع ضيقة عامرة بالمحلات التى تبيع كل شىء ... من الإبرة إلى الصاروخ كما يقولون .

مع نهاية شارع ناثان نجد متنزه كولون حيث واحة خضراء رائعة تضم الحديقة الصينية وفيها حوص اللوتس والنهيرات والبحيرات الصافية التى تزقزق فيها العصافير الملونة والطيور من مختلف الألوان والأشكال . وننتقل من الحديقة إلى المركز الإسلامى حيث المسجد الجامع الذى بنى . عام ١٩٨٤

الظاهرة المثيرة هنا هى السوق الطبى المفتوح فى الهواء الطلق . فى هذا المكان يحتشد فى المساء أطباء الشوارع والطب الشعبى حيث يعرضون مختلف أنواع العلاجات الشافية لأى شكوى يتقدم بها أى مريض . وينافسهم فى المكان نفسه قارئو الطالع وكشافو الخطر الذين يتحمع حولهم عدد كبير من الرجال والنساء والشباب من جميع الألوان . وبخلاف طب الشوارع «الطب الشعبى توجد أيضا المحلات والأكشاك التى تبيع جميع أنواع العلاج الشعبى من الأعشاب إلى أحجار اليشب والعاج .

واليشب له سوق خاصة تباع فيها كل أشكال مصوغات اليشب من مجوهرات وتحف ومنقوشات ثمينة . كما توجد أيضا سوق خاصة للعصافير خلف محطة المترو . .

تباع فيها الطيور الملونة فى أقفاص خاصة وهى تواصل الزقزقة والتغريد دون انقطاع حيث يقولون إن أغانى العصافر لها قيمة ومعان خاصة لدى الصينيين .

المهم هنا أن ثمة شيئا غريبا يجرى . . فهنا تثرى هونج كونج من تجارة الليل مثلما تثرى من تجارة النهار ... فكل شىء بثمنه ، والربح محقق . بنات الليل يشكلن طبقة اجتماعية قادرة على ارتداء أفخر الثياب واستعمال أفخر المساحيق . ولخدمة السائحين الأجانب بصفة خاصة توجد قرب الفنادق الكبيرة مئات من علب الليل والبارات ، ينشئها أصحاب الملايين . ومن الغريب أن كولون هى التى تصدر اللحم الأبيض على شكل غانيات إلى هذه البارات . . حيث كل شىء رائج وجاهز بغير حياء . وفى الطريق تستطيع هذه الفتيات إغراء الشبان والعجائز ليدخلوا البار طواعية وصيدا سهلا . . فالبنات يقفن على بابه وهن فى ثياب انكمشت عن الميكروجيب . . وحتى الجرسونات يتحركن وهن فى ثياب البحر أو يقفن على الباب ويدعونك للدخول . . !

مطاعم الشوارع والأسواق

والذين يشترون ويتجولون فى الشوراع وبين الأسواق يجدون أنفسهم دائما فى حاجة إلى تناول الطعام . وبسبب كثرة وجود الناس فى الأسواق تمتلىء الشوارع بمجموعة كبيرة ومتنوعة من المطاعم والأطعمة التى تنافس أكبر مطاعم . هونج كونج كلها ،وليس ذلك بالنسبة للسياح فحسب ، ولكن أيضا بالنسبة لمعظم الصينيين الذين يتلذذون بما يعتبرونه أطعمة صينية أصلية ، وهى وجبات تطهى خارج المنزل ويسمونها «داى دونج» . وإذا حاولت القيام بهذه التجربة فستجد نفسك جالسا على مائدة ذات ثلاث أرجل موضوعة فى منتصف الطريق ، وسيلقى أمامك على الفور إبريق معدنى من الشاى الأخضر الساخن ، وستتلاحق عليك مجموعة من الطاسات مليئة بأنواع من صلصلة فول الصويا ، وستوضع بين يديك ملاعق من البورسلين وأكواب مشققة وعصى خشبية لتتناول بها الطعام ، وتنظر إلى أماكن إعداد الطعام فتجد موقد الكيروسين القوى ، وعليه طاسات كبيرة سوداء تئن فوق المواقد بينما يحيط الدخان بالطباخ .

أما الطعام نفسه فيتكون من مكونات الدجاج واللحم والخضروات المحلية ، مع أسماك حية فى علب معدنية بالإضافة إلى أعشاب وتوابل كلها فى متناول الجرسون . ويمكنك أيضا أن تأكل طعاما أبسط يسمى «كونجى » وهو عبارة عن بواقى الأرز مخلوطا بكبد الخنزير ومختلف أنواع الصلصات المطبوخة . وإذا أردت أن تأكل طعاما تقليديا فستجد الأرز وفول الصويا وعش الغراب والزنجبيل ومعها بعض « الزلابية الطويلة » .

هذه الأطعمة خارج المنزل يمارس تناولها الزائرون المغامرون وليس التقليديين ، ومن الخطأ الاعتقاد بأن هناك مطبخا صينيا محدودا فى هونج كونج ، فكل الأطعمة من كانتون وشنغهاى ومنغوليا وبكين وسشوان تقدم فى أشكالها المميزة ، وفى أيام الآحاد يكاد يكون من المستحيل أن تجد مقعدا خاليا فى المطاعم ، فالصينيون يخرجون من بيوتهم فى ذلك اليوم لتناول غداء يسمونه « ديم سوم » ، وتقدم المقبلات الصينية الرقيقة على عربة معدنية ذات عجلات تتحرك باستمرار فى أنحاء المطعم المزدحم بالرواد . ويقولون إنه فى عيد الامبراطور الذى يستمر ثلاثة أيام يقدم مائة صنف على الأقل من الأطعمة المتنوعة ، ويحجز الرواد أماكن لهم فى المطاعم فى هذه المناسبة قبل العيد بعدة أسابيع .

الكانتونيون هم أفضل من يقدمون الأطعمة وأنواعها المختلفة فى هونج كونج : وهم يستخدمون كل أعضاء الحيوانات والأسماك والطيور والخضروات بل إن أحد أكثر أنواع الطعام شهية للصينيين هو أطباق لحوم الأفاعى وأحشاء البقر .

أما محلات الوجبات الخفيفة فهى منتشرة فى كل شارع وهى تقدم الأطباق من الفجر حتى المساء . هذه الوجبات تتميز بكثرة أنواعها وفنونها . وتقدم معظم المطاعم وجبات تبلغ فى تنوعها حوالى مائة نوع . وهى تقدم عادة فى سلال من الخيزران برغم أن بعضها يدخل فى إطار الحساء المسكوب فى رقائق عجين صدفية الشكل كما تقدم كعكة تسمى المائة ورقة ولفائف تسمى «سبرنج رودل» .

وقوائم الطعام فى المطاعم تتضمن دائما الحمام والدجاج المملح والدجاج المشوى

الحلو مع صلصة الليمون ، والحمام فى أوراق الخس الملفوف مع صلصة التوت .

أما المطبخ البكينى فيجلب الدفء إلى المعدة بأطعمته المتنوعة وأطباقه تشتمل على لفائف المكرونة وأصناف الخبز والحلويات بشكل أكبر من أطباق الأرز . وهو يقدم الحساء المنغولى والمنشورى الذى يعتبر من الأطباق المتميزة بما فيه من توابل حريفة . والحلويات تقدم حلوة دسمة إلى جانب أطباق البط واللحوم والحساء المطبوخ بعظام البط فى طبق ملفوف . أما طبق « دجاج الشحاذ » فهو عبارة عن دجاجة مطبوخة مغلفة بطبقة طينية تنبعث منه روائح زكية عند كسر القشرة الطينية .

وفى المناطق المكتظة بالسكان مثل الحى الغربى فى جزيرة هونج كونج وأجزاء من غربى كولون تدب الحياة فى مطاعم «شيوشو » ليلا . هنا تقدم المأكولات البحرية وخاصة الأصداف . وأشهر أطباقه «عش العصافير » .

المهم أنه توجد مطاعم لكل الأجناس . . فتوجد المطابخ التايلندية والهندية التى تقدم الأطعمة بالتوابل الحريفة . . والمطاعم الماليزية تقدم الأطباق المالوية والهندية والأوربية أيضا . وتنتشر اليو م المطاعم االمتخصصة فى تقديم الجمبرى (الروبيان) فوق قصب السكر وأوراق النعناع وأطباق البط المدخن .

الفصل السابع

أعياد .. من كل لون

الأعياد والمهرجانات فى هونج كونج كما فى الصين وتايوان ترتبط كلها بالقمر بدرا أو هلالا . وللقمر مجموعة من المهرجانات أبرزها الاحتفال فى منتصف الشهر الثامن من التقييم القمرى عندما يكون القمر بدرا ، ولا يكاد يخلو أى احتفال أو مهرجان من علاقة مباشرة مع أسطورة تروى ويستمع إليها السائحون فى انبهار . ومهرجان وسط الخريف يكاد يكون صاحب أكبر كمية من الأساطير الرومانسية التى تروى عن القمر . والطعام الذى يقدم خلاله وهو «كعكة القمر » متباينة الأشكال بعضها حلو وبعضها مالح ولكنها محشوة بالفاكهة والجوز والبندق . وفى احتفالات الربيع يتمثل المهرجان التقليدى فى تبادل المظاريف الحمراء المسماة «هونج باو » وهى مغلفة على هدايا نقدية للأصدقاء تتباين حسب تخمينات الحظ التى ترفق فى أوراق صغيرة . أما الأزياء التى يرتدونها فى تلك الاحتفالات ، والهدايا التى يقدمونها فهى دائما ذات لون أحمر لأنه يرمز إلى السعادة والحظ الطيب .

وأجمل ما يستهوى السائحين ويلفت أنظارهم مهرجان قوراب التنين ، وفى ذلك اليوم تجرى سباقات القوارب المزخرفة بألوان التنين فى الأنهار التى تخترق المدن . والرحلات البحرية الرائعة التى درنا فيها قرب سواحل هونج كونج وكولون وقد قمنا بها فى قوارب من نفس النوع بأشرعتها التى تشبه التنين .

وهناك عشرات من الأعياد التى يحتفلون بها فى هونج كونج فى عيد الملكة السماوية «تينى هاو » يسود إحساس بالروحانية ويختلط دخان البخور بالصور والأشباح . وتقام الطقوس الدينية فى « تينى هاو » والناسك فى المعبد يحمل دمية للملكة السماوية يدور إليها على الناس ليمنحهم البركة . . ويتصدر المعبد تمثال للملكة ويسمونها فى أحيان

كثيرة بإلهة البحر أو الإلهة الأم. المعبد يمتلىء باستمرار بالصيادين الذين يعتبرونها من أهم الآلهة للذين يمارسون حرفة الصيد والإبحار فى المياه المتقلبة .

وهم يحكون أن « تينى هاو » فتاة صينية فقيرة ابنة أحد الصيادين . وذات يوم إذ هى فى حالة غيبوبة تجلى لها إخوتها وأبوها وهم يصارعون الموت فى البحر المتلاطم الأمواج ، فانطلقت تجرى إلى الشاطىء وراحت تصلى للسماء وهى تشير ناحية مركب الصيد ، واستجابت الآلهة لدعائها فكانت سفينة والدها وإخوتها الوحيدة التى وصلت إلى الشاطىء بسلام. لهذا يحتفل الناس وخاصة الصيادين بعيد « تينى هاو » التى أصبحت عندهم إلهة البحر . وتجرى الاحتفالات فى معبدها الكبير حيث يشترك الآلاف فى الطقوس الدينية ليقوموا بعد ذلك برحلة بحرية .، وهم يدركون أنهم يبحرون فى حراسة الإلهة الرحيمة .

● أم التسعة المقدسين !

أما الإلهة الأم «دومو هونج » فتمثالها يمثل امرأة لها عدة أذرع ، ولها علامة مميزة على جبينها ، ويقولون إنها فى صباها منحت القدرة على السير فوق الماء دون أن تبتل قدماها ، مماجعلها قادرة على إنقاذ الغرقى . وقد تزوجها ملك المملكة الشمالية فأنجبت له تسعة أبناء ، أصبحوا هم الأباطرة التسعة المقدسين . ويجرى الاحتفال بالإلهة الأم وأبنائها مرة كل عام لمدة تسع ليال فى اليوم التاسع من الشهر القمرى التاسع من التقويم القمرى ، ويحظر على الزائرين لمعبدهم أن يأكلوا اللحم قبل الدخول بيوم كامل على الأقل ، وعليهم أن يتطهروا ويبتعدوا عن العلاقات الجنسية ، وأن تكون أفكارهم نقية طاهرة وثيابهم بيضاء غير ملوثة .

يدخل الناس المعبد فيركعون على ركبهم فى صلاة قصيرة ، وهم يشعلون أعواد البخور ليغرسوها أمام تمثال الإلهة الأم وتماثيل أخرى للأباطرة التسعة المقدسين . هؤلاء الأباطرة لم يكونوا آلهة حين أنجبتهم«دوموهونج» بل كانوا بشرا ، ولكن من خلال فضائلهم تحولوا إلى نجوم مخلدين ، ينزلون إلى الأرض فى إقامة مؤقتة لمصاحبة الرجال

والنساء الذين ولدوا من آباء أطهار بلغوا مرحلة السمو الروحى ، وماتزال أرواحهم تحوم بين السماء والأرض ، وهم نجوم «الدب الأكبر» السبعة .

أعواد البخور التى يشعلونها فى المعابد لها رمز دينى صينى هام هو «حوس » ، وقد يكون أصل الكلمة هو كلمة Dios وتعنى الله . ويعتبر البخور هنا فى أهمية البخور الذى يشعلونه فى الكنائس الكاثوليكية وفى العالم الأرثوذوكسى ودول البحر المتوسط كجزء من الشعائر الدينية وإن اختلف أصله . وتصنع عيدان « الحوس » من البامبو الذى يقطع بسكاكين حادة إلى ما يقرب من سمك الإبرة . وتوضع هذه العيدان فى خليط من بودرة الطين الخزفى وخشب الصندل والصمغ النباتى . ويمكن لصانع الحوس الخبير صنع خمسين ألف عود بخور فى اليوم الواحد .

وهناك أيضا عيد يسمونه عيد العوامات ، وهذه العوامات تقام على قوائم متحركة محمولة على هياكل بارتفاع ستين قدما ، وكلما زاد الارتفاع زاد الحظ ، فى هذا العيد تدور الفتيات الصغيرات فى الشوارع يؤدين عروض التوازن المثيرة وألعاب الأكروبات ، ويجتذب هذا العيد حشودا غفيرة من السياح كل عام فى جزيرة « شونج شو » . والعوامات رمز لبهجة الاحتفال وأصلها ليس دينيا كاملا ، فقد بدأت هذه العادة منذ قرن مضى فقط حين هاجم القراصنة الجزيرة فقتلوا وعذبوا أهلها ولم تسلم من يدهم فتاة واحدة ، وبعد ذلك شعر السكان أن من واجبهم إرضاء أرواح هؤلاء التعساء من ضحايا القراصنة حيث تقام الاحتفالات على مدى أربعة ايام . . !

● هكذا تموت الشياطين !

كل المعابد فى هونج كونج ، كما فى أغلب دول جنوب شرق آسيا تتميز باستخدام أعواد البخور ، بدت لنا هذه الظاهرة شديدة الوضوح عند زيارتنا لمعبد «مان مو » ، أقدم مكان للعبادة فى هونج كونج . لا تستطيع أن ترى أو تتنفس حين تدخله بسبب ارتفاع نسبة دخان البخور الذى يملأ المكان الذى تزين سقوفه وجوانبه القراطيس الملونة وتتصدره تماثيل آلهة « اللاويين » . و «الداوية » عبادة يمارسها كما سبق ان ذكرنا عدد كبير من الصينيين فى بيوتهم التى لا يستطيع المرء أن يدخلها إلا إذا مر فى ممرات

ملتوية متعرجة قبل أن يجد أول حجرة فى البيت ، أو إلا إذا التقى فى واجهة البيت بغابة كثيفة من الأشجار كما لو كانت مرسومة على لوحة عريضة لينحدر بعدها فى الممرات الجانبية للبيت .

قال لنا مرافقنا إن سر الأشجار والرسوم والممرات المتعرجة أنها هى التى تصد الشياطين والجن وأرواح الشر عن دخول البيت ، فالداويون يؤمنون بكل هذه الألوان من أمثلة الشر تماما كما كانوا يؤمنون بوجود مصاصى الدماء والغيلان والتنان . والطاوى «أو الداوى » يؤمن بأن فى الإمكان منع الروح الشريرة إذا اندفعت داخلة إلى البيت ، وذلك إذا وجدت فى وجهها جدارا يصدها ، فهى تفاجأ أثناء اندفاعها فتصطدم به وتموت . . !

فى هونج كونج توجد كل الأديان وتتعايش فى حرية وسلام ، وإذا كان السكان فى أغلبهم بوذيين بمن فيهم أتباع ديانات صينية أخرى ، إلا أن المسيحيين يمثلون أيضا ١٠٪ من تعداد السكان ، وهناك حوالى ثمانية آلاف هندوسى وألفين من السيخ وخمسين ألف مسلم أغلبهم من الصينيين .

التقينا بهؤلاء المسلمين فى مبنى المركز الإسلامى الواقع فى قلب المنطقة التجارية بمدينة كاولون . وهو عبارة عن بناء أبيض شامخ ترتفع منه أربعة مآذن وقبة دائرية جميلة التكوين ، صعدنا إلى الدور العلوى حيث المسجد المقام بمساحة سطح المركز تقريبا . أرضية المسجد ليست مفروشة بالسجاد أو الحصير ، وإنما هى من الرخام الأبيض فقط، يشرف على أحوال المسلمين فى هونج كونج مجلس الأمناء ، وهو بشعبه المشتركة يختار الأمين العام الفخرى وأمين الخزينة الفخرى ، ويتولى المجلس شئون المساجد ومقابر المسلمين والرقابة وضبط التبرعات الممنوحة والمشتركة ، والعمل على الترتيبات اللازمة للجنائز ودفن الموتى من المسلمين ، وتنظيم الصلوات فى المناسبات الخاصة كالأعياد ، والتعهد بأى أعمال لصالح المسلمين العام فى هونج كونج والدعاية للإسلام. وقد زرنا ضريح سعد بن أبى وقاص فاتح الصين وهو موجود فى مدينة كانتون أمام هونج كونج ، وقد أقيم حول الضريح مسجد يعتبر من أقدم المساجد التى أقيمت حتى الآن .

●نظام الحكم

إن هونج كونج لا تزال حتى الآن تعتبر مستعمرة إنجليزية يحكمها الحاكم كممثل للتاج البريطانى ، ولا تختلف الحكومة عن مثيلاتها فى مختلف المستعمرات الإنجليزية . والتساؤل الذى يطرح دائما هو إلى أى حد يجرى تطبيق الديمقراطية ؟ فحتى عام ١٩٣٦ لم يكن يسمح بانتخاب ممثلين للشعب ، وفى الوقت الحاضر لا يسمح إلا بانتخاب ١٢ عضوا من بين ٢٤ هم أعضاء المجلس المدنى ، وهذا المجلس ليس هو صانع القرار ، فهو يضع فقط مشاريع قوانين مساعدة فى النواحى الصحية والثقافية والتراثية ، ولهذا لا يتقدم للانتخابات سوى عدد قليل ولا يسمح خلالها بالتجمعات السياسية .

أما القوة الحقيقية فهى فى يد المجلس التنفيذى والمجلس التشريعى اللذين يتم تعيين أعضائهما بواسطة الحاكم الإنجليزى . ويقوم المجلس التنفيذى بإسداء النصح والمشورة فقط للحاكم فى الأمور الهامة ، وهذا المجلس يتكون من خمسة أعضاء من الموظفين السابقين ، كما يضم حاليا تسعة أعضاء آخرين من المدنيين وليس العسكريين. أما المجلس التشريعى فيقوم بإصدار التشريعات ومتابعة ميزانية المصروفات والاعتمادات العامة والضرائب ، وهو يتكون من الحاكم و٢١ عضوا رسميا من رجال الخدمتين المدنية والعسكرية ، بالإضافة إلى ٢٤ عضوا من غير الموظفين الرسميين .

الإدارة الحقيقية للحكم تتم عن طريق السكرتير الأول ، وهو المستشار الأول للحاكم فى الأمور السياسية . وتنقسم السكرتارية إلى ١١ فرعا ، تتفرع مرة أخرى إلى ٤٠ إدارة حكومية .

وبالنسبة للغالبية العظمى من سكان هونج كونج فالحكومة لا تتدخل فى شئونهم الحياتية عن طريق موظفيها الحكوميين الإنجليز ، والأمر متروك لتنظيمات أو مجالس الأحياء التى يستشيرها كل الصينيين فى أمور الرفاه الاجتماعى والنشاطات ، كما يمكن استشارتها أيضا فى الأمور القانونية ، ولكن بطريقة غير رسمية .

مجمعات سكانية ليس لها مثيل !

من بين هذه الأمور الحياتية المهمة إقامة المجمعات السكانية التعاونية التى تنتشر فى المدينة بشكل مستمر وترتفع إلى عشرات الطوابق . . مشهد هذه المجمعات مثير ، فالواجهات تكاد تختفى وراء الملابس المغسولة المنشورة بكثرة فى شرفات ونوافذ كل شقة وكأنها أعلام ملونة . . وكثرتها تؤكد أن الشقة الواحدة يتجاوز عدد سكانها العشرات بين كبار وصغار وأجداد وأحفاد . فالتزاحم شديد وتزايد إنجاب لا يتوقف وتوافد الفارين والقادمين من الهاربين من مناطق جنوب شرق آسيا وضمهم الفتيناميين والكمبوديين لاينقطع ، حتى تسبب كل ذلك فى تفاقم مشكلة الإسكان برغم هذا العدد المتزايد كل عام من عقارات الإسكان العام الضخمة ، وخاصة فى منطقة كولون الصناعية .

وبالتأكيد فإن الأرض هى واحدة من أكبر المشاكل فى هونج كونج ، فالمساحة محدودة والتيار المستمر من الوافدين ، مع اقتران ذلك بوجود مساحة محدودة من الأرض الصالحة للبناء مما يجعل مشكلة الإسكان من المشاكل الملحة للحكومة .

إن ما لا يقل عن ٤٦٪ من السكان يعيشون فى مجمعات الإسكان الحكومية ، صحيح أنها أماكن متميزة حية ومنضبطة إلا أن كلا منها يتسع لحوالى ١٥٠ ألف شخص ، وهى تضم المدارس والعيادات والملاعب والمتاجر والمكاتب الخاصة . وينتقد البعض إقامة هذه المجمعات السكانية المزدحمة لأنها لا تعطى الإحساس بالخصوصية ، كما يقول البعض بل إنها تشكل مرتعا كبيرا للجريمة . ولكن الحقيقة أنه لا بديل لذلك ، وقد حاولت الحكومة تخفيف الضغط عن المدينة المكتظة بالسكان بإنشاء ثلاث مدن تابعة تتسع لمليون ونصف المليون نسمة فى الأرض الجديدة وهى التى كانت آخر ما استؤجر من الصين بدعوى الحاجة إلى أرض زراعية لإنتاج الخضر والفاكهة ولكن كل هذه الجهود لا تعطى النتائج المرجوة بسبب الزيادة المضطردة للسكان والعدد المتزايد من اللاجئين الباحثين عن مستقبل أفضل لهم ولأبنائهم .

● مركز تجارى ومصرفى عالمى

ومع ذلك فإن هونج كونج تتنافس حاليا مع سنغافورة فى ارتفاع الدخل الفردى بعد

اليابان ، فدخل الفرد يقترب من ستة آلاف دولار أمريكى فى السنة ، أى أكثر ١٢ مرة من دخل الفرد فى الصين الأم ، الأم الكبرى الجديدة التى تحتضنها ، كما أن حجم تجارتها الخارجية يتجاوز ١٦٤ مليار دولار فى السنة . وإن كان ذلك لايمنع أن هناك نسبة كبيرة ممن لايتجاوز دخلهم ألف دولار فى السنة ، كما أن هناك من يعيشون فى أدنى حد من الفقر ممن يعملون على جر « الريكشا» التى يتنزه فيها السائحون ، وهم يدورون بين أنحاء الأحياء الفقيرة . . !

ومع كل ذلك فإن هونج كونج تحتل الآن المركز الأول فى العالم لإنتاج الساعات والمركز الثانى فى إنتاج لعب الأطفال . وهى تقع فى المركز الحادى عشر بين أهم المراكز الثانى فى إنتاج لعب الأطفال . وهى تقع فى المركز الحادى عشر بين أهم المراكز التجارية فى العالم . بالإضافة إلى اتجاهها مثل بقية دول منطقة جنوب شرق آسيا إلى الصناعات ذات القيمة المضافة العالية مثل صناعات الكمبيوتر والالكترونات التى اشتهرت بها كالملابس الجاهزة ، وان كانت لا تزال حتى الآن تعتبر من أكبر الدول المصدرة فى العالم لهذه الملابس الجاهزة ، وهى الثالثة فى تصدير أجهزة الراديو والثانية فى تصدير المراوح الكهربائية والأولى فى أجهزة تجفيف الشعر والزهور الصناعية .

وهونج كونج لاتعيش على التجارة وحدها فلها أيضا أهميتها فى عالم البنوك فى خريطة العالم الحالية ، وهى تمثل المركز المالى الثالث فى العالم بعد نيويورك ولندن والرابع على مراكز تجارة الذهب ، وبها أكثر من بنك ومصرف عالمى ، كما أنها ثالث مراكز حاويات الشحن فى العالم .

● وماذا عن الاقتصاد الحكومى ؟

على أننا نسمع أشياء أخرى من واحد من رجال الاقتصاد والحكوميين فى هونج كونج . قال لنا : إن الحكومة تواجه مشكلات اقتصادية ضخمة ، خاصة مع إفلاس سوق العقارات الذى كانت وزارة المالية قد اعتمدت عليه فعلا فى ميزانيتها . فريع الحكومة من بيع الأراضى قد بدأ يتناقص بشكل خطير مما أدى إلى عجز كبير فى الميزانية . وقد أدى هذا العجز إلى تآكل الاحتياطى المالى للبلاد والذى كان قد تكون فى

سنوات الرخاء الأولى . وكان هذا الاحتياطى قد بلغ حوالى ٢٠ مليون دولار قبل إفلاس سوق العقارات ، ولكن هذا الكم لم يستطع مجابهة العواصف المتتالية التى أصابت الميزانية ، وفى عام ١٩٨٤ رفع وزير المالية الضرائب على الدخل والضرائب العقارية بنسبة ٢٪ فأصبحت ضريبة الدخل ١٧٪ والعقارية ١٨٪ ، كما عوم أسس السندات الحكومية بمبلغ بليون دولار وهو أول دين حكومى لعشر سنوات .

ومع استمرار الحاجة إلى مزيد من الخدمات الأفضل فى مجالات التعليم والخدمة الاجتماعية والإسكان تتشكل ضغوط متزايدة لنفقات أكثر وأكثر . ومع وجود توقعات لتجاوز مقررات الإنفاق الحكومى بسبب زيادة العمالة والمرتبات . فإن خفض النفقات يكون أكثر دائما من زيادتها ، كما أن النقابات للعاملين الحكوميين هى أول من يرفع صوته للمطالبة بحماية الأجور وإيجاد اعتماد مركزى مدخر لحماية العاملين وتوفير معاشات حكومية لهم .

أما من ناحية إيرادات الميزانية فالبدائل أيضا محدودة . فالدخل من زيادة الضرائب يتناقص باستمرار ، وفى حالة استمرار قيام الشركات فإن زيادة الضرائب قد تؤدى إلى توقفها وعدم دخول استثمارات جديدة . كما أن مجمل تحصيل الضرائب ضيق جدا ، فبعيدا عن الضرائب على المرتبات والحرف فإن هونج كونج لا تحصل ضرائب إلا على الدخا ن والمشروبات الكحولية والهيدروكربونات والسيارات ، أما باقى المنتجات التى تدخل أو تخرج من هونج كونج فهى معفاة من الضرائب ، ويوجد حديثا نوع من التوسع البطىء فى فرض ضرائب أخرى ، فمثلا تفرض الفنادق ضريبة على إيجار الغرف حوالى٥٪ وتذهب هذه الضريبة إلى الحكومة ، كما جرت مضاعفة ضريبة المرور من نفق الميناء فبلغت حوالى عشرة دولارات ، كما رفعت ضريبة مغادرة المطار من ٢٠ دولارا (هـ.ك) إلى ١٠٠ دولار . وهناك اقتراح آخر بإضافة ضريبة أخرى على بعض الأمور مثل وجبات الطعام فى المطاعم ، ومن هنا فهناك خشية من أن تفقد هونج كونج سمعتها كقاعدة منخفضة الضرائب صالحة للتجارة والسياحة والأعمال الأخرى .

وكل ذلك من المشاكل التى على هونج كونج فى المستقبل أن تعمل لها ألف حساب . . !

لامجال للتراجع

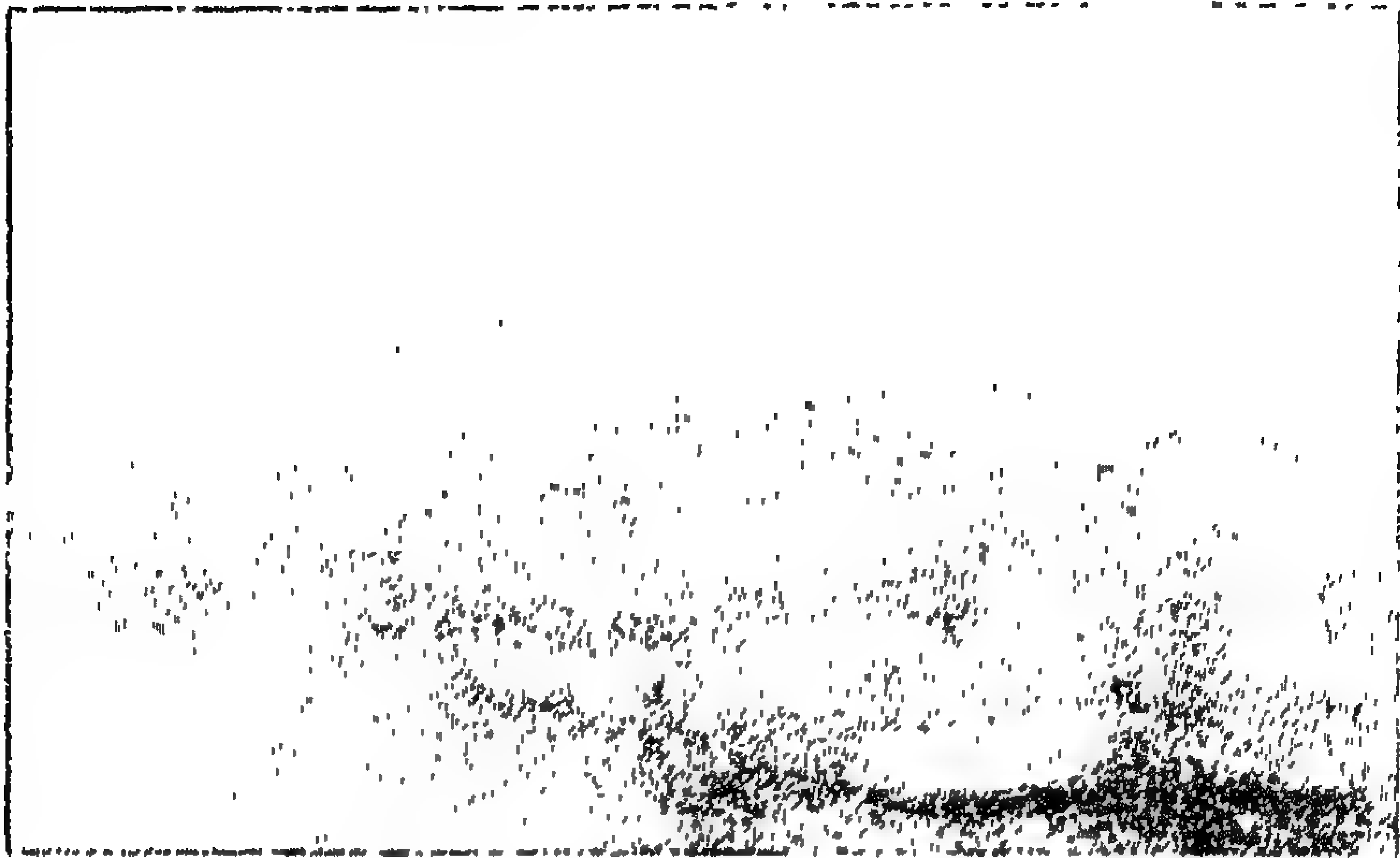
ومع كل ذلك . . فالمستقبل لا يزال يحمل تخوفا مثيرا للقلق لدى أهالى هونج كونج . . وهو يخافون أن تكون عودتهم للصين الشعبية الأم بمثابة كابوس ثقيل . ومن هنا يقول شارلز موروفى السياسى الإنجليزى بعد الزيارة الأخيرة التى قام بها جون ميجور رئيس وزراء بريطانيا إلى هونج كونج من الواضح أن بريطانيا لا تستطيع الدفاع عن هونج كونج إذا احتلتها الصين الشعبية ولم تنفذ تعهداتها . ومن الواضح بالمثل أنه على الرغم من الضمان الصينى بالسماح لهونج كونج بمواصلة انتهاج نظامها الرأسمالى لخمسين عاما بعد ١٩٩٧ . . فإنه لاأحد يستطيع أن يضمن تنفيذ مثل ذلك التعهد .

على أن الأمر الجلى من التطورات العالمية الجديدة هو أن الإرادة الشعبية كفيلة بإلحاق الهزيمة بالقوة العسكرية . فإذا أتيح لهونج كونج أن يكون لها نظام ديمقراطى ذو سلطة شعبية حقيقية بحلول عام١٩٩٧ فإنه سيكون عسيرا تماما على الصين أن تثير غضب الرأى العام العالمى وتنكث بالتعهدات التى قطعتها على نفسها فى البيان المشترك لعام ١٩٨٤ . وقد قال ميجور فى الرد على سؤال حول الديمقراطية فى هونج كونج : « ذلك نهر قد عبرناه بالفعل » . . وهذا حق . . فعند عبور النهر لا يجمل النكوص . . والسبيل الوحيد هو الاتجاه إلى الأمام . . !



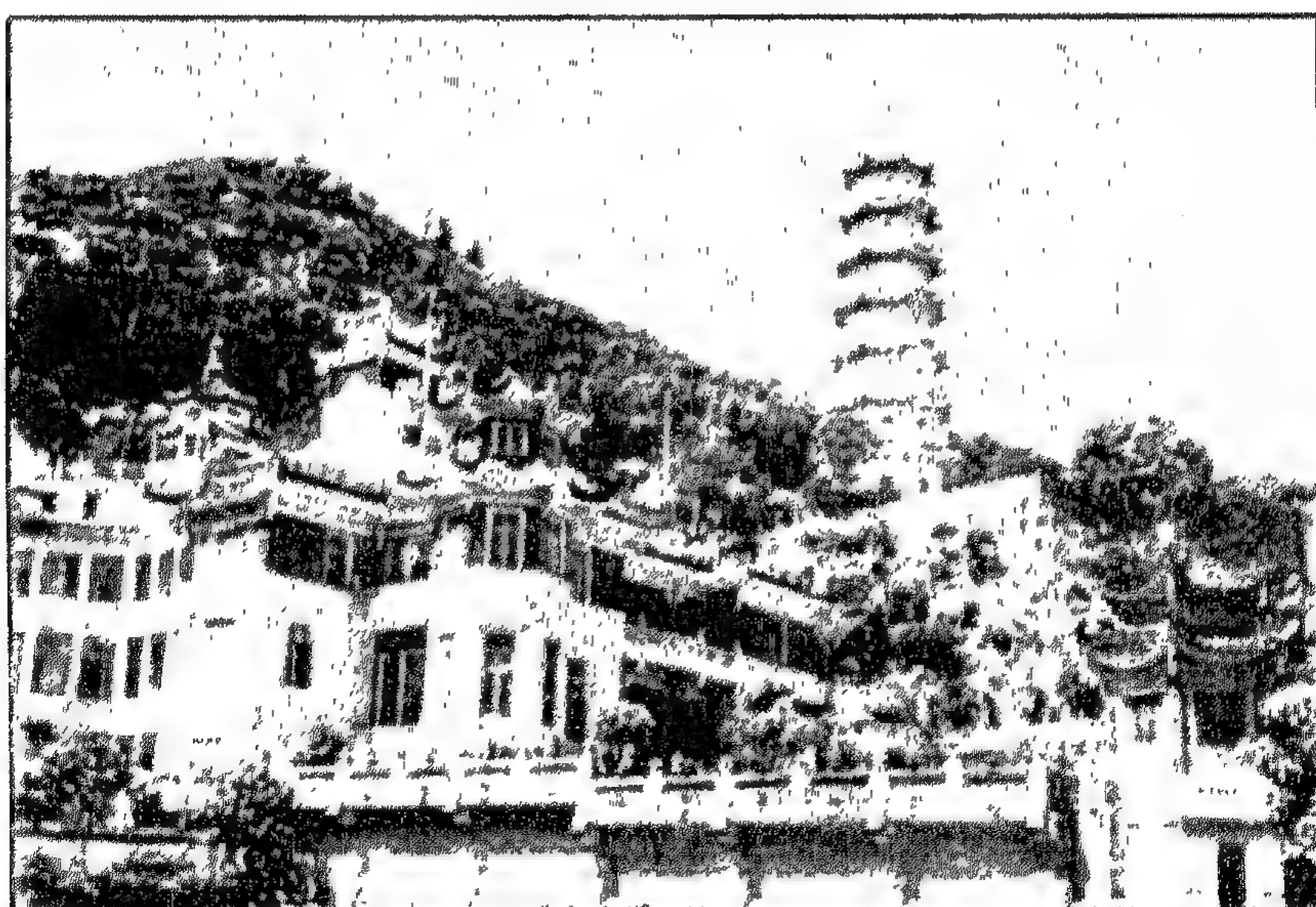
ناطحات السحاب المطلة على

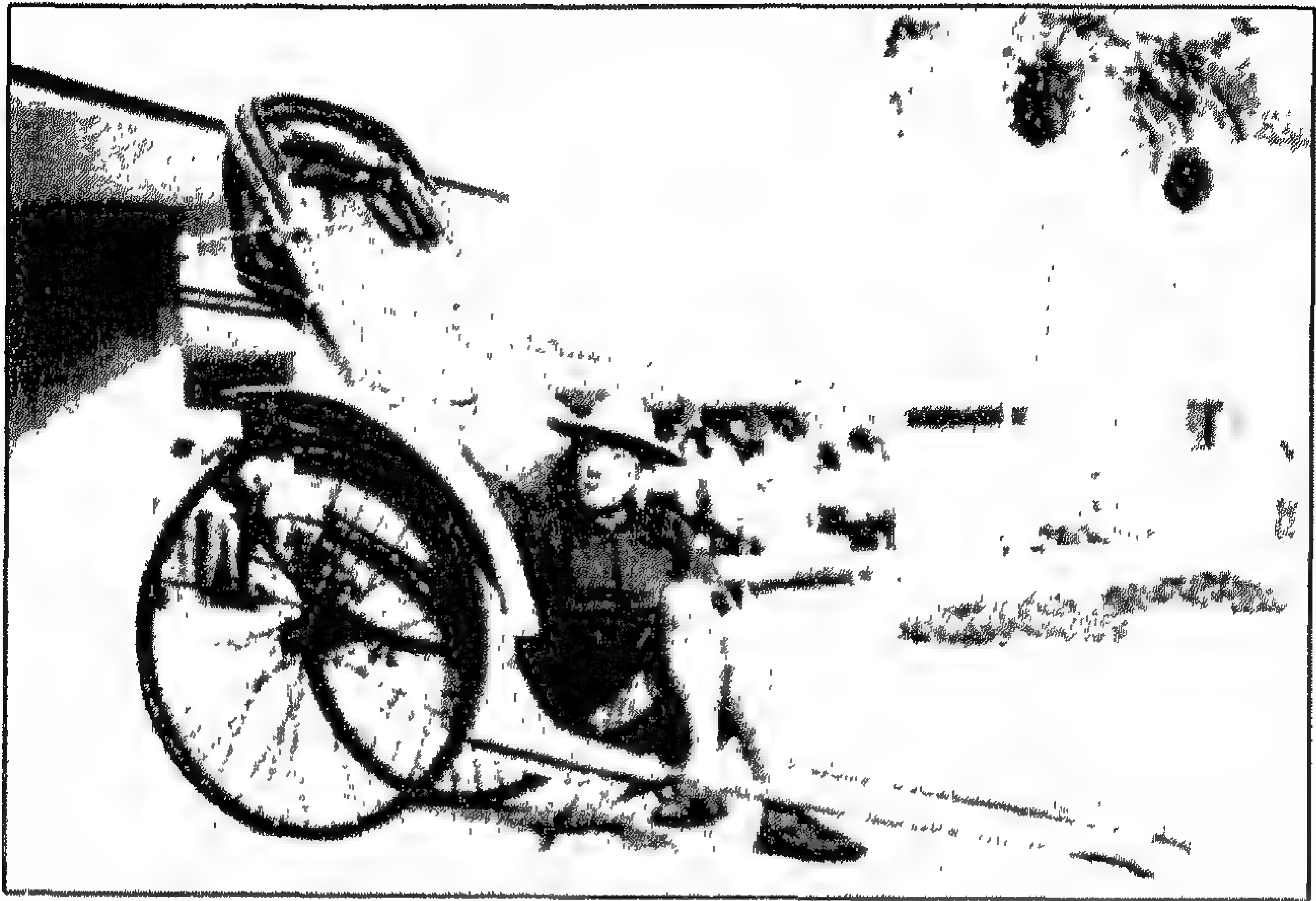




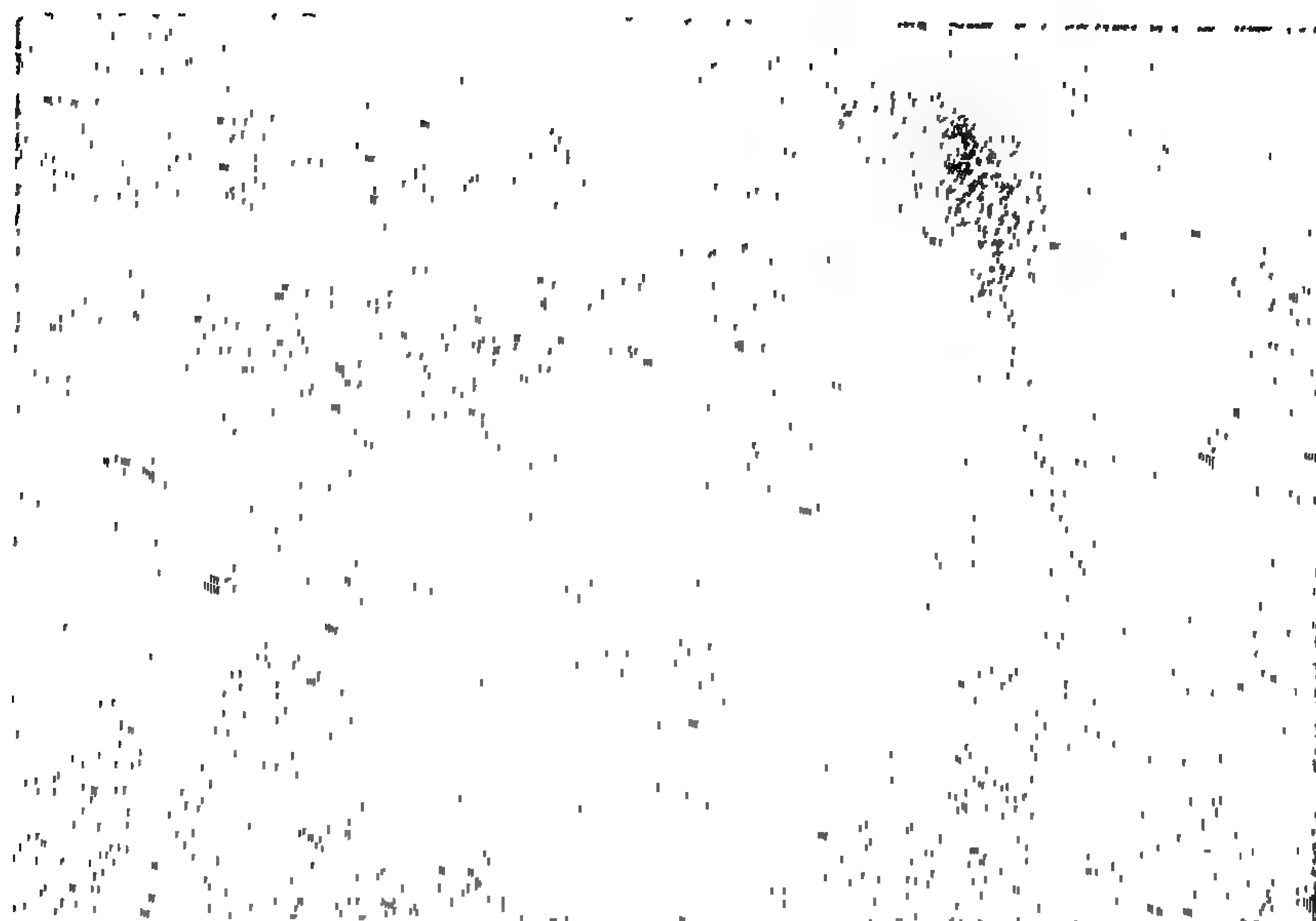


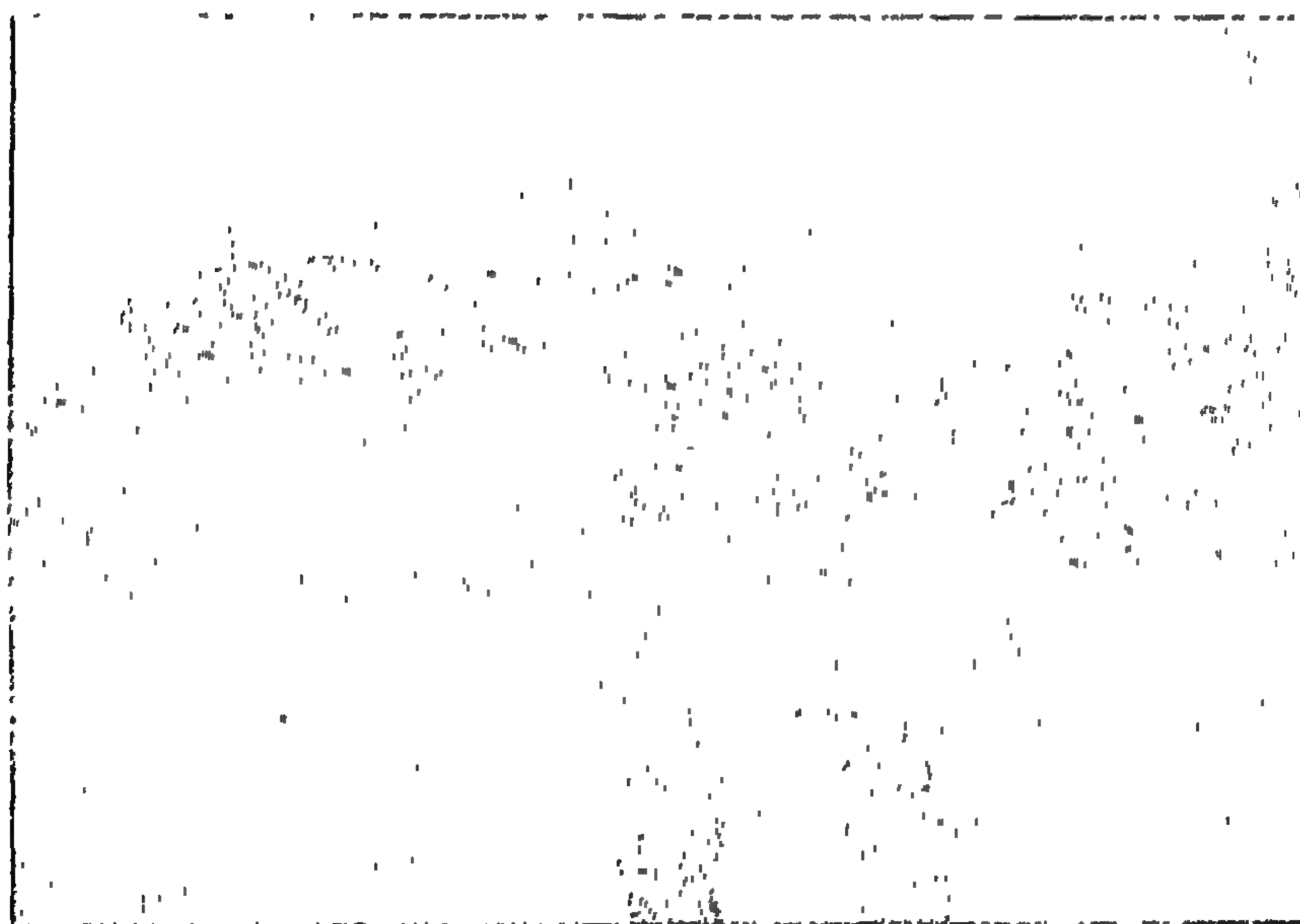


















[illegible]



[illegible]



الباب الثانى

سنغافورة

أرض الجمال .. والأوركيد

الفصل الأول : جزيرة الأحلام والأعاجيب .. أرض الأوركيد .

الفصل الثانى : الكل فى واحد .

الفصل الثالث : المعابد والأوبرا .

الفصل الرابع : مآذن الإسلام .

الفصل الخامس : ديزنى لاند الآسيوية .

الفصل السادس : فوق قمة قصر التحدير .

الفصل الأول

جزيرة الأحلام والأعاجيب
أرض الأوركيد . . .

هنا نستطيع أن نتنفس بعمق ، الهواء بلا ملوثات ، الشوارع بلا نفايات لا أعقاب سجائر ولا مهملات . . أنظف مدينة فى العالم هكذا يراها كل من زراها ، وهكذا رأيناها ونحن نتنقل فى كل مكان فى سنغافورة . . جزيرة الزهور ، والعجائب ، والمتناقضات!

قالت لنا وهى تداعب باقة من زهور الأوركيد :

ـ أنتم الآن فى أجمل حديقة فى العالم ، ألا تشعرون أنكم تتبخترون فى طرقات الجنة . . الحدائق ، والورود والأشجار ، والخضرة ، والماء الرقراق ، وزقزقة العصافير ، وتغريدالبلابل وموسيقى الملائكة ، والحور الحسان ، وعبير الأوركيد والريحان ؟ !

كنا وقتها فى قلب «سنتوزا » الإبنة البكر لسنغافورة ، جزيرة الأحلام والجمال والأعاجيب . .

قبل سنوات قليلة ، لم يكن هناك سوى تلال سوداء يمرح فى وديانها وعلى سفوحها مئات القراصنة والمهربين ، وتسرح فى غاباتها النمور والقرود ، ولم تعرف لنفسها اسما سوى « جزيرة الموتى السوداء » إذ كانت منفى القراصنة الملاويين .

وحين اكتشف الإنجليز موقعها الاستراتيجى مع نزول الجنرال ادوارد ليك بها عام ١٨٣٧ كان أول ماقاله : «إن أى عدو يتمكن من النزول بقواته على أرض هذه الجزيرة، يستطيع أن يكون سـ.ـا المنطقة كنها » ولهذا فقد جعلها الإنجليز قاعدة مدفعيتهم الثقيلة

للسيطرة على جنوبى بحر الصين ، ولكن هذه القاعدة المحصنة لم تستطع الصمود طويلا حين غزا اليابانيون سنغافورة فى الحرب العظمى الثانية ، فى ذلك الوقت كانت المدفعية كلها موجهة نحو البحر ، فعجزت عن تحويل فوهاتها حين جاء الهجوم من الشمال ، فكانت الهزيمة الساحقة للإنجليز الذين عجزوا عن استعادتها إلا بعد سقوط اليابان .

● الجنة العائمة

اختلف الأمر كله منذ سبع وعشرين سنة فقط ، ففى عام ١٩٦٨ ، ومع النهضة الحديثة لسنغافورة ، تطورت «جزيرة الموتى السوداء » لتصبح منتجعا تحمل اسم «سنتوزا جنة الأحياء » وامتد التلفريك الكهربائى ليطل الناس من عَلُ ، قبل أن يهبطوا لينعموا بالجنة العائمة الخضراء . . !

المشهد من نوافذ التلفريك كما رأيناه بدا لنا خلابا رائعا ، فى المواجهة جزيرة سنتوزا بحدائقها وغاباتها ومباهجها وألوانها ومغانيها وزهورها وتلالها تنتظر هبوطنا . فإذا عدنا بأبصارنا إلى النافذة الخلفية وجدنا الجزيرة الأم «سنغافورة » شامخة بعاصمتها وشواطئها التى تنافس أرقى مدن العالم ، وهى تستلقى فى غفوة حالمة سابحة فى مياه بحر الصين الجنوبى ، الواقع فى الطرف الجنوبى من شبه جزيرة الملايو بطول ٤٢ كم ، وعرض ٢٣ كم على مساحة تبلغ ٦٢١ كم ٢ محتضنة ٥٩ جزيرة صغيرة ، يعيش عليها مايقرب من ثلاثة ملايين نسمة ، متوسط دخل الفرد منهم لايقل عن ١٥ ألف دولار أمريكى فى السنة ، وهو من أعلى الدخول الفردية فى العالم .

ونغادر التلفريك لنتجول بين أنحاء سنتوزا . . الجنة العائمة . .

أحد أجمل ماشاهدناه فى سنتوزا الطريقة التى استطاعت أن تجمع بين ملامح الغابات والخضرة الاستوائية مع الشواطىء الرملية الناعمة البيضاء . عندما اخترق القطار الضيق بنا الغابات الخضراء الممتدة على الجانبين ، شهدنا الجمال الاستوائى بأشجاره المثمرة المميزة التى تتقافز بينها القردة والنسانيس ، ومن تحتها القنوات والجداول تتلوى مخترقة أرض الغابة .

فى كل مكان تتناثر الملاعب الرياضية للكبار والصغار ، بما فيها ملاعب التنس والجولف وأحواض السباحة والسباقات المائية والتزلق ومنتجعات الاستجمام والراحة على شاطىء البحر . وليس أروع من مشهد النافورة الموسيقية الراقصة بتشكيلاتها المائية والضوئية وموسيقاها التى تقدم أشهر أعمال الموسيقيين العالميين وتتدرج من السيمفونيات حتى موسيقى الجاز .

وننتقل إلى متحف المرجان حيث أجمل التشكيلات المرجانية وأندر البقايا البحرية التى اختيرت من مختلف أنحاء العالم . الجدران والسقوف وديكورات الإضاءة كلها من الشعب المرجانية والأصداف الملونة . أما المعروضات ففى داخل أحواض ومياه جارية تماثل بيئاتها الطبيعية، حيث تسلط عليها أضواء تشبه أضواء الأعماق فى البحار والأنهار. أما أنواع الأصداف البحرية فتقرب من ٢٢٠٠ نوع يعتبر أغلبها نادرا .

غير بعيد من هذا المتحف ندخل« الإكواريوم » حيث معرض الكائنات المائية والأسماك الملونة ذات الأشكال البديعة التى تعمر بها بحار جنوب شرق آسيا . وفى جانبٍ من المعرض نسقت أنواع من وسائل الصيد من شباك وأدوات تقليدية مستخدمة فى صيد الأسماك ، مع نماذج من أكواخ الصيادين وسفن وقوارب الصيد بما فيها القديمة المغطاة بالجلود .

وعلى مسافة قليلة يوجد متحف الفنون ، هناك تعرض حوالى مائتين من أروع الأعمال الفنية لأشهر الرسامين العالميين بينها ٦٠ لوحة تعبر عن الفن فى جنوب شرق آسيا ، بما فى ذلك الأعمال التقليدية الفنية والخطوط المحفورة فى الخشب والعاج .

وننتقل من مكان إلى آخر بين متنزهات وزهور تغطى المساحة السهلية والطرقات ، بطريقة مميزة بديعة حتى نصل إلى قلعة «سيلوزو » التى أقامها الإنجليز عام ١٨٨٠ ، والتى تتميز بممراتها المحفورة التى تتلوى تحت الأرض وفتحات الفوهات التى نصبت فيها المدافع والقاذفات والبنادق السريعة الطلقات .

قالت لنا مرافقتنا وهى ألمانية غربية جاءت إلى سنغافورة منذ خمسة عشر عاما فعشقتها واكتسبت جنسيتها دون أن تفكر فى العودة إلى وطنها الأصلى :

ـ لاتستصغروا مساحة بلادنا ، فهى كبيرة بقيمتها ، غنية باستراتيجيتها ، رائعة بطبيعتها ، باذخة بمنتجاتها ، راقية بجهود شعبها ، وهو ما ستشاهدونه بأنفسكم . المهم هنا أن هذا الشعب الذى جاء من أصول عرقية متباينة أصبح اليوم يعزف سيمفونية واحدة تقول «شعب واحد ، والوطن للجميع » وهو ما يعنيه علم الجمهورية الذى يرفرف بلونيه الأحمر والأبيض والهلال والنجوم الخمسة فى زاويته اليسرى .

فاللون الأحمر يرمز إلى وحدة وأخوة جميع الأجناس ذوى الدم الأحمر ، بينما يدل اللون الأبيض على نقاء الأمة وحياتها الفاضلة . أما تاريخ هذه الأمة فلن أحدثكم عنه ، فستتابعونه بأنفسكم فى متحف الشمع على مشارف سنتوزا . . حيث كل شىء تم تشكيله على نفس النسق الذى أقيم به متحف الشمع فى لندن لمدام تيسوا .

● مدينة الأسد !

دخلنا متحف الشمع السنغافورى لنتلمس معالم التاريخ . .

المتحف بتماثيله الشمعية ولوحاته يحكى الكثير . فقبل مئات السنين لم تكن سنغافورة أكثر من جزيرة مغطاة تماما بالغابات الاستوائية ، يقيم بها عدد قليل من صيادى السمك الملاويين ، وكانت الغابات لاتجد من يستمتع بثمارها حتى تمت إزالة الجزء الأكبر منها مع مر السنين ، وزرع مكانها المطاط وجوز الهند والأناناس والخضراوات .

وفى القرن الثانى عشر وجد فى الجزيرة مركز مزدهر عرف باسم «سنجابور» ومعناه باللغة السنسكريتية « مدينة الأسد » .

حول هذه التسمية تقول الحكاية الملايوية إن الاسم المبكر للجزيرة كان «تيماسك » وكان أول من نزل على شواطئها«الراجا شولان » وهو ملك هندى محارب ينتسب إلى الاسكندر الأكبر حين جاء إلى الشرق وعلى المسيرة الحربية الغازية وتحقيقا لحلم جده الأكبر راح الملك يزحف بحرا فى طريقه إلى الصين . وأثار ذلك التقدم مخاوف الامبراطور الصينى ، فأرسل سفينة شراعية عليها بحارة يقودهم حكيم عجوز ، وكانت الشحنة عبارة عن مسامير وأسياخ صدئة وأشجار برتقال مثمرة ، حين مثل الحكيم

العجوز بين يدى الملك قال له إنهم تركوا بلادهم الصين منذ سنوات قضوها مبحرين كل هذه المسافة الطويلة التى تفصل بين الصين والملايو ، وأضاف أن رجاله قد نزلوا البحر وهم فى سن العشرين ولم يصلوا إلى بلاده إلاوقد شابت رؤوسهم ، وحتى شحنتهم من أسياخ الحديد والمسامير علاها الصدأ لطول ماقضوا من ا لسنين ، كما نبتت تقاوى البرتقال التى كانوا يحملونها وصارت أشجارا مثمرة . وإذ استبعد الملك المسافة قرر أن يوقف خططه لغزو الصين . . !

خلال زحف الملك فى شبه جزيرة الملايو تزوج من فتاة محلية أطلق عليها الملاويون اسم «ابنة ملك البحر » كان اسمها «سانج نيلا أوتاما » وبعد أن تزوجها الملك جعلها أميرة على «لامبانج » إحدى المدن الغنية التابعة لامبراطورية «سريفيجا با » . وجاء الملك ومعه رجال بلاطه ونزل عند مدخل النهر ، حيث رأى على بعد فى الغابة حيوانا غريبا أبيض الصدر ذا رأس أسود على جسد بنى اللون وعينين براقتين . وقال له رجاله إن هذا الحيوان هو «سنجا » أى «الأسد المقدس » . وأراد الملك أن يزداد اقترابا من الوحش، ولكن هذا كان قد اختفى . واستبشر الملك برؤية الأسد واعتبر ذلك علامة سعد وخير ، فأطلق على الجزيرة اسم «سنجابور » أى مدينة الأسد ، وجعل منها ميناء تجاريا كبيرا . ولكن الثراء الذى بلغه الميناء التجارى أثار حسد الجيران على مدى السنوات ، فتعرض لغزوات متتالية من التائيين وأهل جاوة الذين دمروا هذا المركز التجارى الكبير وقضوا على ازدهاره .

وعادت المدينة لتصبح قرية لصيادى الأسماك . ولأكثر من أربعمائة سنة لم تعد أكثر من مأوى للقراصنة .

وفى عام ١٨١٩ سيطرت شركة الهند الشرقية على الجزيرة وجعلتها تابعة للمركز الرئيسى للشركة فى سومطرة .

فى ذلك العام بدأت القصة الحقيقية لسنغافورة ، وكان الرجل الذى ينسبون إليه جهد تأسيسها هو « سير توماس رافلز » التاجر الإنجليزى المغامر .

تفاصيل القصة تحكيها لنا مساعدة مديرة إدارة السياحة «روبى كو » :

ـ جاء رافلز على متن سفينة تجارية تحمل شحنة من المنتجات الإنجليزية لمقايضتها ببضائع شرقية ، وحين غادر الشواطىء الهندية كان لديه تعليمات مشددة بتفادى التعرض لممتلكات الاستعمار الهولندى ، وفى صباح ٢٨ يناير ١٨١٩ رسا بسفينته على ساحل الجزيرة ، وليس معه سوى الضابط فرجار يرافقهما مجند هندى يحمل بندقية قديمة ولكنه على معرفة جيدة باللغة الملايوية ، كان السكان فى ذلك الوقت لا يتجاوزون بضع مئات من الملايويين وجماعات من غجر البحر ، وعدد قليل من الفلاحين الصينيين المغامرين . وبقدرته على التفاهم بلغتهم استطاع أن يتقرب منهم ويتعرف على « تيمو نجنج » عبد الرحمن الحاكم الذى يتولى الأمور ممثلا لسلطان جوهور جنوبى الملايو .

ولم تمض أيام حتى كان رافلز قد تمكن من عقد صفقة لم يكن يحلم بها أبدا . كان العقد ينص على أن تتملك شركة الهند الشرقية جزيرة سنجابور لتكون مركزا تجاريا لها مقابل مبلغ سنوى قدره ٥٠٠٠ دولار للسلطان و٣٠٠٠ للحاكم المحلى ، ونجحت الصفقة وتولى رافلز مسئولية إدارة الجزيرة بعد سلسلة من المحاولات لتفادى الصدام مع حاكم الهند الإنجليزى وسلطان ملقا الملايوى وقيادة الأسطول الهولندى . وفى عام ١٩٣٦ أصبحت سنغافورة جزءا من مستعمرة الملايو البريطانية ، وصارت مدينة الأسد عاصمة لها . وبدأت المدينة تشهد تطورا متتابعا نتيجة لمركزها الاستراتيجى ، وأصبحت أحد المراكز الرئيسية التجارية والملاحية الكبرى وقاعدة بحرية وجوية بريطانية من أقوى القواعد البحرية الحصينة فى العالم .

وخلال الحرب العالمية الثانية احتلت القوات اليابانية الجزيرة وأطلقت عليها اسم «شونان » أى«أضواء الجنوب » وبعد أن أعيد تحرير سنغافورة من الاحتلال اليابانى أصبحت مع جزر « كوكو » وجزر الكريسماس مستعمرة من مستعمرات التاج البريطانى . وظلت الجزيرة تحت الحكم العسكرى حتى أعيد الحكم المدنى لها عام ١٩٤٦ ولكن مع استمرار تبعيتها للتاج ، وفى عام ١٩٥٩ حصلت على الحكم الذاتى وعين « لى كوان يو » رئيسا للوزراء ، وفى عهده انضمت سنغافورة تحت لواء الاتحاد الفيدرالى الذى تم بينها وبين الملايو فى سبتمر ١٩٦٣ ، إلا أنها انفصلت عن اتحاد

ماليزيا وحصلت على استقلالها بعد ذلك بعامين ، إذ أعلنت جمهورية سنغافورة المستقلة يرأسها رئيس الدولة . .

كل هذه التفاصيل تتبعناها من خلال التماثيل والمشاهد التى تكاد تكون حية فى متحف الشمع التاريخى الذى يحكى القصة الكاملة لشعب سنغافورة الذى التقيناه فى الشوارع والبيوت والأسواق وفى كل مكان من أرض جزيرة العجائب والمتناقضات .

الفصل الثانى
الكل فى واحد

شعب يفيض بالمرح ، يبتسم دائما ، فيه رقة وجاذبية وذكاء . ألوان من الناس متاينى الأعراق والعقائد والثقافات يثيرون الاستغراب ، فمنذ اللحظة الأولى التى هبطنا فيها من الطائرة فى مطار شانجى ، عرفنا أن هذا الشعب يضم مجموعة من الجنسيات خلطت فى بوتقة واحدة ليصبح الكل فى واحد . فالأغلبية من الصينيين القادمين من اثنى عشر إقليما من أقاليم الصين الأم ، يشكلون نسبة ٧٦,٣٪ من السكان ، أما الباقون فمن الملايويين ويشكلون ١٥٪ ، والتاميليين من جنوب الهند والبنجابيين والسيخ والسيلانيين ويمثلون ٦,٤٪، ثم الأوروبيين واليمنيين من أبناء الخليج ويمثلون ٢,٣٪ .

هذا المزيج الغريب من الأعراق يشكل الآن شعبا واحدا ، يتمسك بوطنه الجديد ، ولايستشعر أحد منهم غرابة من الاختلافات العرقية أو اللونية أو اللغوية بينهم ، ولايهتمون بالاختلافات العقائدية بين بوذيين وهندوس وكونفوشيوسيين وطاويين ومسلمين ومسيحيين ، بل إنهم يعرفون كيف يتعايشون بتآلف مع كل القادمين إلى بلادهم من سياح وتجار وعلماء ومهندسين وعمال .

بالإضافة إلى ذلك فإن السنغافوريين ـ مع عدم انفصالهم عن جذورهم العرقية ـ قد تعودوا طويلا على الاتصال مع الأجانب .

ولكن قبل ذلك بسنوات طويلة حدث أن خلافا حول ستة أرطال من الأرز أدى إلى معركة وحشية بين الصينيين بعضهم وبعض ، وبلغ عدد الضحايا ستمائة قتيل وآلاف الجرحى ، وبلغ عدد البيوت التى دمرت ثلاثمائة بيت ، أما الأسلحة المستخدمة فكانت الفئوس والبلط والعصى المسنونة . زمن المعركة كان عام ١٨٥٤ والجانبان من

المهاجرين الكانتونيين والهوكيانز ، وكان العنف هو سمة العلاقات بين الصينيين القادمين بالمئات هاربين من المعاناة فى الوطن الأم . جاءوا على سفن أو قوراب عبر خلجان بحر الصين الجنوبى ومضيق ملقا ، جاء الهوكيان من مقاطعة فوكيان تجارا ورجال أعمال ليغرسوا الجذور الصينية الرئيسية التى تمثل نسبتهم الآن حوالى ٤٠٪ من الصينيين السنغافوريين وأغلبهم من التجار والموظفين ورجال الأعمال . ومن سواتو فى مقاطعة كوانتون جاء التوشو ويشكلون الآن ٣٠٪ من الجذور الصينية . الكانتونيون أكثر اعتزازا بشخصيتهم وأغلبهم من الفنانين والحرفيين . الجماعات الصينية الأخرى بينهم الهاكا من المتجولين القادمين من فوكيان وكوانتون وسشوان ، وهم لا ينغمسون فى تجارة معينة ، والها نانيز القادمون من جزيرة هاتيان التابعة لكوانتون ويعملون فى الأعمال الفندقية والخدمات . وجاء آخرون من مقاطعة كوانجسى ومناطق جنوبية أخرى . وفى السنوات الأخيرة لحق بهم آخرون من الشمال ولكن بأعداد قليلة .

● لغة الماندرين

الرباط الرئيسى الذى يربط بين هؤلاء القادمين من مختلف المقاطعات هو لغة «الماندرين » أو «الكويو » اللغة الوطنية السائدة فى بكين ، والتى درسها الجميع فى المدارس وتفاهموا بها فى المتاجر والمزارع ومقاهى الشاى ، بصرف النظر عن اختلاف اللهجات . وإذا تعذر تلاقى اللهجات فى التخاطب ، فإنهم يستطيعون أن يتلاقوا جميعا من خلال الكلمة المكتوبة ، تماما كما يحدث عندنا فى لهجات أهل البادية والحضر، أو أهل الريف والمدن . حيث يلتقى الجميع مع لغة القرآن لسان العرب .

جاء اللاجئون من مختلف المقاطعات ليستقروا فى الجزيرة الخضراء ومعهم تقاليدهم وعاداتهم ، وكان لابد مع مرور السنين أن يتلاحموا ويتحدوا ويمتزج الجميع فى البوتقة لينتج المزيج الثقافى والاجتماعى واللسانى الذى يشكل المجتمع الصينى السنغافورى ، بكل عقائده المؤمنة بآلهة البوذية والكنفوشية والطاوية ومختلف الفروع العقائدية التى عرفتها الصين ، وينصهر ذلك المجتمع السنغافورى الجديد مع كل الأعراق الأخرى القادمة من مختلف أنحاء جنوب شرق آسيا . ولعل ماجمعهم فى هذه البوتقة الواحدة هو الرغبة فى تعويض أنفسهم عن أوطانهم التى فقدوها بالعثور على مواطنة جديدة

ينتسبون إليها تحت ظل وطن جديد ، هو سنغافورة . والذى زاد فى الإحساس بالانتماء هو أن القادمين الأوائل كان أغلبهم من الرجال مع أقلية من النساء . فكان أن تمت زيجات مع الفتيات الملاويات أدت مع مر السنين إلى تدعيم الرابطة الثقافية الموحدة بين الجميع .

قالت لنا مساعدة مدير السياحة «روبى كو» وهى تشير إلى تمثال بارز فى أكبر ميادين المدينة :

ـ منذ البداية كان لابد للقادمين من أنحاء متفرقة أن يتناحروا على الأرض والزرع والصيد فى صراع الديكة . وقامت جماعات سرية متنافسة جعلت القوة هى القانون . أحد زعماء هذه الجماعات استطاع أن يسيطر فى النهاية على الجميع ووضعه تحت إمرته . وشكل قيادة مثل قيادة « المافيا » تدير الأمور باسمه وتفرض حمايتها ـ مقابل ثمن محدد ـ على الجميع .

استمر الحال بين مد وجزر حتى تحددت صورة الحياة فى الجزيرة مع وصول سير رافلز، الذى وضع أسس النظام والقانون والاقتصاد .

واذا كان رافلز لم يستمر طويلا واضطر للعودة إلى وطنه انجلترا ، فقد ظلت الجزيرة تواصل حياتها تحت سيطرة الإنجليز وشركة الهند الشرقية ، دون أن تنسى ذكرى مؤسسها الذى وضع أسس التجارة الحرة والتنمية الاقتصادية ، ونظم التعليم التى بدأها بإنشاء كلية « سنجابور » التى ظلت تتوسع مع التطور المطرد للجزيرة ، حتى أصبحت مجمعا تعليميا يحمل اسم « جامعة سنغافورة » تقوم فى قلب «مدينة رافلز » بمنشآتها ومبانيها ومعالمها الحديثة ، وتمثال مؤسسها الذى يقوم شامخا وسط الميدان ويتمتع باحترام كل السكان مهما اختلفت أصولهم وتباينت عقائدهم .

الصورة البراقة الباذخة للمدينة الجميلة الحديثة المغرقة فى أساليب التقنية المتقدمة لا تستطيع أن تعطى صورة حقيقية لقطاعات الشعب التى تعيش فى الشوارع الخلفية ، حيث الأحياء القديمة المنعزلة عن بعضها البعض منذ وضع تخطيطها سير رافلز

واستمرت على ذلك التخطيط حتى الآن . إنها الحى الصينى ، والحى الملايوى ، والحى الهندى ، والحى العربى .

وكان لابد لنا أن ننزل إلى الشوارع الخلفية لنشهد كيف تجرى حياة الناس ، بادئين بالحى الصينى ، أبرز هذه الأحياء وأكثرها ازدحاما بالسكان .

● الناس فى الشوارع الخلفية

المجتمع التقليدى بأجداده وآبائه وأبنائه هو مقصدنا ونحن نخترق شوارع الحى الصينى الذى يسمونه « تشاينا تاون » . هناك ، وجدنا أنفسنا نعود إلى الوراء بين خمسين ومائة من السنين . الشوارع لاتختلف كثيرا عما كانت عليه قبل تلك السنوات ماعدا تلك الخلفية من ناطحات السحاب الأنيقة الجميلة النظيفة التى أقيمت لتكون مساكن لذوى الدخلين المتوسط والمحدود من سكان الحى . فالحى الصينى ـ تماما كبقية الأحياء الشعبية التقليدية الأخرى ـ يتطور إلى الأحدث . ويبدو أنه لن تمر سنوات قليلة حتى تكون المعالم القديمة قد اندثرت تحت وطأة التجديد المستمر والتقدم العمرانى ، ولايبقى منها غير بقايا متناثرة هنا وهناك تروى قصة الماضى القديم .

وندور فى الشوارع الخلفية التى لا تزال تتمسك بطابعها العتيق ، الطرق ضيقة شديدة الازدحام ، المبانى غير متشابهة إلا فى الارتفاع الذى لايتجاوز طابقين أو ثلاثة ، مع طابع هندسى غريب غير متكامل ، ومتاجر متباينة الأشكال والواجهات ، ومستودعات قاتمة وباهتة لها شخصيتها المميزة .

قارئو الطالع يلاحقون المارة ، أو يجلسون والساق فوق الساق ويطلقون كلمات مبهمة غير محددة . الطبيب الشعبى يحمل حقيبته العامره بالأدوية والأعشاب والخدع ، يزعم أحدهم أنه يشفى أمراض القرحة بابتلاع ثلاثة فئران بيضاء وهى حية !

هنا أيضا يجد الصينيون والزائرون متعتهم فى الأطعمة المعدة إعدادا خاصا . فى المطعم الرئيسى بسوق « كريتا اير » تجد كل أنواع أطباق المكرونة المصنوعة من الأسماك والدجاج ، إلى جانب لحم الخفاش والحمام والسنجاب والثعابين . دعينا للغداء فى أحد المطاعم فقدمت لنا عدة أطباق ، وعندما بدأنا نأكل قالت لنا مرافقتنا :

ـ هل تعرفون هذا النوع الذى ستأكلونه ؟

قلنا : حمام وسمك .

قالت : بل لحما الوطواط والسنجاب .

وتصور ماالذى يمكن أن يحدث حين تتوقف اللقمة فى فمك ، ولاتعرف كيف تقذفها والآكلون من حولك بالعشرات ، وطلبنا سمكا وأرزا فقط وجاء النادل وفى يده جردل ملىء بالارز المسلوق ، وفرش أمام كل منا ورقة موز كبيرة بدلا من الصحن ، وراح يغرف كميات من الجردل بمغرفة صغيرة بينما أكثر الأرز فى كفه ، ومن جردل آخر يلقى بالسمك الغارق فى الكارى وعلينا أن نأكل حتى لانهين من يجلسون حولنا !

كل شارع من الشوارع يتخصص فى تجارة معينة ، ولكن أبرز مالفت نظرنا هو محلات النعوش والاكفان . قال لنا صاحب المحل « جان انج سنج» إن بعض هذه الصناديق الخشبية يتكلف بضعة آلاف من الدولارات . وهى ثقيلة حتى إن رفعها يحتاج إلى عشرين رجلا ، وهى بالطبع للأغنياء من أصحاب الملايين . الصناديق ليست وحدها مايستحق الملاحظة ، فالمحل يبيع أيضا نماذج من البيوت والسفن والسيارات لايقل طول أى منها عن نصف متر مصنوعة من الورق المزخرف بالألوان والخيزران . وهى ليست للعب ولكنها بعض مايهدى للميت فى جنازته لتحرق معه حتى يتمتع بها فى حياته الأخرى !

شهدنا إحدى هذه الجنازات والرهبان يسيرون فى حلقة وهم يترنمون ويشعلون النار فى أوراق نقدية زائفة ، تعبيرا عن ثراء الميت والحياة الراضية التى سينعم بها من خلفهم وراءه !

فى شارع آخر تخصص أصحاب المحلات فى صناعة الوجوه الملونة الخشبية أو الورقية ، إنها تمثل الآلهة المنزلية التى لا تزال تماثيلها تملأبيوت الصينيين . أمام المحلات يجلس الصناع المهرة المتخصصون فى هذه الصناعة فى سراويلهم القصيرة وملابسهم الداخلية وأذرعهم وسيقانهم العارية يعملون فى تلوين الوجوه بالألوان الصارخة وتلميعها حتى ساعات متأخرة من الليل .

هناك أشياء كثيرة للبيع فى هذه المحلات الشعبية الغريبة التى يأتى إليها السكان من جميع أنحاء البلاد . وهى ليست فقط من المبيعات الشاذة الغريبة كلحم الثعابين والأفاعى والألعاب ذات الصفير الضئيل والثقوب التى يختلس منها المشترى النظر لرؤية مستقبله ، بل يشتمل أيضا على جميع أنواع الاحتياجات المنزلية من ملابس وأحذية وألعاب ، بالإضافة إلى الهدايا من جميع الأنواع .

الفصل الثالث

المعابد والأوبرا .. !

المعابد البوذية منتشرة فى كل مكان ، وهى تقوم وسط المبانى القديمة ، ليس فى الحى الصينى وحده بل فى كل أنحاء سنغافورة .

فى شارع «تيلوك إير » دخلنا معبد «يشان هوك كنج » المعبد بناه عام ١٨٤١ مهاجر صينى ليقدم الشكر للآلهة لوصوله وصحبه سالمين من بر الصين ، الناس يدخلون المعبد فيركعون على ركبهم فى صلاة قصيرة وهم يشعلون أعواد البخور ليغرسوها أمام تمثال بوذا أو تماثيل الأباطرة التسعة الإلهيين !

قصة هؤلاء الأباطرة المقدسين يحكيها لنا الراهب الأكبر الدكتور «شوهون كونج » فى معبد « تومو كونج » المخصص لعبادتهم ، والقائم فى شارع سيرانجون منذ ١٨٨١ قال إنهم لم يكونوا آلهة أول الأمر بل كانوا بشرا ، ولكن من خلال فضائلهم تحولوا إلى نجوم مخلدين ينزلون إلى الأرض فى إقامة مؤقتة لمصاحبة الرجال والنساء الذين ولدوا من آباء أطهار بلغوا مرحلة « السمو الروحى » ولا تزال أرواحهم محومة بين السماء والأرض . هؤلاءالأباطرة المقدسون هم نجوم« الدب الأكبر » السبعة ، أربعة منهم يمثلون الدورة الوسطى وثلاثة يمثلون الأيدى التى تحركها ، أما الإلهان الآخران فيسكن كل منهما فى نجم خفى قريب ، وهما نجما التحويل غير المرئيين الا للخالدين . . . !

يتمثل الأباطرة التسعة بعض الأحيان فى تمثال الإلهة الأم « دومو هونج » كما ينطقونها بالمندرين ، والتمثال كما رأيناه لامرأة لها عدة أذرع وعلامة مميزة على جبهتها ، ويقول البعض إن موطنها الأصلى هو الهند ، وفى صباها منحت القدرة على السير فوق الماء دون أن تبتل قدماها مما جعلها قادرة على إنقاذ الغرقى ، وقد تزوجها ملك المملكة

الشمالية فأنجبت له تسعة أبناء ، أصبحوا هم الأباطرة الإلهيين الذين يعبدون فى معبدين فى سنغافورة ، بالإضافة إلى ٣٥ معبدا آخر فى ماليزيا وتسعة معابد فى تايلند ، ويجرى الاحتفال الكبير بهم مرة كل عام لمدة تسعة أيام وتسع ليال فى اليوم التاسع من الشهر التاسع من التقويم القمرى . ويحظر على المتعبدين أن يأكلوا اللحم قبل دخول المعبد بيوم كامل على الأقل وعليهم أن يتطهروا ويبتعدوا عن العلاقات الجنسية ، وأن تكون أفكارهم نقية طاهرة وثيابهم بيضاء غير ملوثة .

فى الساحة الخارجية للمعبد أقيم مسرح الأوبرا حيث تقدم عروض تاريخية ودينية ، أما الممثلون فهم يتطوعون للتمثيل دون أجر ، وأما المتفرجون فعلى كل منهم أن يبحث عن مقعد من المقاعد المكدسة فى جانب الساحة ويجلس فى أى مكان خال ، والدخول والخروج مسموح بهما فى أى وقت . . !

الأوبرا الصينية كما رأيناها تمزج بين التراجيديا والميلودراما والكوميديا . وكان المشاهدون يقهقون بالضحك لموقف البهلوان مضحك الملك وهو يوقعه فى خدعة مثيرة، ثم ينفجرون بعد لحظات فى البكاء لنفى فتى صغير وتعذيبه وهو برىء ، ثم يصخبون بالتأييد وهو يشاهدون الرجل الخير ينتصر على العملاق الشرير « ولوا يانج » أحد أنواع العروض الأوبرالية فى سنغافورة يمزج بين الأصالة والمعاصرة ، ولايكتفى فى ذلك بالمشاهد التمثيلية والوجوه الملونة والملابس التقليدية والديكورات البسيطة ، ولكن يقدم فى الوقت نفسه ألوانا حديثة من الأوبرا والغناء كلها فى عرض واحد يهلل له المشاهدون . وكل حركة من حركات التمثيل كانت تؤدى طبقا لقواعد من الرشاقة منسجمة مع النغمات الموسيقية التى تعزف خلال التمثيل . وكانت حركات البدين تستخدم رمزا للكثير من الأعمال ، كما كانت تصحب الكثير من الأقوال ، وكان لابد أن تكون هذه الحركات دقيقة متفقة مع العرف والتقاليد القديمة . تحريك اليدين والجسم عند بعض كبار الممثلين يؤلف نصف مافى المسرحية من شعر .

● الحى الهندى

عرض موسيقى راقص أيضا شهدناه فى المعبد الهندوسى عندما انتقلنا إلى الحى

الهندى . كان الاحتفال دينيا يسمونه «ديبافالى »وهو يعنى «عنقود الأنوار » وعودة النور هو مايقام من أجله الاحتفال . أما الديبا فالى فتحكى قصة هزيمة إله الشر «أسورا » على يد البطل الإلهى فشنو أو التجسيد البشرى له ، وهى تتفق مع أسطورة «المهابها راتا» إذ ينتصر كريشنا على الشرير كامسا . وهذه القصة تمثل انتصار الحق والنور والحياة على الشر والظلام والموت .

دخلنا المعبد بعد أن خلعنا أحذيتنا وتركناها فى السيارة حتى لانفقدها إذا تركناها عند الباب كما نصحتنا مرافقتنا . المشهد داخل المعبد كان مثيرا صاخبا مليئا بالضجيج ، الأضواء تغمر المكان ، والشموع متناثرة أمام تماثيل الآلهة ، وأعواد البخور المحروقة تملأ القاعة بالدخان . اتساع القاعة يسمح بوجود خشبة مسرح كبير جلست عليه فرقة موسيقية لايقل عدد أفرادها عن عشرين عازفا ، وأمامهم فرقة غنائية من الأطفال يهزجون ويترنمون ، ثم تقوم من بينهم راقصات تؤدين رقصات دينية ، تتثنى خلالها أجسادهن وأذرعهن مع تعبيرات تؤديها العيون والأصابع بتناسق فنى مثير .

المشاهدون يجلسون على أرضية المعبد الرخامية يتابعون المشاهد فى إعجاب وانبهار ، وبين الحين والحين . يتجه بعضهم إلى حيث تمثال الإله كريشنا لتقديم القرابين أو لإشعال أعواد البخور ، ثم يعودون إلى مكانهم وقد أنجزوا نصيبهم من الاحتفال وحصلوا على البركة من الراهب الذى يرش عليه الماء المقدس ويعطيهم بعض حبات الأرز التى باركها الإله . ونجد بعض الرجال ينجذبون فينهضون للمشاركة فى الرقص والاهتزاز العنيف تماما كما كنا نشاهد المجاذيب فى موالد الأولياء .

قالت لنا مرافقتنا إن الاحتفالات تبدأ فى ساعة مبكرة من الصباح تنهض الأم قبل طلوع الشمس فتخرج الملابس الجديدة التى سترتديها هى وزوجها وأبناؤها ، وتجهز مظاهر الاحتفال التقليدية مثل الزهور وقطع الحلوى والزعفران وزيت الزنجبيل وبودرة الألوان والفواكه . وللتطهير يأخذ الجميع حماما من زيت الزنجبيل قبل أن يرتدوا ملابسهم . ويتجمعون أمام المذبح لأداء صلوات الشكر للآلهة ، قبل أن يقضوا النهار كله فى تبادل الزيارات مع الأقارب والتنزه فى الحدائق . ويستمر ذلك حتى يهبط الليل فيتجهوا إلى المعبد حيث العرض الغنائى الراقص الذى حضرنا بعض مشاهده .

● هنا الهند

الحى الهندى القديم لا يزال على حاله ، صورة طبق الأصل مما شاهدناه فى الشوارع الخلفية فى بومباى .

يقولون : إذا كنت تريد أن تذهب إلى الهند ، فوفر نقودك ، فقد انتقلت الهند بنفسها إليك هنا فى سنغافورة ! « الهند الصغرى » هكذا يسمون الحى الهندى الذى يخترقه شارع سيرانجون الرئيسى ، وتتفرع منه عدة طرقات أخرى تمثل أقاليم شبه الجزيرة الهندية ، حيث حط القادمون منها ليستقروا ويعيشوا منذ أكثر من مائة عام ، إنها صورة مصغرة من الهند بكل تقاليد شعوبها وعقائدها ومعابدها وثقافاتها وأزيائها وتجارتها وصناعتها وبخورها وعطورها ، وحتى رائحتها النفاذة المعبقة بالكارى والبهارات التى تجذبك مهما كنت بعيدا لتقول لك : هنا الهند . . !

السارى بألوانه الصارخة وزخارفه المذهبة هو قوس قزح الذى لايغيب عن بصرك سواء كانت السماء صحوا أم ممطرة . فإذا لم تلمحه على أجساد النساء والفتيات فستراه على الأقل معلقا على جميع واجهات المحلات التى تبيع الأقمشة والأزياء ، سواء الحريرية أو القطنية أو المصنوعة من الصوف والنايلون والموسلين والفوال والشيفون . وبين كل محل وآخر من محلات الأزياء تتناثر الدكاكين والمتاجر التى فرشت أمام واجهاتها كل بضائع الهند قمصان مشجرة وبلوزات ملونة وأحذية وشباشب وخلاخيل وأساور وعقود من الخرز أو الزجاج ، إلى جانب دكاكين الأوانى المنزلية والفواكه والخضروات واللحوم والأسماك والزوبيان المجفف ، ومحلات الكاسيت التى تصرخ بالموسيقى والأغانى وتضرب أذنيك مهما تنقلت من شارع إلى شارع ومن رصيف إلى رصيف .

لا تتوقع أن تجد سوبر ماركت أو مجمعات تجارية ، فالمشترون ـ سواء النساء أو الرجال ـ يحملون دائما أكياسا أو حقائب من الجلد أو البلاستيك ليملأوها بما يريدونه من البضائع المدلاة على الواجهات أو المفروشة أمامها . . إنهم ليسوا على استعداد لدخول مخزن تجارى أو سوبر ماركت للشراء مادام كل شىء معروضا على الرصيف .

أما التجار فهم يبيعون بضاعتهم فى أى مكان يقفون عليه . تكفى فاترينة أو ثغرة فى حائط قديم أو كشك على رصيف أو دولاب على حائط أو درجات سلم خارجى أو طاولة على بقايا سور ، أو حتى صينية أو صندوق معلق على الكتف أو الرقبة ، ومع ذلك فالأمن والأمانة متوفران فلن يخطف أحد شيئا ويهرب ، ولن يأخذ أحد بضاعة دون أن يضع قيمتها حتى ولو لم يكن البائع موجودا .

«انظر حولك » غير معترف بها هنا . فالأطفال والمواليد والصبية يملأون الأرصفة والدكاكين ، والأغلبية تشارك الأم أو الأب فى عمل باقات الزهور والفل والياسمين . الخياط يعمل وهو متربع على الساقين وماكينة الخياطة على الأرض بين يديه . طحان التوابل والحبوب يجلس وهو يدير الرحى الحجرى الذى ارتقى عند بعضهم فتحول إلى آلة وإن لم تكن عصرية . بائع التوابل يغترف الفلفل والبهار والكارى ليعبئها فى أكياس من البلاستيك للمشترين . الحداد ينفخ الكور ويضرب الحديد المحمى داخل الدكان الصغير . صانع الأحذية أو الإسكافى يفترش مدخل دكانه ، والصغار والكبار كل منهم يأخذ دوره فى إصلاح الحذاء أو تركيب نعل أو كعب جديد من المطاط . صانع الأطعمة يقف على الرصيف أمام فرنه أو موقده أو صينيته يقلب الفطائر والمعجنات والسمبوسة فى زيت مقلاته الذى يغلى ويملأ الشارع بالأبخرة والروائح النفاذة . .

وكلما اقتربت من معبد من المعابد الهندوسية ستجد نفسك وسط زخم من دكاكين بيع الشموع وأعواد الشموع وأعواد البخور وتماثيل الآلهة وهياكل القرابين والأرز الملفوف فى أوراق المانجو وكل ما يرتبط بالعبادات من الصور والأضحيات مما لايعد ولايحصى . دخلنا أجمل وأكبر المعابد الهندوسية فى سنغافورة ، معبد «يرى بيرومال » ، المدخل الرئيسى يقوم فوقه برج طوله ٢١ مترا يسمونه «راجا جويورام» من خمسة طوابق مدرجة تمثل التماثيل الملونةعلى جوانبه ومدرجاته بالشكل التقليدى جميع الآلهة الهندية والقصص الأسطورية للعقائد الهندوسية ، ما إن ندلف من بوابة المعبد حتى يطلب منا خلع أحذيتنا قبل أن نجتاز ساحة رحبة مترفة تقوم فى جانبها قاعة المهرجانات الدينية وحفلات الأعراس ، وإلى اليسار يقوم حرم قدس الأقداس حيث هيكل الإله الفيل «فينا جايار » وأخيه «مورروجان » ، وإلى اليمين يقوم هيكل الإله القرد هانومان ، أما

الهيكل الرئيسى فى المعبد ففى الوسط وهو مخصص لتمثال الإآله فشنو تحيط به زوجتاه «لاكشمى» زوجه الأولى إلى يساره «ولا نداك» زوجه الثانية إلى يمينه . . ويؤدى الهندوس صلاة جماعية أمام فشنو فى السابعة صباحا والسادسة مساء كل يوم .

ثمة مشهد غريب رأيناه ، وهو عملية «حمام الإآله» التى يؤديها الراهب الهندوسى الأكبر ثلاث مرات فى اليوم . فى كل مرة يقوم الراهب بغسل تمثال الإآله تسع مرات فيرشه فى كل مرة بماء مطهر ممزوج فى الحمام الأول بالزيت ، وفى الثانى بعصير جوز الهند ، ثم بالحليب الصافى ، فاللبن المخثر ، فكوكتيل من عصر الفواكه ، فالعسل ، ثم عصير الليمون ، فعصير قصب السكر ، ويكون الحمام التاسع بماء الورد ، وبعد الحمام يقوم الراهب بتغطية تمثال الإآله بباقات الزهور والجواهر ويضع أمامه قرابين الأرز وجوز الهند والموز والسكر والبلح وينثر أوراق الشجر تحت قدميه . . !

الفصل الرابع

مآذن الإسلام

كل هذه المشاهد تتباين تماما عندما ننتقل إلى القلب الإسلامى النابض فى سنغافورة، الحى الملايوى والحى العربى . عدد المسلمين فى البلاد حوالى نصف مليون نسمة يمثلون سدس عدد السكان فى سنغافورة ، ولهم مساجدهم ومآذنهم وتراثهم ومتاجرهم وبضائعهم التقليدية المحلية وأزياؤهم التى تختلف عن أزياء بقية السكان .

الوصول إلى الحى العربى يتم من خلال طريق « جيلانج سيراى » حيث أسواق الحى الملايوى .

فى هذا المكان استقر الملاويون فى قرية صغيرة للصيادين نمت مع الأيام لتصبح مدينة حديثة قائمة بذاتها ، كان اسم القرية الأصلى هو «جيلانج كيلابا» نسبة إلى جوز الهند الذى كان يزرع فى ذلك المكان وسط شجيرات الليمون (سيراى باللغة الملايوية) ولهذا حملت اسمها الجديد «جيلانج سيراى »

فى عام ١٩٦٠ حدثت تغيرات سريعة فى كيلانج . فمع زيادة النسل والتزاحم الشديد بين الملايويين كان لابد من توسعة المنطقة وردم بعض جوانب النهر الذى كان يقسم القرية إلى نصفين ، وأقيمت مبان رأسية يمكنها استيعاب الأعداد المتزايدة ، هدمت هذه البنايات ليقوم محلها مايشبه ناطحات السحاب لإسكان أبناء الحى ، وتمت توسعة سوق كيلانج لتغطى الاحتياجات الاستهلاكية والغذائية والحياتية للسكان.

ومن خلال التزاحم الشديد فى طرقات الحى الملايوى نشق طريقنا بضعوبة إلى الحى العربى .

هنا . . تحمل الشوارع أسماء مدن عربية وإسلامية مثل بغداد ومسقط وقندهار ، وعندما نبدأ سيرنا من طريق الشاطىء نجد أنفسنا بين صفين من الدكاكين التى تبيع كل ماهو تقليدى مثل أقمشة الباتيك والجرير والمخمل والمقصب والجدائل والضفائر والترتر والسلال المصنوعة من القش .

وفى شارع بغداد حيث البنايات ذات الطابع التقليدى الإسلامى ، وبخاصة المغربى والاندلسى ، تباع صناعات تقليدية اندونيسية مثل أغطية الرأس وملابس الإحرام والمجوهرات والعطور وسجاجيد الصلاة . وفى نهاية شارع مسقط نجد أنفسنا أمام مسجد السلطان الذى شيد عام ١٩٣٤ . إنه أحد أكبر المساجد التى يشرف على أغلبها المجلس الإسلامى الأعلى الذى يرعى الدعوة الإسلامية التى دخلت سنغافورة مع قدوم التجار من العرب والمسلمين وخاصة من اليمن وحضر موت والذين صحبهم عددمن الدعاة لنشر الإسلام وانتشرت مع وجودهم مساجد عديدة فى جميع المناطق بينها مسجد النور والسلطان ودار الأمان والشاكرين والمجاهدين والمهاجرين وفاطمة وآمنة وقاسم وخالد والتقوى .

ونتأمل مبنى مسجد السلطان قبل أن ندخله . القبة المذهبة شامخة والمئذنة قائمة تناطح السحاب . هندسة المسجد من الخارج مزيج من الفنين الهندى والصينى ، ويتميز من الداخل ببساطته واتساع صحن الصلاة ، والجدران غير المزخرفة وقد خصص جانب من الطابق الثانى للنساء لأداء الصلاة فى هذا الطابق نجد واحدة من الطبول الضخمة بمقرعتها حيث كانت تستخدم للإعلان عن مواعيد إقامة الصلاة قبل أن يصبح الأذان بالميكروفون فوق المنارة هو الوسيلة لدعوة المصلين لأداء فرائضهم الخمس .

بجوار المسجد يقوم قصر السلطان ، وكان يسمى «استانة كامبونج جلام» وندخله من إحدى بوابتين رئيسيتين ، القصر يقيم فيه الآن بعض أحفاد السلطان وحريمه ، وهم لايحبون لقاء الزوار ، ولاتغادر سيداته القصر القديم ، حتى إن الحديقة الواسعة أصبحت الآن مهملة رغم ثراء أشجارها التى تنبىء بما كان عليه القصر من فخامة فى عهد مضى .

حول المسجد وفى الطرقات المحيطة يعيش خليط من العرب والأندونيسيين والملاويين والهنود المسلمين .

الملفت للنظر هنا أن المسلمين فى سنغافورة بعيدون عن مظاهر الفقر والإهمال التى يعانى منها المسلمون فى الدول غير الإسلامية فى جنوب شرق آسيا .

ولكنهم فى كل ذلك يعتمدون على الجهود الذاتية فى مسيرة حياتهم وحماية معتقداتهم والمحافظة على تقاليدهم وتأمين مستقبلهم المادى والروحى ، وحين تتحدث إليهم تدرك أن ثمة شخصيات إسلامية بارزة لعبت دورا كبيرا فى تطوير أحوال المسلمين والنهوض بهم وسط خضم من أصحاب المعتقدات غير السماوية والاتجاهات العدائية المناهضة لانتشار دعوتهم ، أشهر هذه الأسماء عبد الرحمن باجيند آل جنيد الذى جاء من حضر موت واستطاع أن يحتل مركزا تجاريا كبيرا ثم أقام مدرسة أهلية لتعليم اللغة العربية والمنهج الإسلامى ،ويتلقى التعليم فيها أكثر من ثلاثمائة طالب فى مراحل الابتدائى والمتوسط والثانوى ، ويؤهل الخريجون لتلقى دراساتهم العليا فى الأزهر والمملكة العربية السعودية والكويت ، وقد تشكل عدد من الجمعيات الإسلامية ، أبرزها جمعية الدعوة الإسلامية التى تأسست عام ١٩٣١ والجمعية المحمدية وجمعية دار الأرقم التى أقامت مدرسة ومكتبة إسلاميتين وخصصت تسهيلات سكنية واستشارية وطباعية ، وكذلك جمعية المسلمين الجدد التى وضعت خطة مميزة للاكتفاء الذاتى فى إيجاد التمويل الملائم لاستمرار نشاطها وتنفيذ مشروع المركز الإسلامى الذى يضم مركز أبحاث ومكتبة ومركزا للمعلومات ومرافق تدريب حديثة وفصولا دراسية لجميع المراحل ومركزا روحيا لتقديم المفاهيم الإسلامية والقيم الأخلاقية مع مسجد وعيادة بالإضافة إلى فندق تخصص موارده للمساعدة فى رعاية وإسكان المسلمين الجدد الذين يواجهون الطرد من عائلاتهم نتيجة اعتناقه الإسلام .

● مزرعة التماسيح

فى نهاية شارع سيرانجون الرئيسى وجدنا أنفسنا أمام «مزرعة التماسيح» إحدى أشهر مزارع التماسيح فى جنوب شرق آسيا . هنا يجرى عرض شبه يومى يجتذب مئات

الزوار لمشاهدة الرجل الذى يحيط عنقه بتعويذة ويؤدى صلاته أمام تمثال بوذا قبل أن يتجه إلى حافة الموت ويخترق الخط الفاصل بين الأمان والخطر ، ذلك أن عمله الرسمى هو إطعام التماسيح الضارية وملاعبتها وتحديها أمام الزائرين .

استقدمت تماسيح المزرعة فى البداية من اندونيسيا حيث يقوم الصيادون المتخصصون بصدها فى الليالى غير المقمرة حين تستلقى التماسيح على جوانب الأنهار والبحيرات ، ثم تنقل إلى المزرعة فى سنغافورة . وتجرى تغذية التماسيح بالروبيان والأسماك واللحم ورئات الخنازير ، ورغم أن بداية إنشاء المزرعة كان يستهدف إنشاء واحدة من ضمن الحدائق المتخصصة المنوعة لمتعة المشاهدين ، إلا أنها سرعان ماتخذت صبغة تجارية وتدفق السياح الغربيون لمشاهدتها فى أحواضها التى أقيمت متباينة حسب البيئة التى استقدمت منها التماسيح ، وتنحصر هذه البيئة فى ثلاثة أنواع إذ أن بعضها يعيش فى البحيرات والأحواض المائية والقنوات والمستنقعات ، وهناك أنواع تعيش فى المياه المالحة المعروفة علميا باسم «بروساس» كما أن هناك تماسيح المياه العذبة «سيامنساس» والتماسيح المعروفة شعبيا باسم «الغربال» وعلميا باسم «توستا شليغيلى» .

ولأن الإنسان فى سعيه إلى مباهج الحياة بدأ يستغل جلودها فى صناعات كثيرة ، فقد تحولت المزرعة لتكون المورد الرئيسى للصناعات المرتبطة بجلود التماسيح ، وأقيم مصنع خاص مع قاعة كبيرة لعرض هذه المشغولات التى تتضمن الحقائب النسائية والأحذية والأحزمة . وفى مكتب مدير المزرعة تجد الرجل غارقا بين المحاليل والمواد الكيميائية المستخدمة فى تجفيف الجلود ودباغتها وحوله عدد كبير من الفتيات المشتغلات بهذه الصناعة وهن يجهزن الطرود التى تصدر إلى مختلف الأسواق العالمية .

الفصل الخامس

ديزنى لاند آسيوية !

الآن . . نحتاج إلى شىء من الراحة والمتعة والاستجمام ، ونستطيع أن نجد ذلك فى إحدى أعاجيب سنغافورة التى تزخر بالمواطنين صغارا وكبارا ، وبالسائحين القادمين من كل أنحاء العالم .

ديزنى لاند آسيوية . .

ولكن إذا كان والت ديزنى قد أقام فى لوس انجلوس عالما كبيرا فى مدينة صغيرة ، وشيد حديقة سحرية مليئة بالألعاب يستمتع فيها الصغار ولايضجر منها الكبار ، فإن «أوبون » عندما فعلها فى سنغافورة ، كان يستهدف الإعلان والدعاية «لزيت النمر » الذى استخلصه لعلاج داء المفاصل وأوجاع الروماتيزم ، حيث أقام حديقة رائعة تضم مشاهد غريبة عجيبة فى عالم يختلط فيه الماضى بالحاضر ، فى هذه الحديقة ابتدع شخصيات خيالية من الأساطير الصينية ومن أحداث التاريخ التى وقعت فى أزمنة وأماكن متباعدة يرى فيها الكبار والصغار ، مالاعين رأت ولا أذن سمعت ، وأضاف بعدها ابناه «بار » و «هاو » نماذج جديدة لمعالم شهيرة فى دول متباعدة من العالم لتأكيد عالمية دوائه الجديد . . !

حديقة «زيت النمر » وتسمى «تايجر بالم » تقوم على مساحة حوالى ثمانية هكتارات ، صعدنا إليها على سفح تل يطل على شاطىء بحر الصين الجنوبى . على أحد جانبى البوابة الرئيسية أقيم تمثال ضخم لنمر سيريالى بارتفاع ١٢ مترا ، يتدلى لسانه ويسيل لعابه على حورية من عرائس الماء ترفع ذيلها أثناء سباحتها ، وعلى الجانب الآخر مشهد منحوت يمثل الغارقين فى الخطيئة ، وهم يلاقون العذاب فى غموض سحرى ترويه حكايات الفولكلور الصينى القديم .

الدخول إلى الحديقة بالمجان ، ولكن ورثة منشئها «أوبون » يحصلون على إيراد أسبوعى حوالى ألفى دولار تصرف مرة أخرى على الدعاية لزيت النمر الذى حقق له ثروة تقدر بالملايين ، وقدصبوا هذه الملايين فى مشروعات عامة من بينها مستشفيات وبيوت للمسنين واليتامى ومدارس للطلاب غير القادرين وصناديق لنعوش الموتى من الفقراءإلى جانب الجمعيات الخيرية التى أقاموها لمساعدة المحتاجين ، المدخل الرئيسى الذى أقيم على شكل قوس صينى تقليدى تعلوه لوحة باسم «فيلا هاو / بار» ، مما يؤكد براعة الإخوة «أو» فى الدعاية والعلاقات العامة لمنتجاتهم ، وأمام البوابة يقوم مشهد لفلاح صينى ينحنى على امرأته التى سقطت على الأرض رعبا وقد ارتسم على وجهها الخوف الشديد وعيناها محملقتان فى تمثالين لثورين يتناطحان على سفح التل ، ويساعدها زوجها للنهوض والجرى بأن يقدم لها زجاجة من زيت النمر الشافى !

على الجانب الآخر من الممر يتصارع مصارعان يابانيان بقوة وعنف من أجل زجاجة من منتجات الزيت كل منهما يريد امتلاكها ، وفوق التل الجانبى المواجه يقف مناد يدق جرسا وهو يعدد فوائد منتجات (هاو/ بار) لعلاج السعال وعسر الهضم والغثيان ودوار البحر والإجهاد وضيق التنفس .

المشاهد الأخرى على جوانب ممرات الحديقة تروى قصصا أسطورية دينية وحكايات من الفولكلور الشعبى الصينى ، وهى كلها من أروع الأعمال الفنية التى يمكن أن يراها الإنسان ، فكلها من التماثيل البارزة الملونة وبالحجم الطبيعى ، وهى تصور تاريخ الصين قديما وحديثا ، وتحكى جوانب من العادات والتقاليد والرذائل والفضائل والخرافات وصور التعذيب التى كان يلجأ إليها الأباطرة .

ونمر بين مشاهد منحوتة فى الصخر أو مقامة من الحجر تروى قصصامن البطولات الشعبية فى تاريخ الصين وتضحيات أدبائها وشجعانها . . وحكايات تروى انتصار الخير على الشر . القصص كثيرة يروى بعضها قصة الراهب البوذى الذى ذهب إلى بلاد التبت والتقى بوحوش ضارية فى الطريق ، ولكنه استطاع مقاومتها حتى انتصر عليها .

وقصة أخرى لملكة جميلة هجرها ملكها وعجزت عن اجتذابه إليها و إغرائه بجمالها ، فطلبت من الحاشية أن يوهموا الملك بأن هناك عدوانا على المدينة ، وخرج الملك .

وتلفت حوله فى الصباح فلم يجد جنوده ، فانطلق عائدا إلى داخل القصر حيث وجد زوجه الجميلة التى نسيها منذ سنوات تستحم عارية فى حوض جميل ، وتنبه الملك إلى أنه من الممكن أن يكون هناك عدوان على هذا الجمال إذا لم يعرف كيف يصونه.، وهى قصة صانتها وحفظتها الصخور . . !

وحكاية أخرى ترويها التماثيل تحكى عن ملك الصين «الم تسو » الذى قاوم الاستعمار وجمع كل الأفيون الذى صدره الإنجليز إلى الصين فأحرقه كله حتى إن سحب الدخان المنبعث من الرحيق جعلت الشياطين تفقد وعيها فتسقط من أعلى زاحفة تحت قدمى الملك .

وفى بعض جوانب الحديقة أضاف الأخوان «أو » جانبا من المعالم الشهيرة لتعريف الأطفال من الزوار ببعض دول العالم ، فنرى أسبانيا فى مشاهد من رقصة الفلامنكو ومصارعة الثيران ، وتايلند فى تماثيل بوذا ومعبد القصر الملكى ، والولايات المتحدة فى تمثال الحرية الذى انطفأت شعلته ، ونرى فى الركن الإيطالى أحد الرماة الرومان ومصارعا ينتصر على الأسد ، وفى الركن الاسترالى يبرز تمثال للقنغر من الكونكريت . وتعمر الحديقة بتماثيل وقصص الحيوانات والطيور والأفاعى والحشرات وبالرغم من أنها كلها من الحجر إلا أنك إذا نظرت اليها فلن تدرى إذا كانت حية أو ميتة . . الفن مذهل . . وكله بالألوان !

أحد المشاهد يمثل الإله القرد هانومان الخير ، وهو ينازل بالسيف ثور الشيطان ، وبعضها يمثل الرذائل السبع المميتة مع بعض الدروس فى الفضيلة ويعبر عنها بلوحة تقول «إن أقصر الطرق إلى الفقر والخزى طريق الخمر والنساء» .

● سر الملياردير أوبون !

صاحب هذه العبارة هو الأب الملياردير «أوبون» المنشىء الأول للحديقة ومخترع «زيت النمر » . وقصة هذا الرجل هى إحدى الأعاجيب أيضا ، فقد جاء إلى سنغافورة من الصين ضمن مجموعة من المهاجرين على مركب شراعى صغير . وكان فقيرا إلى درجة أنه عجز طوال عشر سنوات عن إحضار زوجه وولدين واستطاع بعد جهد كبير

شراء بيت صغير به دكان له حديقة كان يحرثها ويرعاها بنفسه . وكان يبيع فى دكانه الصغير نوعا مصنعا من الزيت توصل إلى سره واستخلصه وسماه «زيت النمر » قادر على شفاء الروماتيزم وأوجاع المفاصل والظهر . وربح كثيرا من الأغنياء الذين تهافتوا على زيته ، ولكنه لم يبخل به على الفقراء الذين كان يبيع لهم الزيت مجانا ، كل ماكان يطلبه من كل صينى عندما يشعر بمفعول زيته فى شفائه أن يحدث جيرانه عنه ، ويقال إن أحد الرهبان الذين عالجهم بمرهم من زيته وشفاه من أوجاعه الحادة أراد ان يدفع الثمن ، ولكن الرجل قال له إن الثمن الوحيد الذى يطلبه هو أن يلقى فى مواعظه كلمة واحدة عن دوائه الذى يعطيه للناس مجانا ...

واختفى الرجل فجأة وتعطل عماله حتى ظن الناس أن البيع المجانى قد أعجزه عن الاستمرار ، وحين عاد بعد عدة أيام طلبوا منه بأنفسهم أن يحصل على الثمن مهما كان ضئيلا ممن يشترى زيته ، وأحنى الرجل رأسه وهو يبدى استسلامه لنصيحتهم ، وروى لهم أن الآلهة أيضا قد أزجت إليه نفس النصيحة بأن يبيع الدواء بمقابل ضئيل من أجل العمال الذين يعملون عنده ، ومن أجل طفل فى بطن سيدة تزوجت سرا من أحد العمال ... !

وتهافت عليه الناس ، وتوسع الدكان الصغير فأصبح شركة كبيرة تصدر الكثير من الأدوية والأطعمة وأدوات الزينة التى أدخل فى صناعتها «زيت النمر والذى وضع الرجل من أجل الدعاية له والإعلان عنه أسس «حديقة زيت النمر » التى واصل ابناه توسعتها . . وقدرت الثروة التى جمعاها بأكثر من ٢٥٠ مليون دولار رصدا ٦٦٪ منها لمشروعاتها الخيرية .

● الحساب .. ومشاهد الجحيم

ونواصل جولتنا فى الحديقة لنجد أنفسنا فجأة فى أعماق الجحيم ، ونروح ندور بين مشاهد الحساب ومايجرى فى القاعات العشر للمحاكمة الإلهية كما يتصورها الصينيون . حاكم العالم السفلى «ياما راجا» يرأس محكمة الحساب وتحت رئاسته قضاة القاعات العشر ، إلى اليسار نشهد « الباتالا» أى طبقات الجنة التسع حيث يقيم خليط من

صغار الآلهة والأرواح الطيبة التى عاشت الفضيلة بكل ألوانها ، فكان جزاء إحسانها أن دخلت كل منها فى الطبقة التى تتناسب مع ماقامت به من أعمال فاضلة .

إلى اليمين تتوالى طبقات الرعب الجهنمية المكونة من ١٨ طابقا ، وكل طابق يختلف عن سواه من طبقات جهنم الأخرى ، وتتدرج الطوابق من أعلى إلى أسفل ، وأولها يسمى طابق الجوهرة ، أما الثانى فيسمى طابق السكر والثالث الرمل ، والربع الطين ، والخامس الدخان . . وهكذا حتى نصل إلى أدنى الطوابق حيث الظلمة الكبرى ، الطوابق جميعا تضم غرف الرعب ، وأدنى الآلهة هم الذين ينشغلون دائما بتعذيب الأرواح الشريرة فى هذه الغرف الجهنمية . آلهة التعذيب يتولى بعضهم تحطيم عظام المذنبين ، ويتولى البعض الآخر سلخ لحم المذنبين عن عظامهم ، وهناك آخرون مهمتهم تمزيق أجساد المخطئين وتقطيعها ، وغيرهم يعذبون الضالين بضربهم بالرماح ، بينما آخرون يقومون بفرم لحومهم وشيها بغد تمزيقها بالكلاليب ، غير هؤلاء يوجد حملة السيوف وحملة السهام لطعن الأجساد بعد تعذيبها بمساحيق نارية ، كما يوجد من يغرسون المحكوم عليهم فى الرمال المحرقة ، ومن يقذفونهم بقوة على الصخور ، وهناك من تكون مهمتهم إرغام الأرواح على الجلوس فوق الخوازيق .

فالصينيون يعتقدون بأنه بعد الموت تحاكم جميع الأرواح أمام محكمة الآخرة ، الأرواح الضالة المذنبة تعاقب فى طبقات جهنم التسع وقاعات الرعب بها ، أما الأرواح الخيرة التى ترجح حسناتها سيئاتها فيعاد تناسخها وتولد من جديد فى أجساد بشرية ، بينما الأرواح الشريرة التى ترجح سيئاتها حسناتها فبعد التعذيب تدور بهم عجلات التحويل لتصبح حيوانات وطيورا وزواحف وأنواعا منحطة من المخلوقات !

أخذت مرافقتنا بأيدينا وهى تلفت نظرنا إلى أن كل رذيلة لها عقوبتها المحددة كما تبدو فى مشاهد الجحيم حسب الأحكام التى يصدرها القضاة العشرة .

فالذين يعصون والديهم يكوون بالنار إلى الأبد وتضرب رءوسهم بالحجارة كلما أفاقوا، والكذابون تقطع ألسنتهم وتجدع أنوفهم ويقبض عليهم بالكلاليب ليدفع بهم إلى النيران المستعرة ، والمرتشون من موظفى الحكومة تضرب رؤوسهم بالمطارق حتى

تتحطم جماجمهم لتعاد من جديد ثم يجرى عليها نفس التعذيب مرات ومرات بلا نهاية .

والذين يخونون الشعب والدولة تشق أجسادهم من وسطها وتقطع أيديهم وأرجلهم وتمشى العربات بعجلاتها المسننة فوق رؤوسهم ، أما عقوبة الذين يغشون الدواء ويسخرون من الفقراء ويتملقون الأغنياء على حساب الفقراء فجزاؤهم أن تفقأ عيونهم وتخترق السهام أجسادهم حتى تصبح مثل الغربال ، والذين ارتكبوا جرائم القتل يوضعون فوق صخور مدببة تخترق أجسادهم ، ويعاقب من يقتلون الحيوانات البريئة ويضربونها بأن تلتهمهم حيوانات من نفس الفصيلة التى قتلوها أو عذبوها . . !

وتشير مرافقتنا إلى مشهد من مشاهد محاكمة الرهبان الذين اعتدوا على النساء وهى تقول إن عقوبتهم أن تأمر المحكمة بإلصاق أجسادهم العارية على سطح عمود نحاس ينزلقون عليه صعودا وهبوطا والنار تستعر فى باطنه ، ويظل الزبانية يدفعونهم بالكلاليب كلما هبطوا حتى تذوب لحومهم وعظامهم وجلودهم ، وأما النساء اللاتى قمن بخيانة أزواجهن فتدخل الأسياخ فى فتحات أجسادهن التى فسقن بها ، ومن قتلن أزواجهن يلقى بهن فى صهاريج بها زيت مغلى دون توقف ، أما من نلن ثراء كبيرا فى الدنيا وبخلن على الفقراء فلم يمنحن شيئا من أموالهن فيصب فى أفواههن الذهب والنحاس المصهور حتى تنفجر أجسادهن لتكرر العملية نفسها على قدر ثرائهن ومابخلن به ، وأما الزوجات اللاتى أسأن معاملة أبناء أزواجهن من أخريات أو قمن بتعذيبهم فى الحياة الدنيا فإنهن يعذبن بجذب أثدائهن بالكلاليب حتى تتمزق ثم تقطع أوصالهن بالمناشير والسكاكين المسنونة الحامية . . !

الفصل السادس

فوق قمة تل القصدير

لكى ننسى مشاهد التعذيب فى جهنم وندعو الله ألا تجرى علينا ، أخذتنا مرافقتنا إلى أحد أشهر معالم سنغافورة ، غابة تل القصدير ، التى وصلنا إليها بعد مسيرة نصف ساعة بالسيارة من قلب المدينة .

هناك تذكرنا ماقرأناه عن عالم الطبيعيات «الفريد رمل ولاس » الذى قال منذ أكثر من مائة وعشرين سنة وهو يتحدث عن مغامراته فى الغابة المحيطة بتل القصدير والتى تسمى «بوكيت تيما » : «ضرب سمعنا زئير النمور مرة أو مرتين فى المساء بينما كنا نصطاد الفراشات الملونة بين سيقان الأشجار المستلقية فى الغابة . وغير بعيد منا يستعد ذلك الحيوان المفترس فى انتظار فرصة لينقض علينا» .

نحن إذن نسير فى الغابة المليئة بالنمور . . !

ولكن هذه النمور لم يعد باقيا منها شىء الآن ، بعد أن كانت فى الفترات الماضية تفترس شخصا على الأقل كل يوم ، وخلال عشر سنوات منذ ١٨٦٠ بلغ عدد ضحايا النمور سنويا بين خمسين ومائة رجل من مرتادى التل والمشتغلين على سفوحه ، مما جعل الحكومة ترصد جائزة قدرها مائة دولار لكل من يقتل نمرا ، وكان من حظنا أن جئنا بعد أن قضى الصيادون على نمور الغابة .

فى ذلك الوقت كان «تل القصدير » المغطى بالأشجار والنباتات المتسلقة مرتعا لبلايين الفراشات التى تجتذب جامعى ذلك النوع من الحشرات الرائعة الألوان التى لايوجد مثلها فى أى مكان فى العالم ، الآن لا تزال هناك ملايين من هذه الفراشات التى يبلغ حجم بعضها مايقرب من عصفور صغير ، ويمكن صيدها بسهولة دون خوف من النمور وأشباحها . !

تل القصدير يكاد يكون المكان الوحيد الذى لا تزال تمثل فيه الغابة بشكلها الطبيعى، فقد أصبح منذ عام ١٩٥١ محمية طبيعية كاملة ، دون أن يمنع ذلك من شق طرقات وإقامة مشاريع سياحية على جوانب سفوحه . الغابة قائمة على تل ممن صخور الجرانيت يصل ارتفاعه إلى ١٦٠ مترا . وهى منتجع ومتنزه لأبناء الجزيرة فى عطلاتهم حيث تمتلىء طرقات الغابة بالأسر والأبناء والطلاب وهم يتسلقون الصخور ويرتعون بألعابهم ويتناولون طعامهم الذى يأتون به باردا ومحفوظا دون أن يشعلوا نارا حتى يحافظوا على الغابة وسلامتها ونظافتها وحتى لاتمتد النيران إلى الأشجار الاستوائية الضخمة التى يبلغ عمر بعضها مئات السنين بالرغم من سقوط بعضها على جوانب الغابة واللجوء إلى تقطيع سيقانها وإبقائها فى أماكنها لتكون مرتعا للفراشات والنمال وأعشاشا ومأوى لبعض الحيوانات الصغيرة مثل الفئران والسناجب والأرانب البرية . ولكن إذا أراد أحد الزوار أن يشهد الحياة الوحشية فى الغابة فإن أحسن الأوقات لذلك هو الصباح المبكر أو قبيل الغروب ،ففى تلك الأوقات يمكن مشاهدة الأصلة والثعابين والزواحف الضخمة ، كما يمكن رؤية حيوانات الليمور من فصيلة القردة طويلة الذيل، وهى تتقافز بين أغصان الأشجار وكأنها ثعالب طائرة .

● قفزة اقتصادية هائلة

الأشجار والخضرة هى بعض مصادر الصناعة والزراعة والاقتصاد فى سنغافورة ، وبالرغم من أن أقل من ربع مساحة الأراضى تحت الاستصلاح إلا أن الرقعة الزراعية وماتنتجه من فواكه وخضروات ومطاط تمثل حوالى ٢٪ من الإنتاج العام ، وبالرغم من أن سنغافورة ليست دولة منتجة للبترول إلا أن البترول يلعب دورا هاما فى اقتصادها حيث يوجد لديها ثالث أكبر مجمع لتكرير البترول فى العالم ، كما أن هناك حوضا كبيرا لإصلاح السفن .

وسنغافورة من الأمثلة الحية على مواجهة الفقر عن طريق البناء الصناعى ، فقد نجحت فى إقامة مجتمع خال من الفقر ، واستطاع الاقتصاد السنغافورى أخيرا وخاصة منذ ١٩٩١ فى أن يختط مسارا صحيحا متميزا ، وماحققته البلاد فى معدل النمو الذى بلغ ٢,٧٪ فى النصف الأول من العام التالى تجاوز كل التقديرات الحذرة وفى السنوات

الأخيرة تدفقت على سنغافورة ٣٤٠٠ شركة ومؤسسة أجنبية تشمل كافة مجالات الاستثمار الصناعى والتجارى . وكان الأمريكيون هم السباقون ثم تبعهم اليابانيون وأخيرا البريطانيون .

وقد شهدت الشهور الستة الأولى من العام الماضى خلق حوالى ٢٢ ألف فرصة عمل بالرغم من فقد ٧٥٠٠ فرصة عمل فى مجال البناء مقارنة بحوالى ١١ ألف فرصة عمل فى عام ١٩٨٦ .

وقد نجحت الحكومة إلى مدى بعيد فيما قامت به من تخفيض للضرائب والمساهمات الإجبارية والفوائد والإيجارات وإصلاح مستوى الأجور فى العامين الأخيرين ،وكان لسياسة إصلاح الأجور الجديدة آثارها الواضحة فى تحسين أعمال التصدير ، وربما طرأ انفتاح أكثر فى هذه السياسة هذا العام حيث إن الاتحادات العمالية تنادى بمكافآت إضافية للأجور كما تتوقع الحكومة أن تزيد المساهمات الإجبارية للدولة فى المدى البعيد.

وقد وصل التصدير إلى ماقيمته ٢٧ بليون دولار فى النصف الأول من عام ١٩٨٨ بفضل القفزة العالية فى مجالات التصنيع المرتبطة بالزيادة فى الحاجة العالمية لها ، ولعله مما ساعد على رخص المنتجات المحلية ضعف الدولار السنغافورى مقارنا بالدولار الأمريكى والعملات الأوروبية الأخرى ، كما استفاد الاقتصاد من مساهمات الين اليابانى فى النشاط الاستثمارى الذى أصبح واضحا فى السنوات الأخيرة عندما ساهم اليابانيون فى تصنيع منتجاتهم لسنغافورة وتصديرها

وتصدرت قائمة التصدير الالكترونيات والملابس بنسبة ٢٨٪من مجموع الصادرات، بينما جاءت البتروكيماويات بنسبة تتراوح بين ١١٪ و٢٢٪ . ومع بلوغ استيراد المواد الخام ٣١ بليون دولار يصل رقم التجارة الإجمالى إلى ٥٨ بليون دولار أمريكى ، وازداد الطلب على المنتجات السنغافورية خاصة فى الولايات المتحدة وأوربا وشمال وجنوب وشرق آسيا . وقد امتد الإصلاح بصفة أساسية إلى ميادين التصنيع والنقل والاتصالات، فقد أنشئت مشروعات للإلكترونات والصناعات الكيماوية والمعدنية والآلات ، وحلت اليابان محل الولايات المتحدة حيث وصلت استثماراتها فى

العام الماضى إلى ٤٩٠ مليون دولار أمريكى معظمها فى مجال الإلكترونيات والأجهزة الكهربائية والتجهيزات المكتبية .

• القراصنة الجدد

أدركنا مدى الازدهار الاقتصادى فى سنغافورة من خلال وجوه أبناء الشعب المتفتحة المتفائلة المستبشرة ، ومن الحركة الدائبة فى المحلات التجارية المتخمة بالمنتجات الصناعية والزراعية بالإضافة إلى زخم السائحين الذين يملأون الشوارع والأسواق والفنادق والمعالم السياحية فى كل مكان . كما يبرز ذلك لمن يتابع حركة الترانزيت الجوى والبحرى الواضحة من المطار الضخم البالغ الأناقة والنظافة والعامر بالمغادرين والقادمين من جميع أنحاء العالم والذين يعدون بعشرات الآلاف كل يوم . وبدا لنا التطور من خلال حركة البواخر والسفن وأعمال الشحن والتفريغ الدائمة فى الميناء الكبير الذى أصبح يتفوق على ميناء روتردام أكبر الموانى ازدحاما فى العالم .

ولعل ازدهار حركة الشحن والنقل بالسفن كان وراء تعرضها لبعض السلبيات من خلال قراصنة من نوع جديد أغرتهم الزيادة الكبيرة فى البضائع وهى تمر أمام شواطىء سنغافورة . سمعنا هذا من أحد مسئولى الشحن فى الميناء . قال إن القراصنة الجدد غيروا أساليب أسلافهم السابقين ،فهم لا يهاجمون السفن الكبيرة العابرة للقارات ، ولكنهم يهاجمون السفن الصغيرة المليئة بالواردات ، وبدلا من استخدام المدافع والبنادق أصبحوا يستخدمون السكاكين والمدى لتهديد بحارة السفن وعمالها حتى يستولوا على كل ماهو ثمين من البضائع أو الأموال من شحناتها .

بل إن بعض هؤلاء القراصنة لا يمتنعون عن مهاجمة البواخر الكبيرة بما فيها ناقلات البترول واحتجاز قباطنتها تحت تهديد السلاح مما جعل الشرطة والقوات البحرية تكثف دورياتها جنوب سنغافورة وقرب حزب باتام الاندونيسية لتوفير الأمان للسفن العابرة للمحيطات .

الغريب هنا أن بعض القراصنة الجدد ـ ويبدو أنهم مازالوا تحت التدريب ـ يهاجمون حتى مراكب الصيد ، وقد حكى لنا أحد الصيادين من المسلمين أنه وزوجته كانا

يقومان بالصيد قرب جزيرة باواى عندما باغتهما زورق بخارى به ستة قراصنة اتجهوا نحوهما وادعوا أنهم يريدون وقودا أو مالا يشترون به الوقود . وشهر أحدهم مدية طويلة وهو يحاول القفز على مركب الصيد ، ولكن زوجته رفعت مجدافها وضربت القرصان على رأسه فسقط داخل الزورق ، وأخذ الصياد مجدافه وضرب قرصانا آخر فأسقطه فى الماء ، وبينما كان القراصنة الآخرون يعملون على إنقاذ زميلهم من الماء أدار الصياد محرك قاربه واتجه بسرعة نحو الشاطىء .

بصرف النظر عن هذه السلبيات فإن النمو الاقتصادى يتضح فى انتعاش القطاعين المالى والمصرفى اللذين تخلصا من العثرة المؤقتة التى مرا بها فى بداية ١٩٨٦ مع ظهور إنجازات القطاعين التى حققت أفضل النتائج بنسبة تتجاوز ٦٥٪ عنها فى الفترات السابقة ، بالإضافة إلى الموارد الضخمة التى بدأ القطاع السياحى يضخها من خلال النشاط الواسع لاجتذاب السائحين من جميع أنحاء العالم ، بما يقدم من إنجازات وتسهيلات وتطوير للمعالم السياحية والفندقية والثقافية والفنية فى البلاد .

● المركز الاقتصادى الرئيسى

استطعنا متابعة معالم الازدهار الاقتصادى ونحن نخترق المركز الرئيسى الحديث للمدينة الذى يسمى «أوركارد رود » فلقد تجاوزت شهرته شهرة الشانزليزيه فى باريس ، والشارع الخامس فى نيويورك ، وإكسفورد فى لندن . على الجانبين ناطحات السحاب بفنادقها الفاخرة وأضوائها المشعة ، وبمسارحها ودور السينما فيها ، وبمعارضها الفنية ، والأهم من ذلك بمجمعاتها الضخمة الحديثة ذات الطوابق التى يصل أكثرها إلى عشرة طوابق ، عامرة كلها بالمنتجات المحلية والمستوردة ، حيث يباع كل شىء بأرخص الأسعار ، فى محلاتها التى يتجاوز عددها ألف محل ، كما شهدنا فى أسواق «لاكى بلازا » و «تانجلين » و « منجاتونج » .ولاتقتصر المحلات على البضائع المعروضة للبيع فإن هناك أيضا ملاعب للأطفال وحدائق داخلية وساحات للراحة ونافورات ومطاعم للبيتزا والكونتاكى والهامبورجر ، وكافتيريات بل ومعارض للسيارات ومكاتب للسياحة والسفر والتصوير .

كذلك فإنك فى الشوارع الجانبية المتفرعة من «أوركاردرود» تستطيع أن تساوم فى الأسعار حتى وأنت تشترى أغلى الأشياء من الخواتم الماسية ذات الأحجار الكريمة التى يتجاوز سعرها عشرة آلاف دولار ، إلى الساعات التى تعلن بطاقات أثمانها أنها لاتقل عن عشرين ألف دولار ، وتستطيع أيضا أن تجد البدلة الفاخرة التى يصل ثمنها إلى ألفى دولار ، والجاكيت الذى يقل ثمنه عن خمسة دولارات ، هنا تتراقص أمام عينيك كل أنواع البضائع التى رأيتها من قبل أو التى لم تر مثلها أبدا ، من واردات انجلترا وفرنسا وأمريكا واليابان وألمانيا ، وحتى الحرير التايلندى والبورسلين الصينى والكريستوفل الفضى وتماثيل بوذا الذهبية والسجاجيد العتيقة والقطع الأثرية والفنية التى تمثل كل حضارات العالمين القديم والحديث .

ومع ذلك فما تزال هناك خطط حكومية مستقبلية لمزيد من التطوير والتوسيع «لاوركارد رود» المركز التجارى السياحى الرئيسى الضخم الذى ينتظر أن يشمل مع بداية القرن القادم كل حدود سنغافورة «مدينة الأسد » . . !

● أنظف مدن العالم

ومن أجل مزيد من جعل المدينة قمة لامثيل لها من قمم الفخامة والنظافة والأناقة والتنظيم بين مدن العالم الكبرى ، صدرت قوانين صارمة لمعاقبة كل من يسىء إلى الصورة المتألقة للمدينة ، وأقامت الحكومة «خطا ساخنا » لتلقى شكاوى الجمهور ضد المؤسسات التجارية والمطاعم التى تتسبب فى وجود أى نفايات أو مخلفات سواء فى داخلها أو خارجها ، ويواجه المخالفون أحكاما تفرض غرامات باهظة يمكن أن تصل إلى إغلاق المؤسسة بضعة أيام مع التنديد علنا بمخالفاتهم .

وقد اتخذت حكومة «لى كوان يو » إجراءات حازمة يقابلها حوافز تشجيعية لدفع الجماهير إلى التصرف بانضباط وبروح من المسئولية ، فى مجالات التطور والصحة والنظافة وقد أدت الحملات الدعائية المستمرة إلى امتناع أغلبية الناس عن التدخين وإلقاء المهملات خارج البيوت أو على الأرصفة ، كما اهتمت بتوعيتهم لتنظيم النسل سواء بالإكثار أو الإقلال من الإنجاب طبقا للظروف ويدخل فى ذلك تخفيض

الضرائب عن المستجيبين للدعوات التنظيمية . ومن أكثر ما لفت نظرنا بعد أن أثارت مرافقتنا انتباهنا أن السلطات قد وضعت كاميرات فيديو خفية داخل مصاعد المبانى من أجل الحفاظ على نظافة العمارات السكنية ، وتتصل هذه الكاميرات بأجهزة إلكترونية تؤدى إلى توقف المصاعد إذا ارتكب أحد مخالفة للنظافة بداخلها مع ضبط المخالفين بالصوت والصورة ، وخاصة أن هذه الأجهزة حساسة جدا لمياه التبول بالذات . وفى حالة حدوث ذلك فإن المخالف يظل محبوسا داخل المصعد دون أن يفتح بابه حتى حضور مسئول يفتح له الباب بعد أن يحصل منه الغرامة التى بدأ تطبيقها ابتداء من يونيو الماضى ، وهى تصل إلى ألف دولار سنغافورى (٥٠٠ دولار أمريكى) وتتضاعف الغرامة لمن تتكرر منه المخالفة وكذلك لمن ينسى تشغيل آلة التنظيف فى المراحيض العامة حيث يقوم مسئولون من دائرة الصحة بالتفتيش على الحمامات العامة للتأكد من نظافتها كما يتم تكليف صحفيين بالقيام بجولات مستمرة لاكتشاف دورات المياه البعيدة عن النظافة حيث توضع فى «قائمة العار» التى تنشر علنا فى الصحف كما تعلن أسماء الأفراد الذين يتسببون فى قذارة الحمامات فى القائمة السوداء .

● الأزمة السكانية

أول مايتبادر إلى الذهن عند ذكر أزمة سكانية فى إحدى الدول الآسيوية ، هو الزيادة فى تعداد السكان التى تعانى منها الكثير من بلدان العالم النامى حيث تلتهم الزيادة المضطردة دائما الإنجازات المتواضعة لخطط التنمية الاقتصادية . وتكاد تكون هذه المشكلة هى القاسم المشترك فى كثير من البلدان إلا سنغافورة . . فالحال هنا مقلوب تماما . فالأزمة ليست فى الزيادة وإنما فى نقص معدلات النمو السكانى بسبب انخفاض معدل المواليد . وتلك قصة كانت طوال السنوات الأخيرة محل اهتمام وأحيانا محل مزايدات بين الأحزاب السياسية .

رئيس الوزراء «لى كوان يو » ظن أنه عثر على الحل الذهبى للمشكلة حين اقترح على أبناء شعبه شيئا مثيرا . . تعدد الزوجات . لكن اقتراحه لاقى رفضا واسعا من شعب يتمتع بهامش كبير من الحرية ، ويرفض أن ينظم له أحد مهما كان أسلوب حياته على المستوى الاجتماعى . .

● وفشل المشروع ولم يرالنور

والحقيقة أن هناك أزمة مستعصية فى المسألة الزوجية وهى بالتالى أحد أسباب انخفاض معدل الزيادة السكانية . هل هى أزمة سكنى كا فى بعض بلدان العالم الثالث ؟ هل هى أزمة مالية اى احتياجات مادية كالمهور وتكاليف الزواج ؟ الإجابة بالنفى . . فالمسألة مختلفة تماما . . !

إن الغالبية العظمى من قوة العمل فى سنغافورة والتى تأتى من الصين تتركز فى مجالات الصناعة والاستثمار ، وهو أمر طبيعى إذا أخذنا فى الاعتبار أن برامج التعليم الحكومية تركز على مجالات العلوم الطبيعية والتقنية والتكنولوجية فى مقابل انخفاض فى نسبة البرامج المخصصة للعلوم الإنسانية والفنون والآداب . . وقد أدى هذا إلى أن الفتيات خريجات الجامعات يجدن صعوبة فى العثور على الزوج المناسب ، فهن لايقبلن إلا بزوج فى نفس مستوى التعليم ، وبالتالى الدخل . ومن ناحية أخرى فالرجال من الخريجين يفضلون الزواج من نساء أقل منهن تعليما ودخلا حتى يظل الرجل محتفظا بالسيطرة داخل البيت وخارجه . وقد أدى هذا إلى ارتفاع نسبة غير المتزوجات من المتعلمات . ومن الطريف أن رئيس الوزراء نفسه لم ينج من هذه الأزمة ، فابنته طبيبة تجاوزت الثالثة والثلاثين من عمرها ولم تتزوج بعد حتى الآن ... !

● نادى القلوب الوحيدة !

الشباب فى سنغافورة أطلقوا اسم نادى القلوب الوحيدة تندرا إلى مايسمى «وحدة التطوير الاجتماعى » وهى باختصار وكالة حكومية للتزويج تعتمد على أحدث وسائل برمجة المعلومات بالعقول الإلكترونية ، وذلك لتوفيق رؤوس البنين والبنات فى الحلال كما يقول المثل

المكتب يقدم تسهيلات وإغراءات متعددة لإقناع وجذب الراغبين فى تجربة حظهم فى التعرف على نصفهم الحلو ، لعل الأمر ينتهى بسقوطهم داخل القفص الذهبى . ومن بين هذه الوسائل مثلا تنظيم رحلات بحرية مجانية لمنتجعات سياحية أو بلدان أخرى مثل هونج كونج وتفيد التقارير الحكومية أن عمل الوكالة يبشر بنتائج مشجعة

حيث أخذ معدل سن الزواج فى الانخفاض إلى درجة لم يكن يحلم بها أحد . فالشباب والشابات فى سن مابين الثامنة عشرة إلى العشرين ، أى بعد حصوله على مايعادل شهادة الثانوية العامة التى تؤهل للالتحاق بالجامعة أخذوا يقدمون على الزواج .

ويعلق البعض على هذه النتائج قائلا بأن استراتيجية الحكومة من وراء هذه الوكالة كانت ببساطة «دفع الشباب إلى الزواج قبل أن يكملوا مراحل تعليمهم العليا » حيث تبدأ مشكلة وضع الشروط والمتطلبات بشأن شريك الحياة التى غالبا ما يصعب تحقيقها . وإلى حد كبير يعتبر هذا تفسيرا مقنعا لسياسة الحكومة الزواجية ، لأن المشاهد بالفعل أن الكثيرين من خريجات الجامعة مدفوعات بطموح النجاح وبناء مستقبل مهنى وكيان مستقل ماديا واجتماعيا ، يقررن تأجيل مشروع الزواج إلى حين . وحيث إن العريس ليس متوفرا ـ بشروطهن ـ غالبا فإن الانتظار يطول . ومع الصعود فى سلم النجاح الاجتماعى والمهنى تزداد المسألة تعقيدا ، والعمر يجرى دون حل منظور ، ودون استعداد من جانب بنات حواء لتقديم تنازلات بعد كل هذا الانتظار .

المحصلة النهائية : مشكلة قومية . . تهدد نمو اقتصاد سنغافورة ورفاهية شعبها ، هذا بالطبع دون أن ننسى أعراض المشكلة الاجتماعية ، أى صاحبات القلوب الوحيدة الحزينة فمن فاتهن قطار الزواج الذى يبدو أنه لايفرق بين بنت الوزير وبنت الغفير . على الأقل فى سنغافورة . . !

وعلى الرغم من ذلك فهناك من ينتقدون الحكومة بشدة لأنها كانت السبب الأول فى المشكلة التى تعد إفرازا طبيعيا لسياسة ضبط وتحديد معدل السكان التى اتبعت فى السبعينيات . حيث قدمت الحكومة برنامجا لتنظيم النسل اسمه « اكتف بطفلين » . وقد ووجه هذا البرنامج بهجوم حاد من رجال الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى سنغافورة خاصة حين ذهبت الحكومة لأبعد من ذلك ، وأخذت تقدم إغراءات للشباب من الطبقات محدودة التعليم للموافقة على إجراء تعقيم . من بين هذه الإغراءات على سبيل المثال شقة ومبلغ عشرة آلاف دولار لمن يقبل بالتعقيم . اليوم تأتى الحكومة كما يقول المعارضون لترفع لنا شعارا آخر : «ثلاثة أطفال . . ليس لدينا مانع . . بل وأربعة إن لم يكن لديك أنت مانع » . . !

وهكذا تجد نفس الحكومة . . حكومة حزب العمال الحاكم الآن والتى شجعت مواطنيها على الحد من النسل ، تأتى الآن لتحرضهم على الإنجاب . . !وحتى إذا حدث تغيير فى الحكومة فيبدو أن النغمة الجديدة ستكون « تزاوجوا تناسلوا » من أجل رفاهية سنغافورة . . !

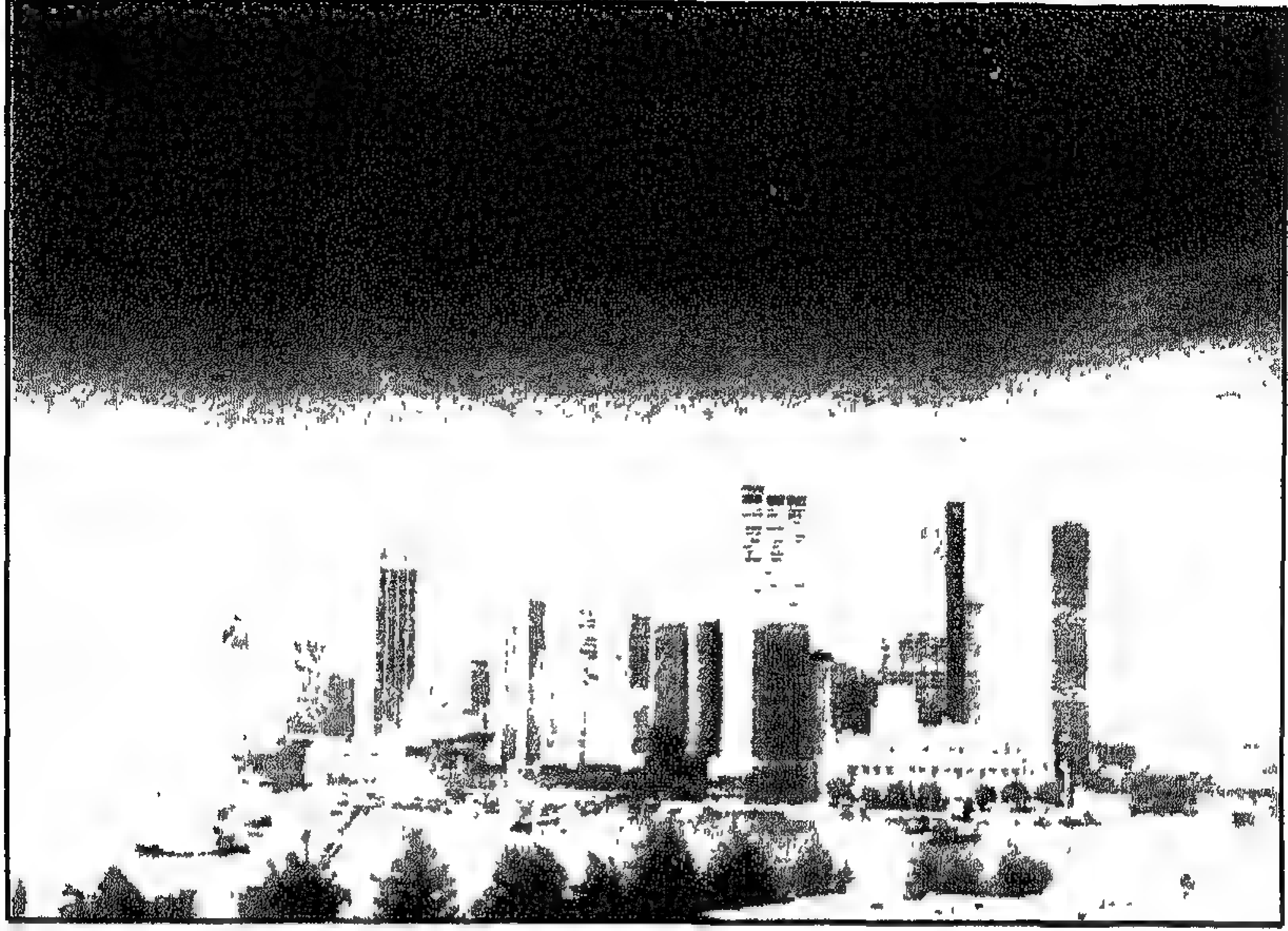
● المعادلة الصعبة

منذ قرن من الزمان كانت شوارع سنغافورة تحتشد بكرنفال بالألوان . عباءات من الحرير والستان المطرز بلون الذهب من الموسلين الأبيض . . جماعات وأسراب من العرب والأتراك تجوب الشوراع والأسواق متباهين بملابسهم من الحرير الأسود . تجار من بومباى يرتدون العمائم التى تزينها الأحجار الكريمة وآخرون من السيخ ومن الصين . هذا بالطبع إلى جانب المستعمرين من أبناء الانجلو ساكسون . . أولئك كانوا يشكلون أهم معالم الصورة فى شوارع سنغافورة وظلت الصورة حتى خمسين عاما مضت حين استسلم الإنجليز تاركين البلد فى يد اليابانيين المستعمرين الجدد وأرسل الجنرال اليابانى ياما شيتا الآلاف من أعوانه من أبناء البلاد ليعانوا العذاب حتى الموت فى سجن شانجى . ولكن الإنجليز استردوا غنيمتهم ثانية . وفى الخمسينيات والسيتنيات بدأت رحلة سنغافورة نحو التحديث والمدنية حتى جاء جيل أكثر طموحا تحولت البلاد على أيديهم من منتجع فى ركن منزو من العالم إلى دولة صناعية حديثة وعمت معالم المدينة فى كل شيء وأصبح أهلها يفخرون بارتفاع مستوى المعيشة على نحو يحسده عليهم عشرات الدول النامية الأخرى .

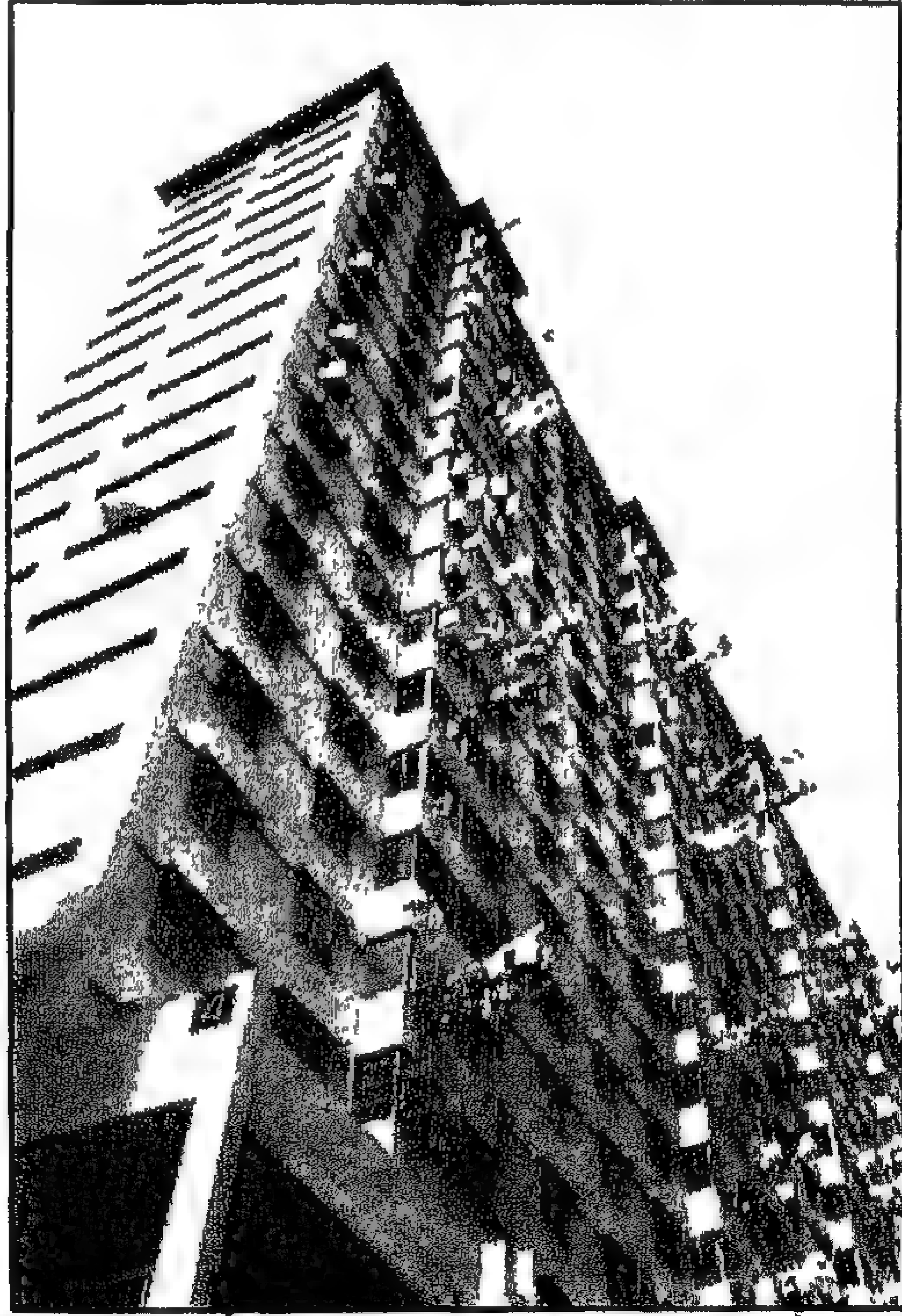
ولكن بقيت مشكلة سنغافورية وهى أن . الناس بدأوا يحسون أن بلدهم أصبحت مملة . والحقيقة أن سنغافورة حققت هذا التقدم على حساب أشياء كثيرة وهى معادلة صعبة بالطبع . لأن التحديث يتطلب إيقاع حياة مختلفا تماما . لقد أصبحت سنغافورة منظمة . جدا . منضبطة لأقصى درجة . ولو ذهبت إلى أى مكان كمتنزه عام سوف تجد ملصقات تخبرك عن قائمة طويلة من الممنوعات والمحظورات . فعلى سبيل المثال لا الحصر محظور على سائقى التاكسى تشغيل أجهزة الراديو أو الكاسيت فى سياراتهم أثناء عملهم فى نقل الزبائن . . وغير ذلك ممنوعات مماثلة من أنواع مختلفة .

وبدأت الحكومة تدرس إمكانية إزالة الملل من الناس ، فرصدت بليونا من الدولارات لتعيد إحياء وتجديد الوجه الأصيل للوطن . كل المشروعات ذات طبيعة سياحية ، لا للسياح فحسب ، بل لأهل البلد نفسه . وعلى ذلك يتم تجديد الشواطىء وتحديثها واسترداد طابعها الخاص لتصبح أكثر سحرا . وقد تم إعادة تسيير رحلات القوارب والمراكب المصنوعة من خشب البامبو فى رحلات سياحية تجوب نهر سنغافورة فى جماعات أو للأزواج ذوى النزعات الرومانسية . وكل الملايين المرصودة سوف توظف جميعا لتحويل سنغافورة إلى جزيرة السحر الشرقية كما كانت دائما . . وتلك خصوصية سوف تنفرد بها سنغافورة كما يقولون . . فهى بلد متمدن جدا . . ولكنه شرقى جدا أيضا ...

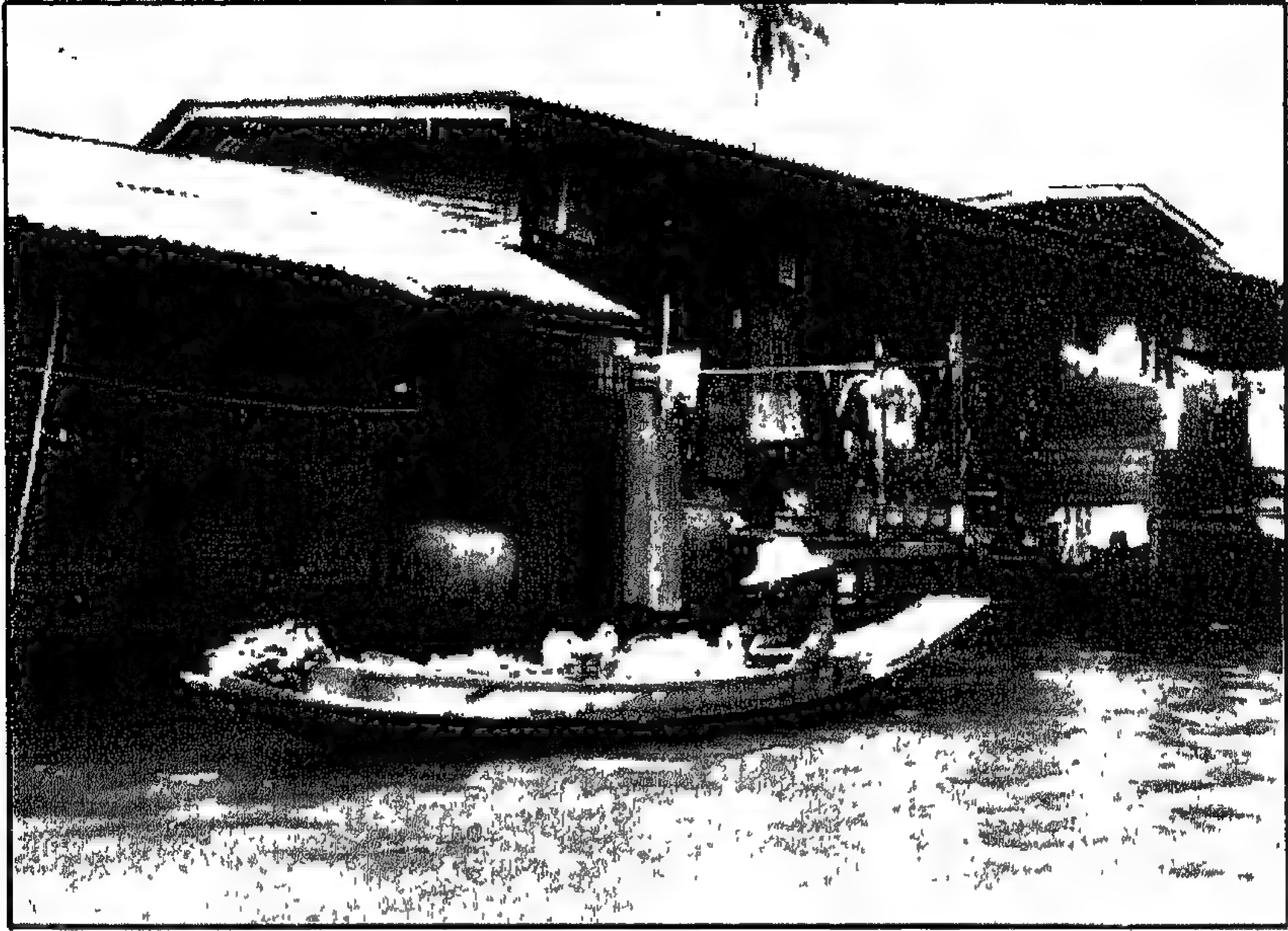
إن سنغافورة تصر على الاحتفاظ بصورتها المتألقة كمدينة متطورة تمثل المرتبة الأولى فى العالم من حيث النظافة والأناقة ، وهى تسعى جاهدة لتصبح مركزا ماليا وحضاريا رئيسيا فى آسيا . مركزا يتحدث عنه الجميع .



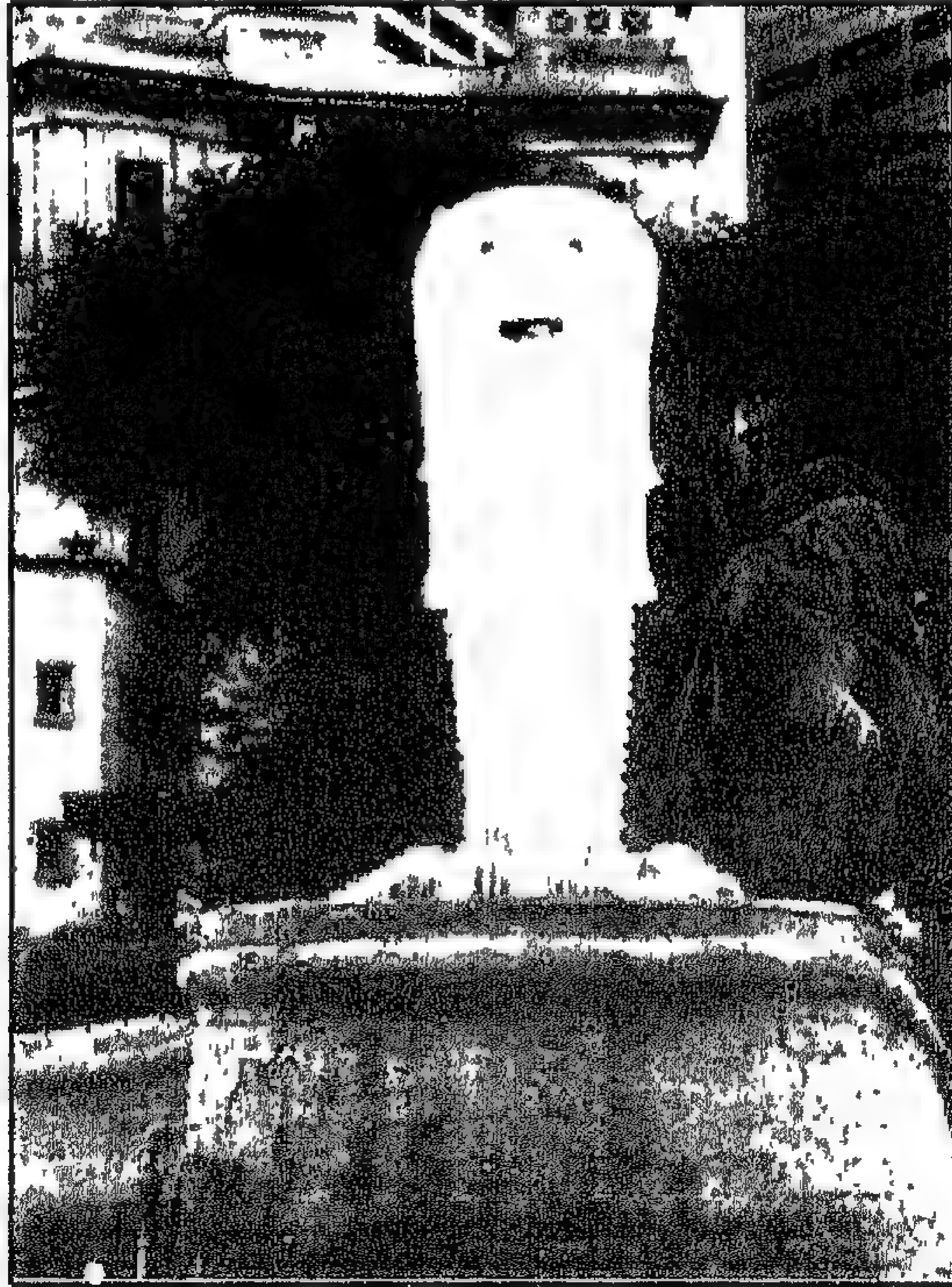
ناطحات السحاب فى كل الشوارع والطرق فى سنغافورة للتغلب على ضيق مساحة الأرض .



المساكن الشعبية وتجفيف الملابس فى الشرفات



قارب بيع الخضراوات والفواكه . . والسكان يشترون وهم داخل أكواخهم



مدينة الأسد . . هكذا يسمون سنغافورة . . وهذا هو رمزها .

برج المعبد الهندوسي الرئيسي [illegible]

[illegible] داخل المعبد الهندوسي



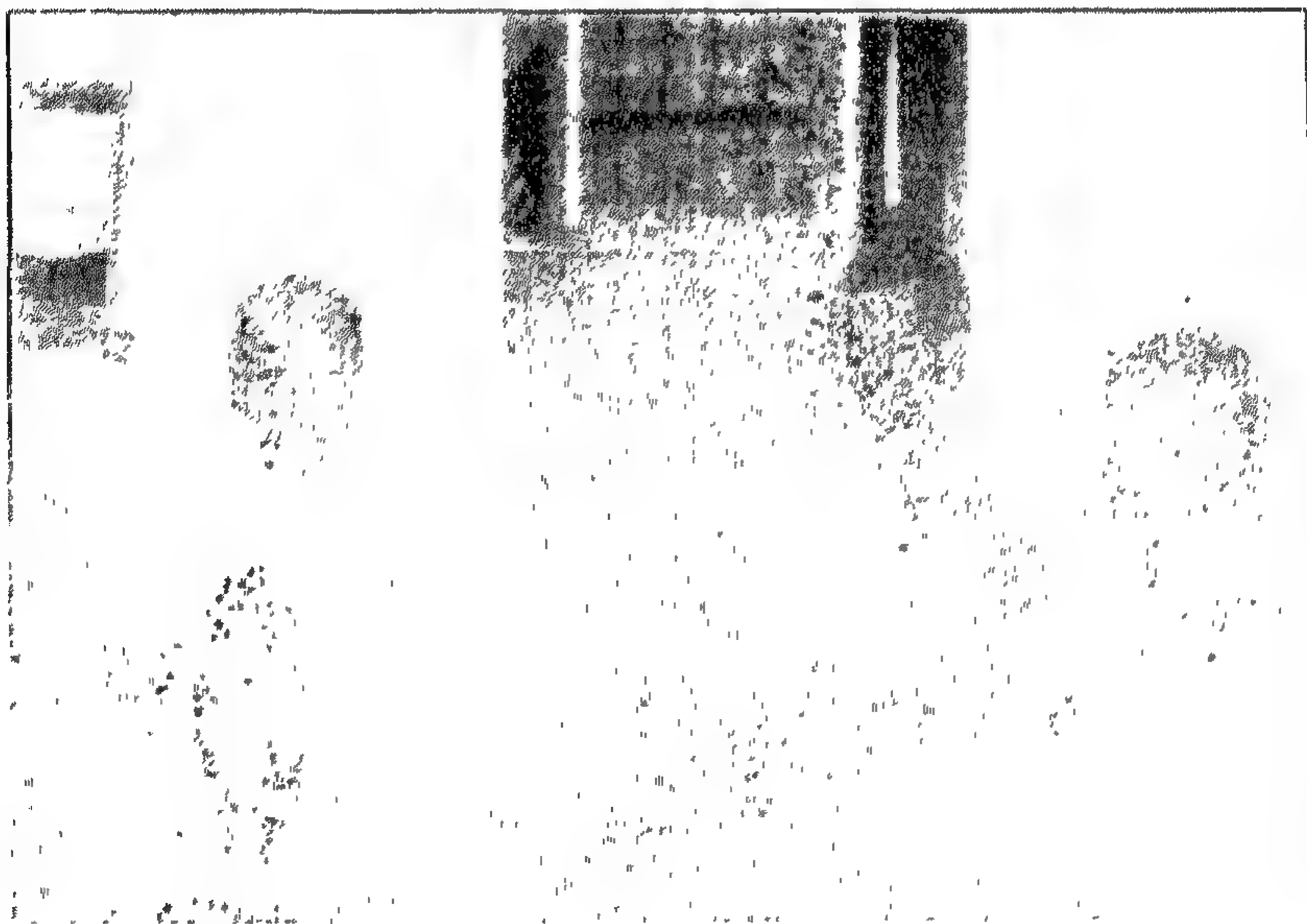
هدايا العرائس والشموع على باب المعبد



مقدم الفرسان [illegible] يردد إحدى الصلوات [illegible] في معبد الداودية .. في أرض العجائب والمتناقضات



الشيخ يتقدم المصلين داخل [illegible]





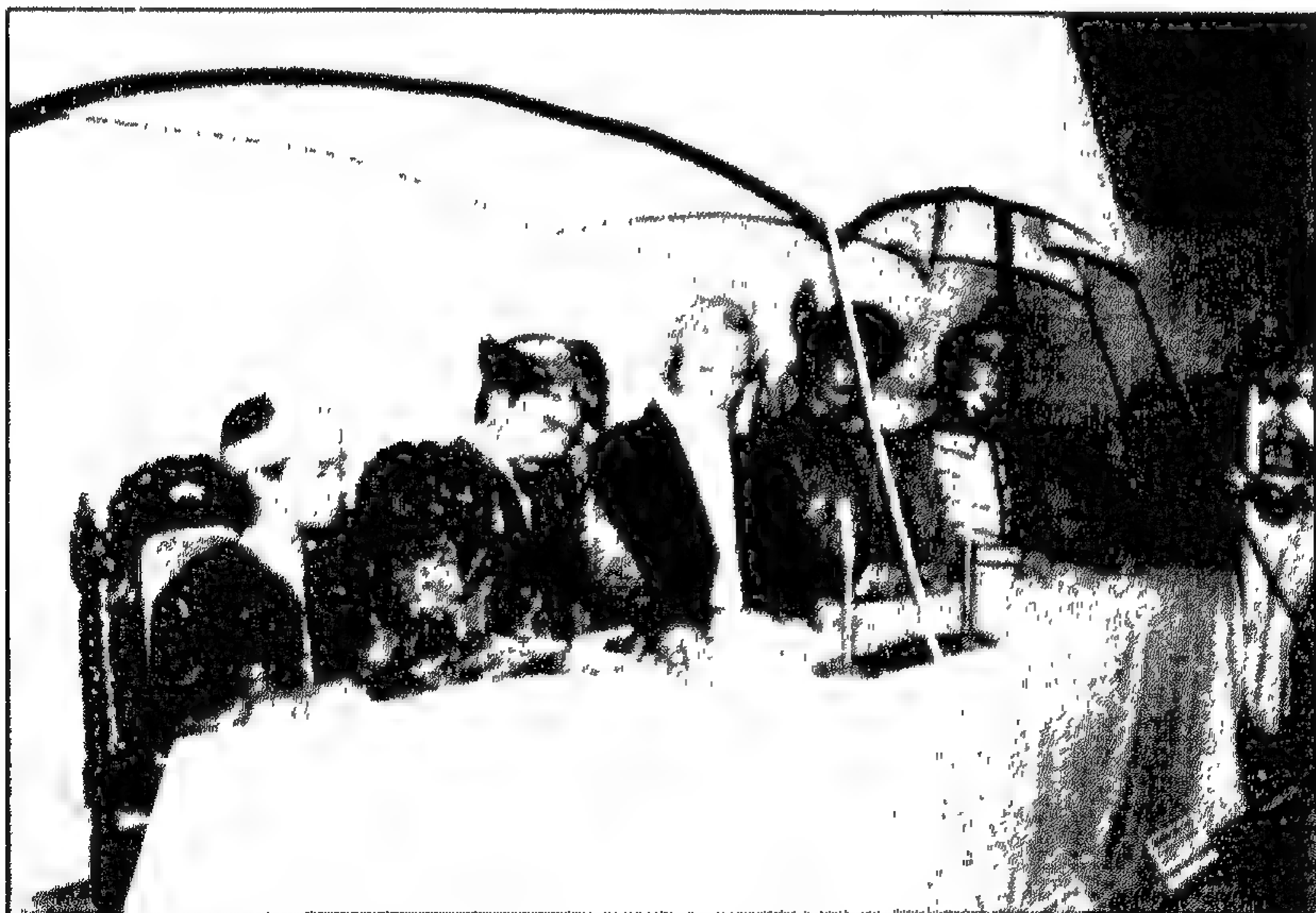
١ - إنه العاشق «الإنسان» أوران «يأكل الفاكهة على المائدة مع السائحين والزوار



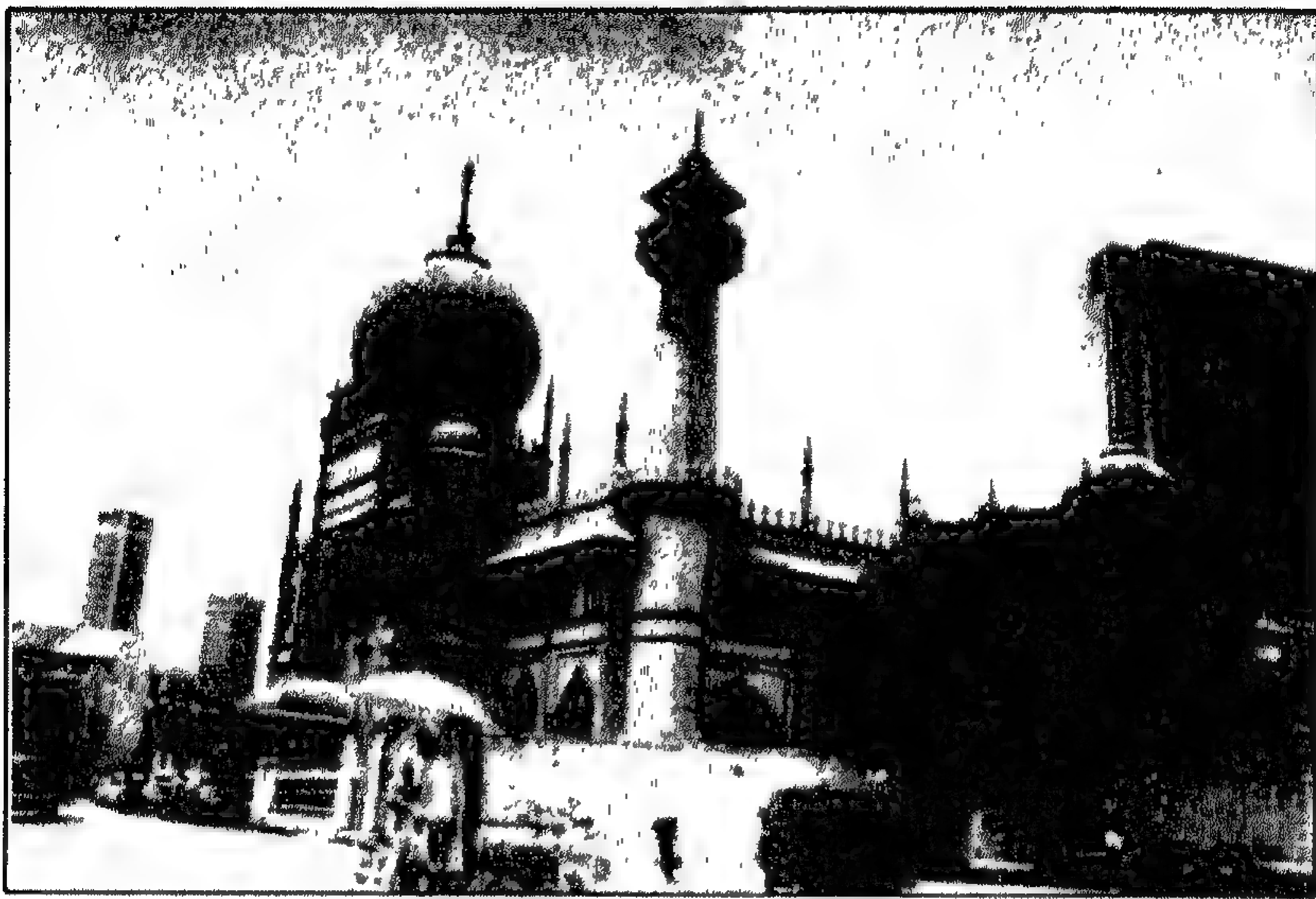
الرقص من الفقرات المستحبة من العروض التي تقدم في الحفلات



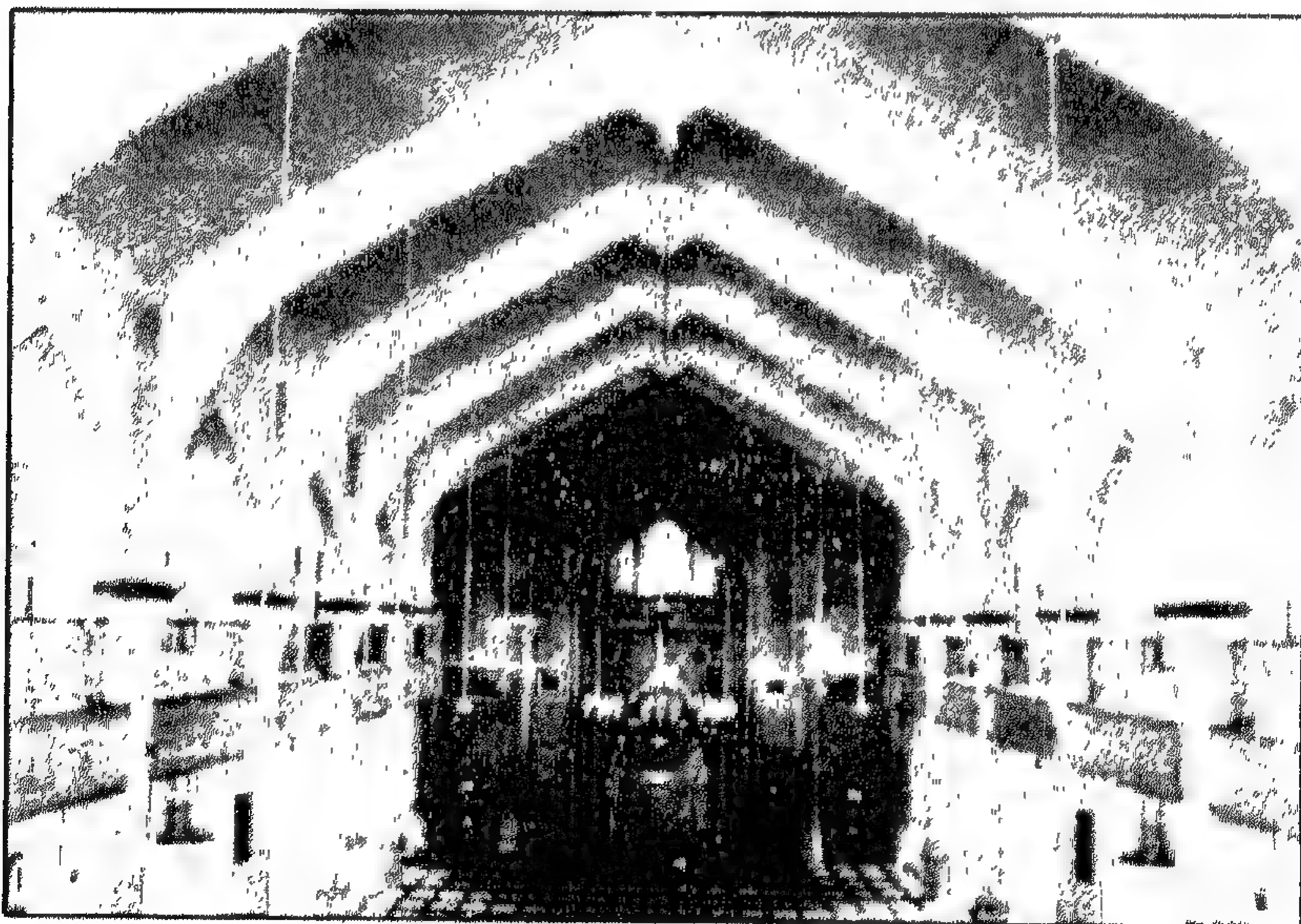
وترصد الكاميرا والثعبان يخرج من السلة



في مطعم المسرح [illegible]



مسجد السلطان اجمل مساجد سنغافورة



صحن مسجد السلطان بعمارته الإسلامية الرائعة

الباب الثالث

تايـــــوان
الجميلة لم تعد عذراء

الفصل الأول
عالم المهرجانات فى تايوان

حين نزل المستعمرون البرتغاليون عام ١٥٩٠ على ساحل الجزيرة . . تصايحوا فى إعجاب «أوه . . فورموزا . . فورموزا » وكانوا يعنون بلغتهم البرتغالية « الجزيرة الجميلة العذراء » !

لكن «تايوان » الجميلة . . لم تعد عذراء ، بعد أن حملت فى أحشائها شعبا جديدا ، آباؤه من المضطهدين والنازحين والمهاجرين والمطاردين والصيادين والقراصنة ، وجدوا فى أعماقها موئلا طيبا ومستقرا خصبا .

ونما الشعب الوليد ليصبح تنينا عملاقا جسده أسطورى ، وقلبه صينى ، وعروقه يغذيها دم من كل لون ، وراح يبنى لنفسه مستقبلا واعدا عامرا بالآمال ، طوع له كل مايملك من قدرة على الإبداع ، ليصنع مايشبه المعجزات !

قالت لنا وهى تنتقى كلماتها بالعربية الفصحى فى لكنة صينية محببة : لا تستغربوا ، فقد غيّر أساتذتى اسمى الصينى فى الكلية إلى «عواطف الدؤلى » . . فهم يرون أننى أستحق الانتساب إلى العلامة النحوى اللغوى « أبو الأسود الدؤلى لحرصى على النحو والصرف والنطق بلسان عربى سليم . .

وكانت بالفعل تجيد الحديث بالعربية تماما كواحدة من بناتها ، كما كانت تستخدم الكثير من الأحاديث الشريفة والآيات القرآنية ، وتضعها فى أماكنها الصحيحة ، رغم أنها لم تدخل الإسلام إلا حديثا ، بعد أن تنقلت فى سنها الذى لم يتجاوز العشرين ، بين الفلسفة الكونفوشيوسية والعقيدة البوذية ، حتى اختارت الإسلام لغة القرآن عن إيمان واقتناع .

ولم نستغرب ذلك كثيرا . فقد التقينا فى تايوان بمسلمين كثيرين يتحدثون العربية بطلاقة ، كان من بينهم مرافقنا موسى وزميله عثمان اللذان انطلقا بنا فور وصولنا إلى العاصمة « تايبيه » لنشهد المهرجان الكرنفالى الكبير فى الساحة الكبرى للقصر الجمهورى ، حيث كانت تزخر بالأعلام الحمراء واللافتات زاهية الألوان ، والزينات البديعة الرائعة ، بينما الجميع مستغرقون فى رقص وغناء على أنغام الموسيقا التى تشدو فتملأ الأجواء وتبعث المرح والبهجة فى القلوب .

وكانت المناسبة هى اليوم الوطنى الذى يحتفلون فيه احتفالا مزدوجا بإزاحة حكم أباطرة « المانشو » فى ١٠ اكتوبر ١٩١١ ، وبإعلان الدكتور « صن يات سين » قيام جمهورية الصين الوطنية فى أول يناير عام ١٩١٢ فى الأرض الأم ، على أساس المبادىء الثلاثة للشعب : « القومية والديمقراطية ، والرفاهية الاجتماعية » وهى المبادىء التى حملها معه « شيانج كاى شيك » وأنصاره ورجال » الكومنتانج » حين اضطروا للانتقال إلى عاصمتهم الجديدة « تايبيه» ، بعد أن سيطر النظام المناهض له على الوطن ، الأم وبدأوا يصنعون المستقبل الجديد فى الموطن الجديد . . تايوان .

● جزيرة الكرنفالات

اسم « تايوان » لم يعد غريبا على آذان الكثيرين منذ أغرقت أسواق العالم منتجات صناعية من كل لون وبمختلف الأشكال وأقل الأسعار ، تحمل العلامة التجارية للصين الوطنية . ولكن أغلب الذين سمعوا وعرفوا قد لايتصورون أن تايوان ليست أكثر من جزيرة يبلغ طولها ٣٩٤ كم وعرضها فى أكثر مناطقها اتساعا ١٤٤ كم ، يسكنها هى وتوابعها أقل من عشرين مليون نسمة ، ولا تزيد نسبة مساحتها عن ٤ فى الألف من مساحة الصين الأم . . ثالث أكبر دولة فى العالم مساحة ، وصاحبة أكبر عدد من السكان يتجاوز عددهم ١٢٠٠ مليون نسمة وتبدو تايوان إلى جانب الصين الكبرى جزيرة قزمية على شكل سمكة تستلقى فى مياه بحر الصين ، يفصلها خليج فورموزا غربا عن الساحل الجنوبى الشرقى للصين الشعبية القارية بمسافة حوالى ٢٠٠ كم ، كما لا تبعد كثيرا عن هونج كونج والفلبين فى الجنوب وكوريا فى الشمال ، ويتجه رأسها إلى اليابان فى الشمال الشرقى وفى السنوات الأخيرة ألغت تايوان اسم فورموزا الذى

أطلقه عليها البرتغاليون ، ولم تتحول إلى جمهورية مستقلة إلا بعد أن انتقل إليها شيانج كاى شيك يوم ٧ ديسمبر ١٩٤٩ وأعلن تايبيه عاصمة انتقالية جديدة لجمهورية الصين الوطنية .

● الفلاحون يرقصون

قبل أن نشهد الاحتفال الرسمى بالعيد الوطنى ، . تذكرنا ماقالته لنا صاحبتنا :

ـ ترون أننا شعب يحب المرح والرقص والموسيقا والغناء توارثنا ذلك عن الأمهات والآباء . وتناقلنا عنهم أغانيهم وموسيقاهم ورقصاتهم وحتى حكاياتهم الشعبية . . وإحدى هذه . الحكايات تحكى حسب ماجاء فى الأساطير القديمة أن « التنانين » كانت منذ عهد بعيد تتواثب وهى ترقص وتغنى مرحا فى مياه الشاطىء الصينى ، وتقلب فى صخب رمال القاع . ومن هذه الرمال المقتلعة أقامت التنانين جزيرة على شكل سمكة أسطورية ملونة تستلقى فى هدوء على مياه بحر الصين ...

● التنين الصينى

حكاية التنين والرقص والغناء هى أبرز العروض التى شاهدناها خلال المهرجان الكرنفالى الكبير . بدأ العرض باقتراب التنين الرمزى الضخم بألوانه الزاهية محمولا على الأعناق والأكتاف ، ليسيطر على الساحة بين أنغام الموسيقى الصاخبة طول التنين البلاستيكى المنفوخ بالهواء لايقل عن مائتى متر وهو يتحرك راقصا صاخبا ، ويحمل أطرافه أكثر من مائة من الراقصين فى الملابس التقليدية يدورون ويقفزون ، وهو يتلوى ويتثنى بين صفوفهم بطريقة مثيرة ، فى رقصات غاية فى الدقةوالبراعة والتناسق والتناغم والجمال ، ومن التنين تنطلق نفثات دخانية متباينة الألوان وكأنها انطلاقات ألسنة اللهيب المستعر يرسلها خلال رقصته المجنونة الثائرة . ولا تهدأ ثورته إلا حين تحيط به مواكب الزهور التى تضم فتيات فى عمر الزهور ، يرقصن فى أزياء تمثل التنانين الصغيرة وسط الورد والرياحين الزاهية الألوان .

وإن يستمر العرض نتذكر صورة التنين كما نعرفها ونراها مرسومة أو منحوته فى

مختلف المعالم التاريخية والدينية ، وفى رسوم الفخاريات الفنية وعلى جوانب الطائرات والفوانيس الورقية التى تنتشر فى كل مكان فى الصين .

فالتنين (ويسمى لنغ كما يعرف فى الاساطير الصينية) . ليس مفزعا وحشيا ينقض على الناس ليلتهمهم كما قد يخطر على البال ، ولكنه يعنى السعد والخير . يعيش فى السماء أو فى الماء . والتنانين خمسة أنواع رئيسية : التنين الامبراطورى رمز الامبراطور وله خمسة مخالب فى القدم الواحدة بعكس سائر التنانين ذات المخالب الأربعة . أما التنين السماوى فهو حارس منازل الآلهة . والتنين الروحى هو الذى يوجه الرياح والأمطار ويروى الحقول وقد يتسبب فى بعض الأحيان بالفيضان لكن عن غير عمد . بينما التنين الأرضى ينظف الأنهار ويعمق البحار ويمد يد العون إلى البشر ليساعدهم فى التحكم فى مياه الفيضان . وخامس أنواع التنانين هو حارس الكنوز والمحافظ عليها ، وقد يصبح شرسا بشعا إذا لم يكن الطارق هو صاحب الكنز نفسه .

وعن التين يقول الفيلسوف الحكيم كونفوشيوس : « إنى أعرف كيف يطير الطير، ويسبح السمك ، ويجرى الحيوان . . ولكن الذى يجرى على الأرض يمكن اقتناصه والذى يسبح فى الماء يمكن صيده ، والذى يطير فى الجو يمكن إصابته بالسهام . . غير أن هناك مالا أستطيع أن أحكى كيف يركب الريح ويخترق السحاب ويعلو فى أجواء الفضاء . . إنه التنين »

• مهرجان الزهور والألوان

ونعود لمتابعة عروض المهرجان ..

موجات جديدة من طالبات الكليات والمعاهد العليا فى أزياء متباينة الألوان ، كل مجموعة بلون خاص ، يحملن الورد أو البالونات والأعلام أو المراوح ، ويتلاعبن بها فى تشكيلات بديعة ، لينتهى موكبهن بزهرات فى زى الفراشات تراقص أجنحتهن الحريرية المفتوحة ذات الألوان الزاهية المبهجة . ونتابع موجة إثر أخرى من الصغيرات اللاتى يقدمن استعراضا رائعا بطول الساحة وعرضها فى تشكيلات من الألعاب والرقصات وباقات الزهور . ثم تطلق آخر مجموعة منهن بالوناتهن الملونة لتطير فتغطى

سماء الساحة متراقصة هى الأخرى فى تناغم وتنسيق متكامل غاية فى الإبداع .

ولاستكمال الجو الاحتفالى والعيون مشدودة إلى السماء ، يجرى عرض جوى بالطائرات التى تنفث خيوطا طويلة ملونة وتقدم تشكيلات بهلوانية يؤديها طيارون مبدعون . قبل أن يهبط المظليون من الأجواء لينزلوا فى ساحة المهرجان .

وتتوالى العروض . . ويتقدم موكب الزهور ولاعبات الأكروبات والألعاب البهلوانية المثيرة على الدراجات البخارية مما يستقطب أنظار الجماهير المتابعة لهن فى انبهار يشد الأنفاس . كما تتوالى جموع المؤدين لمشاهد الأقنعة والأسود فى عروض تمثيلية متميزة ، لينتهى المهرجان بطوابير العسكريين والمجندات والملائكة البيضاء والفلاحات والعاملات فى مشاهد رائعة مثيرة .

ولأن تايوان بلد الأعياد والمهرجانات ، فإن الاحتفالات تتكرر مرة أخرى فى المهرجان الغنائى الموسيقى الشعبى الذى أقيم على مسرح الدولة الكبير فى المساء . ونشاهد عروضا استعراضية أخاذة حاوية الكثير من فنون المرح والتسلية . بعض العروض تقدم ألعابا تنكرية تمثيلية فكاهية يشارك فيها الأطفال ، من بينها مشاهد لمجموعة من الصغار وقد صبغت وجوههم بخطوط ذات لون أحمر زاه لتماثل أشكالهم هيئة القرود فى القصة الأسطورية القديمة « رحلة إلى الغرب » حيث يقدمون أعمالا تمثل القوى السحرية الخارقة . وضمن العروض نشهد رقصة الأسد الفولكلورية التقليدية يقدمها رجال يدخلون فى جسم لأسد رمزى ، يؤدى كل منهم ببراعة تامة وتناسق حركات الأسد الحقيقية حين يقرقع بفمه ويطبق أسنانه ويصدر الزئير والصيحات التى تثير إعجاب المشاهدين . وينتهى الحفل بمشهد من أجمل المشاهد يؤديه صغار لاتتعدى أعمارهم الرابعة ، يعرضون قصة الصيادين الذين جاءوا ينصبون شباكهم لاصطياد العصافير ولكنها تتجمع وتتكتل معا حتى توقع الصيادين فى نفس الشباك . .

فى الليل نجد أنفسنا فى غمار الزحام الكبير فى الساحة الواسعة التى تتوسط القصر الجمهورى وقاعة صن يات سين التذكارية والضريح الضخم لشيانج كاى شيك . الباحة تتألق بالأضواء الملونة والأعلام الحمراء التى تتدلى على الجدران ، وفى كل ركن

منها تقدم عروض وألعاب بهلوانية مثيرة ، وتنطلق طوال الليل الألعاب والصواريخ النارية تشد أنظار عشرات الآلاف من العمال والفلاحين القادمين من المدن والقرى المجاورة ليسهروا طوال الليل فى رقص وغناء ، وهم يتبادلون التهانى بالعيد الوطنى . الكبير ، ويشعرون أنهم يستحقون المزيد من الاحتفالات ، فهم يرون أنفسهم رموز التقدم والازدهار والرخاء الذى يعيش فيه شعب تايوان ...

● مجتمع إنتاجى

يقول مرافقنا وهو يشير إلى الكتل المتزاحمة من الفلاحين والعمال : لقد حقق هؤلاء من خلال جهدهم وكفاحهم زيادة لاتصدق فى الإنتاج . وهو إنتاج لايغطى فقط احتياجات الغذاء لهذه الأرض المكتظة بالسكان ، بل يحقق فائضا من المحاصيل الزراعية يتم تصديره بملايين الدولارات التى تشكل عائدا هائلا لموارد البلاد . وقد أوجدت القوة الشرائية المتنامية للمزارعين أسواقا جديدة للمنتجات الصناعية ، مما عزز الصناعة الحقيقية وشكل أساسا سليما للبرنامج المبكر للبناء من جديد ويتم ذلك من خلال السياسات الاقتصادية الهادفة للوفاء بالحاجات الأساسية للشعب ، وهى الغذاء والكساء والإسكان والاتصالات والتعليم ثم الرفاهية والاستجمام . ولاشك أن تحقيق هذه الأهداف على نحو منصف وعادل جاء نتيجة المساواة فى ملكية الأراضى وفى الثروة الاجتماعية . هذه المساواة أدت إلى التحسن الكبير فى رفاهية الشعب وإلى التنمية الصناعة للبلاد . ومن قبل كان الهدف الحكومى فى الخمسينيات هو تطوير مصادر الطاقة والصناعة الخفيفة بمساعدة الشعب الذى حقق خطوات انمائية واقتصادية كبيرة، وفى الستينيات اتخذت الخطوات الأولى لتطوير الصناعات الثقيلة وزيادة المعرفة التقنية ، وفى السبعينيات تم التأكيد على تنمية رأس المال والصناعات التى تحتاج إلى التقنية المكثفة وهكذا يمكن إدراك أن كل خطة إنمائية استطاعت أن تحقق أكثر مما كان متوقعا منها ، بفضل دأب هؤلاء الفلاحين والعمال وشجاعة التخطيط وكفاءة القيادات. والنتيجة هى إقامة مجتمع إنتاجى ذى صورة مدهشة لعل شعبه من بين أسعد شعوب العالم .

● ازدهار اقتصادى

الحقيقة أن الازدهار الاقتصادى يسير بخطوات سريعة متطورة فى جهورية الصين الوطنية التى لايعترف بها دبلوماسيا سوى ٢٢ دولة ، لكنها تتعامل تجاريا واقتصاديا مع كافة دول العالم ، بما فيها الصين الشعبية ذاتها التى وصل حجم التجارة معها من خلال هونج كونج إلى ١١٤٠٠ مليون دولار أمريكى . والمثير أن الميزان التجارى الخارجى والذى كان يحقق عام ١٩٨٦ فائضا يقدر عا م ١٩٧٦ فائضا يبلغ ٥٦٧ مليون دولار ، قد حقق عام ١٩٨٦ فائضا يقدر بحوالى ١٦ ألف مليون دولار أمريكى ، حتى إن تايوان أصبحت هى الدولة الثانية فى العالم ـ بعد اليابان ـ التى تحقق فائضا يتزايد باستمرار فى ميزانها التجارى كما أن الاحتياطى النقدى المتراكم فى خزانتها قد تجاوز ٣٠ مليار دولار .

ولتأكيد صورة هذا الازدهار تقول الأرقام إن إجمالى الإنتاج القومى تجاوز ٦٠ بليون دولار عام ١٩٨٥ مع معدل نحو تجاوز نسبة ١٠٪ سنويا .

أما دخل الفرد السنوى الذى لم يكن يتجاوز ١٠٠ دولار فى عام ١٩٥٢ فقد بلغ فى نهاية عام ١٩٨٦ حوالى ٣٧٥١ دولارا يرتفع مع نهاية هذا العام إلى ٥٠٠٠ دولار ، وهى إحدى أعلى النسب فى العالم ، وتكادأن تضع تايوان فى مضاف الدول المتقدمة ، وإن كانت لاتصل إلى مستويات اليابان التى تتجاوز ١٥ ألف دولار للفرد سنويا .

قال لنا الدكتور يونج شو وزير الإعلام «إن الحكومة تبحث الآن ـ مع وجود الفائض النقدى الضخم ـ تشكيل مؤسسة لإقراض الدول النامية بفوائد بسيطة وعلى آجال طويلة ، كما يجرى بحث اقتراح بتخصيص ١٠ مليارات دولار تقدم للدول النامية كمنح لاترد .

وقد حقق العام الماضى ازدهارا اقتصاديا وسياسيا كبيرا . . وأدى ذلك إلى أن سمحت الحكومة منذ شهر يوليو الماضى للأهالى باستبدال أية كمية من العملة المحلية إلى أى عملات صعبة وأن يودعوها فى أى بنك بدون قيود ، بالإضافة إلى السماح لأى شخص أن يحول سنويا فى حدود خمسة ملايين من الدولارات الأمريكية أو ما يعادلها إلى

الخارج لأى غرض . كما تم رفع الحظر الرسمى على السفر إلى الصين الشعبية ، والسماح لأول مرة لمن تزيد أعمارهم عن ٥٥ عاما بزيارة أقاربهم فى الصين الأم . وكان قد سبق ذلك عدة قرارات تشكل تحولا جديدا فى سياسة تايوان ، وهى رفع الحظر عن دخول المطبوعات الصينية إلى تايوان ، وإقامة علاقات تجارية غير مباشرة مع الصين» .

ولكن . . هناك شىء يجب ألا ننساه ...

فالواقع أن هذه الصورة المزدهرة التى تعيشها تايوان ، ما كان يمكن أن تتحقق إلا من خلال تدفق الأموال الأمريكية التى انهالت عليها ـ وماتزال ـ فى صورة مساعدات ومعونات واستثمارات ورؤوس أموال وتكنولوجيا متقدمة ، هدفها الرئيسى أن تبدو تايوان فى صورة متألقة جذابة متطورة ، لتكون شوكة فى جنب الصين الشعبية .

فمنذ تبنت الولايات المتحدة الأمريكية شيانج كاى شيك لمواجهة النظام الشيوعى فى الصين الأم ، انهالت المعونات الأمريكية عسكريا واقتصاديا وبشكل مباشر وفى أقصى نطاق ممكن ، كما انهالت المساعدات فى سخاء أمريكى فريد ، وتدفقت مئات الملايين من الدولارات وملايين الأطنان من الذخائر والأسلحة على جمهورية الصين الوطنية . وكان كل ذلك وراء الازدهار الذى شهدته تايوان والأموال الأمريكية تتدفق كالشلال عليها ، وهو أمر لاينكره فى الحقيقة جميع المسئولين على جميع المستويات .

... وكان علينا أن نعود إلى التاريخ ونقلب صفحاته . .

الفصل الثانى
من عمق التاريخ

فى القديم كانوا يسمونها « جزيرة الكنز » (باو ـ داو) ، فهى عندهم جنة عدن الخضراء ، ببحارها الزمردية وشمسها الذهبية ، الغنية بمواردها ، الخصبة بأرضها ، الواعدة بالأمل والقوة الكامنة . .

هكذا كانت تايوان فى نظر سكانها الأقدمين . . !

حكايات الكنز الموعود اجتذبت الكثيرين على مدى التاريخ . القراصنة والمطاردون والمنفيون والمغامرون والتجار والمزارعون والصيادون . . كانوا جميعا يهربون من الشواطىء المزدحمة فى الصين الكبرى تجذبهم مغناطيسية قوس قزح . !

جمال الطبيعة التى تتوجها الجبال وتخترقها الوديان دغدغت مشاعر الصينيين الفنية وتناغمها مع الطبيعة . وكانت الغابات الغنية بأشجار الكافور والأرز والبلوط والصنوبر كلها جميلة ثمينة القيمة فى آن معا .

ووجد الصينيون أن الخضروات والفواكه تنمو بسرعة وفيرة فى أرض الجزيرة الخصبة ، بعكس ماكانت تمنحه أرضهم الأصلية . كما أن بطن الأرض عامر بالمصادر المعدنية من فحم وحديد وكبريت مما يشجع على إقامة مجتمع جديد ، وهى غنية بالأحجار الكريمة من الجاديت الأخضر والأوبال والمرجان مما يغذى اتجاهاتهم الفنية فى الصناعات اليدوية التقليدية .

وقد أثبتت تايوان أنها مأوى طيب لكل من يفد إليها من المضطهدين الهاربين من العواصف السياسية والطغيان الامبراطورى على أرض الصين ، واختلطوا بالأقلية من جنس الهاكاس الذين قدموا شواطىء كوانجتون هاربين من أباطرة « منج » .

وحين جاء بعدهم مهاجرون من مقاطعة فوكى دفعوا أمامهم الجنس القديم إلى الداخل واستولوا لأنفسهم على جميع السهول .

ومع مر السنين تحولت تايوان لتصبح مركزا للتبادل التجارى الحر بخطوط ملاحية مع الصين واليابان وهونج كونج أبرز ماتنقله سفنها البضائع المهربة بعيدا عن عيون الجمارك .

ثم تتابعت الغارات على تايوان . وجاء اليابانيون والهولنديون الذين راحوا يعلّمون الصينيين كيف يخلطون الدخان مع الأفيون ليدخنوه واستطاعت أسبانيا أن تضع أقدامها على أرض الجزيرة حيث أقامت قواعد لها فى الشمال كانت موضع هجمات الهولنديين الذين تمكنوا من طردهم عام ١٤٦٢ . وفى نفس العام غزا « المانشو » القادمين من منشوريا جميع أنحاء الصين بما فى ذلك تايوان ، وامتد حكمهم من عام ١٦٤٤ حتى عام ١٩١١ ، وهو حكم آخر عصور الأباطرة فى الصين .

فى وسط تلك الفترة جرت أحداث أعادت تايوان إلى سجلات التاريخ . . فقبل أن تصل جيوش المانشو إلى بكين وجه آخر أباطرة «منج » قائدا من رجال تايوان البحريين اسمه «شنج شى لونج » ليقود بقايا جيوشه . وعندما شنق الامبراطور نفسه بعد هزيمته ، قرر القائد «شنج » أن يحتفظ بالقوات التى بين يديه ، ثم تزوج فتاة يابانية أنجبت له ولدا أسماه « شنج شنج هونج » وحمل الإبن لواء أباطرة منج بعد رحيل أبيه وعرف باسم « كوكسنجا » .

● البطل القومى

على رأس جيش قوامه مائة ألف رجل وأسطول يضم ثلاثة آلاف سفينة شراعية واصل «كوكسنجا » الحرب ضد المانشو لمدة اثنتى عشرة سنة من عام ١٦٤٦ ، واستطاع أن يستعيد العاصمة الجنوبية « نانكنج » غير أن جيوش المانشو عادت فأرغمته على التراجع إلى سواحل تايوان ، حيث قطع نفس الطريق الذى قطعه بعده بثلاثمائة عام القائد العسكرى الجمهورى «شيانج كاى شيك » .

فى تايوان واجه كوكسنجا المستعمرين الهولنديين الذين اعتبروه قرصانا استهانوا به .

وفى عام ١٦٦١ أبحر كوكسنجا إلى الشاطىء على رأس ٣٠ ألف مقاتل فى أسطول شراعى كبير ، وأرغم ثلاثمائة مقيم و٢٢٠٠ جندى هولندى على الانسحاب والتحصن فى ثلاثة حصون ساحلية . وتواصل الحصار لمدة عامين استطاع كوكسنجا بعدها الاستيلاء على قلعة زيلندا ، وسمح للقائد الهولندى ومن بقى حيا من رجاله بمغادرة الجزيرة . ومنذ تلك اللحظة بدأت الهجرة الصينية الكبرى عندما تبع كوكسنجا الكثيرون من الصينيين للاستيطان فى تايوان وهم الذين يشكلون الآن الغالبية العظمى للسكان الحاليين الذين يعرفون بالتايوانيين.

ومع انسحاب اليابانيين والأسبان والهولنديين أصبحت تايوان من ممتلكات كوكسنجا الذى حكمها باقتدار كبير وتمسك بالتقاليد والفنون والثقافة التقليدية الصينية . ولكن فترة حكمه لم تدم أكثر من سنة واحدة إذ مات فى سن الثامنة والثلاثين ، واعتبره أهل تايوان بطلا قوميا برغم أن الجزيرة سقطت لضعف أبنائه فى يد المانشو بعد أربعة وعشرين عاما .

وإذا كان كوكسنجا يعتبر بطلا قوميا عند أهل تايوان ، فثمة رجل يعتبرونه بطلا قوميا آخر ، وصانعا لتاريخهم الحديث . إنه « شيانج كاى شيك » ، الذى أقاموا له نصبا تذكاريا وتمثالا ضخما ، ولا يمكن لأى زائر لتأبينه إلا أن يضعه فى برنامجه ويدور فى متحفه الذى يحكى تاريخه .. بالقلم والريشة والصورة .. والتسجيل السينمائى..!

● المتحف والنصب التذكارى

ونبدأ اللقاء فى متحف شيانج كاى شيك مع النصب التذكارى الذى أقيم إحياء لذاكراه . ففى إبريل ١٩٧٥ عندما كان الشعب قد بدأ يتمتع بالازدهار السريع فوجىء بموت قائده . وللإشادة بجهوده المستمرة خلال قيادته للجمهورية الوطنية فى تايوان لتحقيق المجتمع الصينى الحديث فيها سجى جثمانه فى نعش مكشوف فى قاعة صن يات سن التذكارية . ولتأكيد الاعتزاز به جمع الصينيون المقيمون فى تايوان وفيما وراء البحار ، وخاصة فى الولايات المتحدة تبرعات قدموها للحكومة التى تولى قيادتها

ابنه الأكبر « شيانج شنج كو » الذى كان قد انتخب رئيسا للوزراء ثم رئيسا للجمهورية لإقامة قاعة تذكارية تضم نصبا وتمثالا ومتحفا ومتنزها إحياء لذكرى شيانج كاى شيك . وبدأت إقامة القاعة فى١٩٧٦ واحتفل بافتتاحها فى مارس ١٩٨٠ لتبدأ زيارة الجمهور لها فى إبريل بعد مرور خمس سنوات على وفاته .

المجمع التذكارى الكبير كما شهدناه يقوم على مساحة ٢٥٠ ألف متر مربع ، منها ١٥٦٠٠ متر مربع للمبنى الرئيسى الذى يضم قاعة النصب التذكارى بارتفاع ٧٠ مترا ، بينما تشغل بقية المساحة التى يحيطها سور بنى على الطراز التقليدى متنزه وساحة واسعة أقيمت بوابتها البرجية الرئيسية بارتفاع ٣٠ مترا على النمط الصينى التقليدى من عصر مينج بخلاف ثمان بوابات جانبية . ومن أجمل الملامح الفنية نوافذ السور التى تمثل ١٨ طرازا تقليديا للثقافات الصينية . ويخترق المتنزه ممرات ومقاصير وجسور مقوسة وتلال صناعية تقوم على جوانبها أشجار وأزهار من جميع الأنواع والألوان .

اخترقنا بين البوابة الرئيسية وقاعة النصب التذكارى ممرا طوله ٣٨٠٠ متر لنصعد ٨٩ درجة تصل بنا إلى مدخل القاعة التى يبلغ ارتفاعها ٧٠ مترا ، يعلوها برج ذو إفريزين دائرين مضلعين من القرميد الأزرق .يتوسط القاعة تمثال برونزى ضخم للرئيس شيانج كاى شيك ارتفاعه أكثر من ستة أمتار وزنته ٢٥ طنا . وعلى الجانبين المحيطين بالجدار وراء التمثال نقش مكتوب يلخص فلسفته فى الحياة « أن تعيش هو أن تخلق حياة طيبة لكل الناس » ...

ويعبر قول آخر عن آرائه السياسية ؛ « لنؤكد وطننا بالأخلاق الكريمة ، ولنضمن حقوق الجماهير بالديمقراطية ، ولندعم حياتهم بالعلم . »

وننتقل إلى قاعات المتحف الخاص الذى يحكى تاريخ الرئيس شيانج . ومن خلال الصور والرسوم والمعلقات الخاصة والنياشين والوثائق وصفحات الصحف والمجلات وخاصة الأمريكية نتابع تفاصيل الأحداث فى حياته التى وزعت على إحدى عشرة قاعة لكل منها عنوان موضوعى .

الانحدار من عائلة ذات أصل ونسب ، طالب نجيب وثائر بطل ، الالتحاق

بالأكاديمية العسكرية والانضمام للثورة . الوطنية ، البعثات الشرقية ، البعثات الشمالية والوحدة الوطنية ، حمل لواء مناهضة الشيوعية ، الخلاص الوطنى والمقاومة ضد الغزاة ، الوقوف فى وجه الاتجاه الشيوعى ، الاندماج من أجل الإحياء الوطنى ، الإسهام فى العلاقات الدولية ، الحزن المروع لفقد البطل القومى ...

● قصة الثورة

فى سجل التاريخ الحديث المعروض فى قاعات متحف شيانج كاى شيك عرض لكل ما يتفق مع الصورة المضيئة لبطل قومى . ولكن هناك أشياء أخرى تم التجاوز عنها ولم يأت ذكرها أو تصويرها كما شهدها تاريخ الثورة الصينية ، وكما ذكرتها المراجع والكتب المعاصرة التى تحكى قصة هذه الثورة وأحداثها . . !

ونعود مرة أخرى لنقلب صفحات التاريخ ...

تحت حكم « المانشو » ، رزحت الصين تحت نير دكتاتورية استبدادية وطغيان إقطاعى لايعمل حسابا لمئات الملايين من الفلاحين الذين كانوا يمارسون حياة شاقة بالغة القسوة . وإذا كانت أسرة المانشو ـ وخاصة فى القرن الثامن عشر ـ قد أغلقت جدرانها على نفسها فى وجه التجار الأوروبيين الذين حاولوا دون جدوى اختراق أبواب الصين ، إلا أن الوضع انقلب تماما لسوء حظ الصين مع بداية القرن ١٩ م .

كانت الدول الأوروبية فى ذلك الوقت تعيش ثورتها الصناعية الكبرى ، مزيحة المجتمع الزراعى القديم ، ومصوبة عيونها نحو الصين وجاراتها الآسيويات ، على أمل أن تستولى على خاماتها لتشغيل مصانعها ،وعلى منتجاتها الزراعية لتأمين الطعام لشعوبها ، بالإضافة إلى إخضاعها لسيطرتها لتكون ميدانا لأسواقها .

وقع الصدام المفتوح فى هذا الاتجاه ضمن سلسلة ضربات موجهة ضد الكرامة الوطنية للصين . ففى سنه ١٨٤٢ شنت بريطانيا حرب الأفيون ضد الصين . وأتيحت الفرصة للاستعمار بكل أشكاله ودوله للانقضاض وسن مخالبه لاقتطاع ما يريد من جسد الصين . وكان لابد من اليقظة وقيام ثورة كاسحة سواء ضد آخر حكام المانشو الضعاف المتخاذلين أو ضد الغزاة المستعمرين . ولكن الخلافات والأيديولجيات

والخيانات شقت صفوف الثوار حتى انتهى الأمر إلى حرب أهلية داخل الصين نفسها . . حيث لعب شيانج كاى شيك دورا يستحق التسجيل .

فقد سار الجنرال على درب « صن يات سن » الذى أقام حزب « الكومنتانج » (جمعية تجديد الصين) ورفع علم الثورة على فساد المانشو مما أدى إلى سقوط الامبراطورية وقيام الجمهورية برئاسة الدكتور صن . وعندما تولى شيانج كاى شيك القيادة بعد موته عمل على إعاده البناء الوطنى ومواجهة المعتدين اليابانيين الذين احتلوا منشوريا وأجزاء من الصين وتايوان . وواصل الجنرال قيادة الشعب الصينى فى مواجهة الغزو اليابانى حتى انتهت الحرب العظمى الثانية باستسلام اليابان واستعادة الأراضى المحتلة وبعد وضع الدستور القائم على مبادىء الشعب الثلاثة للدكتور صن ، انتخب الجنرال أول رئيس دستورى فى التاريخ الصينى عام ١٩٤٥ ، وزار تايوان للإعلان عن انتهاء الحكم اليابانى . غير أن الحزب الشيوعى الصينى كان قد بدأ حركته لضرب حزب الكومنتانج وبدأ الزحف للاستيلاء على السلطة . وبرغم المقاومة الشديدة لم يجد الجنرال إلا أن ينتقل بحكومة جمهورية الصين الوطنية عام ١٩٤٥ إلى مقاطعة تايوان لمواصلة البناء الوطنى من العاصمة الجديدة تايبيه . وانتقل مع حكومة الكومنتانج إلى تايوان مايزيد على مليونين من المؤيدين من بينهم الجنود . الذين اشتركوا فى الحرب الطويلة ضد اليابانيين وبعد ذلك ضد الشيوعيين . .

كانت تايوان فى ذلك الوقت متخلفة تماما بعد أن استغلها اليابانيون مدة خمسين سنة باعتبارها مصدرا لتزويدهم بالمحاصيل الزراعية . وكانت منشآت الطاقة ومصانع السماد والنسيج هى كل مابقى قائما فى الجزيرة بعد القصف المتوالى الذى تعرضت له أثناء الحرب العالمية الثانية . وبدأت حكومة الجنرال عملية إعادة البناء بمساعدة الصينيين التايوانيين لتحويل المقاطعة المتخلفة إلى طراز للمجتمع الصينى الحديث الذى تنبأ به الدكتور صن يات سن . ولأول مرة أتيحت لجمهورية الصين الوطنية الفرصة لتنفيذ مبادىء الشعب الثلاثة دون التدخل العسكرى . وكان أساس السياسات الاقتصادية للمبادىء الثلاثة هو الوفاء بالحاجات الست الأساسية للشعب: الغذاء ، والملبس والإسكان ، والاتصالات والتعليم ، والرفاهية والاستجمام. ومن خلال تنفيذ هذه السياسات شهدت تايوان الازدهار الذى حقق مايشبه المعجزات فى عهد حكومة الكومنتانج . ...

الفصل الثالث

باى باى . . . تايوان !

الجميلة ولو لم تعد عذراء . . ماتزال آية فى الجمال والإبهار .

وهل أروع من جمال ثقافى زاخر بكل الألوان الصينية والرقص والغناء والموسيقا والتمثيل والأوبرا والنحت والخط والإبداع فى أعمال الخزف واليشب والسيراميك والزخرفة والرسم والتلوين ؟ !

وإذا كنا قد شهدنا فى الاحتفال الكرنفالى بالعيد الوطنى ألوانا رائعة من المرح والموسيقا والغناء والاستعراضات ، إلا أن ذلك قليل من كثير مماتزخر به أيام تايوان من احتفالات ومهرجانات وأعياد وعروض شاملة لكل الفنون ، تمشيا مع المبادىء الثلاثة التى أعلنها الدكتور صن الذى دعا إلى تطوير هوية وطنية وحكم ديمقراطى والاهتمام برفاهية الشعب ، وهى أفكار وتعاليم ماتزال تؤثر تأثيرا كبيرا على الشعب الصينى فى تايوان الذى مازال يؤمن بأنها مستوحاة من المبادىء الكونفوشيوسيه التى تركز على أهمية العلاقات الأخلاقية بين جميع الناس وأهمية كرامة الإنسان ، وهدفها الخير والحرية والمساواة والأخوة على أساس المعتقدات الصينية القديمة ، كما أنها تؤمن بأن التسلية والترفيه هما إحدى الحاجات الرئيسية لحياة الشعوب ...

من هنا كانت الأعياد والمهرجانات من أبرز معالم الحياة فى تايوان وهى لاترتبط فقط بالمناسبات الوطنية ، ولكن أيضا بالمناسبات الدينية والتقليدية منها بوجه خاص .

الاحتفالات المحلية الدينية التى تجرى للآلهة الحامية للشعب فى تايوان نسمى « باى باى » وتتميز بمهرجانات زاخرة بالألوان نهارا ، والسهر والمرح والولائم فى الليل ، حيث نبدأ دائما بتقديم الطعام والشراب على الموائد لأرواح الأسلاف والآلهة التى تتناولها

أولا حتى تشبع بطبيعتها الروحانية التى لا تتغذى بالماديات ، تاركة للمحتفلين بقايا الطعام ليتناولوه ، وهو بالطبع كل ما وضع على المائدة من أطعمة دون أن ينقص منها شيء مادى .

أما الأعياد الوطنية الهامة فهى وحدها التى تعتبر عطلات رسمية محددة التاريخ للجميع . ولكن هناك أيضا إجازات رسمية عديدة ترتبط بذكرى الأحداث التاريخية فى الصين الحديثة ، بينما الاحتفالات التقليدية تتبع التقويم القمرى القديم بحيث تتباين مواعيدها من سنة إلى أخرى .

تقام أبرز الأعياد الدينية فى ذكرى ميلاد كونفوشيوس معلم الصين العظيم منذ ٢٥٠٠ سنة ، حيث يحتفل به كل الصينيين تحت اسم « عيد المعلم » . تبدأ الاحتفالات مع مطلع الفجر فى المعابد الكونفوشيوسية بجميع أنحاء تايوان ، وتتضمن عزف الموسيقا على الآلات الموسيقية القديمة ، والرقصات الطقوسية التقليدية ، وعرضها الواحدة تلو الأخرى من الفنون المستوحاة من الطقوس الكونفوشيوسية . والمعلم الفيلسوف عرف فى جميع أنحاء العالم بتعاليمه الأخلاقية . فالأخلاق مطلبه وهمه الأول ، وعلاج المجتمع لايتأتى إلا بتجديد أخلاقى قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم . والإنسان الكامل الأسمى فى رأيه يتمتع بفضائل ثلاث هى الذكاء والشجاعة وحب الخير . والقاعدة الأساسية التى تقوم عليها أخلاق الرجل الأعلى هو العطف الفياض على الناس جميعا ، وألا يغضبه أن يسمو غيره من الناس ، وهو يجمع الصفات الخلقية لهذا الرجل الأعلى فى عبارة تبدأ بها الاحتفالات الكونفوشيوسية فى جميع أنحاء تايوان يرددها المحتفلون جميعا : « يضع الرجل الأعلى نصب عينيه تسعة أمور:

فمن حيث عينيه يحرص على أن يرى بوضوح ، ومن حيث وجهه يحرص على أن يكون بشوشا ظريفا ، ومن حيث سلوكه يحرص على أن يكون وقورا ، وفى حديثه يحرص على أن يكون مخلصا ، وفى شئون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته وأن يبعث الاحترام فيمن معه ، وفى الأمور التى يشك فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس ،

وإذا غضب فكر فيما قد يجره عليه غضبه من الصعاب ، وإذا لاحت له المكاسب فكر فى العدالة والاستقامة » .

إيمانا بتعاليم كونفوشيوس وتمجيدا له يستمر الاحتفال بمولده منذ الفجر وطوال اليوم . ويشارك الشباب والطلبة صغارا وكبارا فى تقديم رقصات تقليدية وموسيقية تعبيرا عن احترامهم لمعلم الصين الأول .

● الاحتفالات القمرية

احتفال آخر له قيمته هو الاحتفال بأول السنة القمرية . فى ذلك الوقت يتوقف كل شىء . فالاستعدادات قائمة فى كل بيت فى الليلة الأخيرة من السنة المنتهية ، وقبلها بأسبوع يكون إله الطبخ وإله الثروة قد صعدا لتقديم تقريريهما إلى إله السماء حول مايجرى فى البيوت . وخلال الأيام السبعة يكون كل إنسان مشغولا بتنظيف البيت وإعادة صباغته وتلوينه وبإنجاز كل المشتريات والأطعمة المطلوبة من السوق ، وتزيين الغرف بالأزهار والورد ، وتعليق صور الآلهة الحارسة على مداخل الأبواب ...

وعند غروب شمس الليلة الأخيرة تجتمع العائلة كلها داخل البيت ، بينما تكون جميع الأبواب قد ختمت بالشمع والورق الأحمر لمنع ثروة العائلة من الهروب . وتبدأ المأدبة الكبيرة التى تكون قد أعدت خصيصا لهذه المناسبة . وقبل تناول الطعام يحنى كبير العائلة رأسه ويتبعه الآخرون لتقديم تحية التكريم للأسلاف . وعندما ينتصف الليل تجرى إزالة الأختام عن الأبواب لاستقبال الآمال والتمنيات الطيبة للعام الجديد . ثم تنطلق الألعاب النارية لتغطى السماء وتظل مستمرة حتى الفجر . ذلك هو اليوم الوحيد من السنة الذى تخلو فيه جميع الشوارع من الناس لوجودهم داخل البيوت ، والذى ينتهى عادة بجلوس رب العائلة لتلقى تهانى جميع أفرادها ، ويتلقى الصغار منه هدايا العيد .

وثمة عيد آخر كانت تتعطل فيه الأعمال لأسبوع أو أسبوعين ، بمناسبة اكتمال القمر فى أول شهور السنة ، حيث يجرى مهرجان الفوانيس الملونة التى تزين بها الشوارع والبيوت والمبانى الحكومية والأهلية . ولكن عطلة هذا الاحتفال تقلصت الآن إلى يومين أو ثلاثة ، وإن ظلت القناديل والفوانيس معلقة فى كل مكان ...

وللقمر مهرجان آخر يحتفلون به فى منتصف الشهر الثامن من التقويم القمرى عندما يكون القمر بدرا . ويتفق ذلك الاحتفال مع عيد الحصاد عندما يكون العمل فى الحقول قد انتهى . .

يرتبط المهرجان بأسطورة تروى عن فتاة جميلة اسمها «شانج يو » تزوجت من رامى السهام الشهير «لى » الذى أنقذ البشرية من مأساة كونية رهيبة عندما أطلق سهامه على تسع شموس من عشر ظهرت فى السماء فأسقطها ، بعد أن كانت حرارة الشموس المتجمعة تحرق سطح الأرض وتفنى كل ماعليها من الكائنات . وكافأته الملكة الأم السماوية بأن منحته « إكسير الخلود » .

وخطر للزوجة أن تختبر فاعلية ذلك الإكسير فاحتست كمية منه . وعندما احتسته فوجئت بنفسها تطفو وتسبح فى الجو . وحين بلغت السماء أصبحت « إلهة القمر » .

● الاحتفالات والأساطير

لايكاد يخلو أى احتفال أو مهرجان فى تايوان من علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع أسطورة تروى . ومهرجان وسط الخريف يكاد يكون صاحب أكبر كمية من الأساطير الرومانسية الصينية التى تروى عن القمر والطعام الرئيسى الذى تقدم خلاله « كعكة القمر » متباينة الأشكال بعضها حلو وبعضها مالح ولكنها محشوة بالفواكه والجوز والبندق . والتذوق من كل صنف منها إجبارى على الجميع . . !

وفى احتفالات الربيع تغلق جميع المحلات فى تايوان لمدة أسبوع ويتمثل المهرجان التقليدى فى تبادل الظروف الحمراء المسماة (هونج باو) وهى مغلقة على هدايا نقدية للأصدقاء تتباين حسب تخمينات الحظ التى ترفق فى أوراق صغيرة . ولكن أسوأ ما يمكن أن يقع فيه أحدهم هو أن يصله رقم ٤ فهو شؤم على صاحبه لأنه يماثل كلمة الموت . وقد لاحظنا بالمناسبة أن رقم ١٣ ملغى تماما فى طوابق الفنادق وفى كل مكان لأنهم يتشاءمون منه . . !

أما الأزياء التى يرتدونها فى تلك الاحتفالات ، والهدايا التى يقدمونها فهى دائما ذات لون أحمر ، لأنه يرمز إلى السعادة والحظ الطيب . وعندما ينتصف الليل تغرق الجزيرة

كلها فى الأضواء والنيران والألعاب النارية الحمراء ، وذلك لإثارة رعب الشياطين والأرواح الشريرة من الاقتراب من البيوت والمكاتب ، وهو ماجعل الصينيين يخترعون البارود الأحمر الذى كانوا يطلقونه منذ حوالى ألف سنة مضت .

مهرجان قوراب التنين نوع آخر من الاحتفالات الشعبية فى تايوان ، يجرى فى اليوم الخامس من الشهر القمرى الخامس . فى ذلك اليوم تجرى سباقات للقوارب المزخرفة بألوان التنين فى الأنهار التى تخترق مختلف المدن فى تايوان . ويقول لنا مرافقنا : « إن هذا الاحتفال يقام جريا على تقليد قديم يرتبط بأسطورة شعبية تحكى أن طالبا موهوبا اسمه « شويوان» فى القرن الثالث قبل الميلاد لم يحظ بتكريم الامبراطور لمواهبه ، فانطلق إلى النهر حيث أغرق نفسه . وأسرع الناس إلى قواربهم يحاولون إنقاذه وانتشاله ولكن عبثا ، إذ كان قد اختفى فى أعماق المياه . وظل الناس كل سنة يستغلون القوارب ويتسابقون فى الأنهار فى ذكرى تلك المناسبة ـ وذات يوم ظهر «شويوان » فى الحلم لأحد الفلاحين يستجدى طعامه . من بعدها ظل الناس يلقون حبات الأرز فى النهر من أجله . وبعد فترة ظهر « شو » فى حلم آخر وهو يقول إن الأسماك تلتهم الأرز الذى يلقى إليه ، ويطلب أن يلقى الأرز فى لفافات من أوراق شجر الخيزران مربوطة بخيوط متينة . . وهكذا بدأ الناس يصنعون لفافات الأرز التى يسمونها « تزونج تزى » ويلقونها فى الأنهار قربانا لروحه فى مثل ذلك الوقت من كل عام ، حيث تجرى فى الاحتفالات سباقات زوارق التنين النهرى . . »

وللشباب عيدهم الخاص فى تايوان حيث يحتفلون فى اليوم السابع من الشهر القمرى السابع كل سنتين بعيد الحب . ففى تلك الليلة يقترب نجمان من نجوم السماء هما « الفتى الراعى » ويظهر عادة فى الغرب « وفتاة المغزل» التى تظهر عادة فى الشرق لتضيق المسافة بينهما إلى أقل حد ممكن . وحسب الأسطورة فإن تلك هى الليلة الوحيدة التى يقترب كل منهما من الآخر اقتراب العاشقين . ويجرى الاحتفال بتبادل المحبين والمحبات الهدايا والورود والكلمات الرومانتيكية فى الحدائق والمتنزهات فى ضوء القمر. . ! أما مهرجان الأشباح فتجرى احتفالاته فى اليوم الخامس عشر من الشهر السابع القمرى . وتقول الأسطورة إن أبواب العالم الآخر تتأرجح فجأة فتنتهز أرواح

الموتى الفرصة أو تعود هاربة إلى مكان إقامتها السابقة على الأرض . . ويلجأ الناس إلى وضع الأضحيات والقرابين من الطعام والشراب أمام مداخل البيوت والمحلات لاسترضاء هذه الأرواح . .

الفصل الرابع

أوبرا تايبيه

الجميلة التى لم تعد عذراء ... رفضت أن تعود إلى أيام الفقر والشقاء والظلام ، وآلت على نفسها إلا أن تمارس حياة الترف والرفاهية والزخارف والزينات ، وتعيش الليالى المترعة بالأضواء والألوان ، ولم يعد يهمها أكثر من أن تبدو متألقة كغانية ، مترفة كنحلة ترتشف الرحيق من كل ماتحط عليه من ورود وأزهار . وتضع عطرها لتجتذب القلوب وتدير رؤوس العاشقين . . . .

وليس أشد جاذبية من الأوبرا بموسيقاها وألوانها وألحانها مايستطيع أن يحقق للياليها كل ذلك . . . .

الموسيقا عند الصينيين نوع من التطهر ... وهم يتبعون فى ذلك تعاليم كونفوشيوس الذى كان يقول : « إذا أتقن الإنسان الموسيقا . وقوم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها . تطهر قلبه وصار قلبا طبيعيا سليما رفيقا عامرا بالإخلاص والوفاء ، . يغمره السرور والبهجة . وخير الوسائل لإصلاح الأخلاق والعادات أن توجه العناية الى الموسيقا التى تعزف فى البلاد . فالاخلاق الطيبة والموسيقا يجب ألا يهملها الإنسان . فالخير شديد الصلة بالموسيقا ، والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام » .

وقلما كانت الموسيقا فنا قائما بذاته عند الصينيين ، بل كانت تابعة للدين والمسرح . وكانت تؤدى بأنغام تتفق مع الفضائل وكرم الأخلاق . وتم تقسيم البعد الكلى فى الموسيقا الى اثنى عشر صنفا من أصناف النغمات ، وإن كتبت الألحان فى سلم خماسى يطابق على وجه التقريب النغمات الموسيقية الحالية . وكانوا يطلقون على هذه النغمات الكاملة أسماء « الامبراطور » و « رئيس الوزراء » و « الرعية » و « شئون الدولة » و« صورة الكون » . . !

من هنا فإن الموسيقا الصينية قديمة جدا . وبعض الألحان التى تقدم فى الوقت الحاضر تعود الى أكثر من ألفى سنة ، ويتم عزفها على آلات موسيقية تقليدية . وقد تابعناهم يعزفون على آلات النفخ مثل الناى والبوق والمزمار والصفارة ، وعلى آلات الدق مثل الدفوف والطبول والأجراس والصنوج . كما أن الألواح الموسيقية كانت من اليشب والعقيق . وكانت الأنغام قوية صاخبة ، ولكن التناسق اللحنى كان يتفق مع ما دخل من تغريب فى العصر الحديث بإنشاء الأوركسترا السيمفونى والمعاهد الموسيقية الحديثة ، وبعد أن بدأ الشبان يتعلمون ويعزفون على الآلات الغربية ويمزجونها بالآلات التقليدية القديمة .

ولكن الأوبرا الصينية هى موضع الاهتمام الذى يستحق المتابعة ، وهو مافعلناه عندما حضرنا عرضا فى دار الأوبرا فى تايبيه ، حيث تغلق الأبواب ولا يسمح بالدخول بعد بدء العرض ... ورحنا نتابع فى انبهار أحداث قصة « المحظية المخمورة » . !

الأوبرا فن من أجمل الفنون تمتزج دائما بالموسيقى والغناء . وليس مثل الأوبرا الصينية ما يرضى المشاعر التقليدية للصينيين المحبين للألوان والأصوات والدانشيل والرقص والأكروبات . وإذا كانت الأوبرا الصينية قد ولدت فى بكين عا م١٧٩٠ عندما دعا الامبراطور « تشيان لونج » الفنانين من جميع أنحاء الصين لعرض فنونهم فى احتفالات القصر ، إلا أنه حرم فى نفس الوقت على النساء آن يشاركن فى التمثيل ، فكان الرجال يقومون بأدوار النساء ، وقد مثلوها تمثيلا بلغ من إتقانه أن النساء حين سمح لهن فى أيامنا هذه بالتمثيل من جديد ، كان لابد لهن أن يعملن جاهدات على تقليد مقلديهن حتى يضمنَّ النجاح . ومع هذا فقد استمر التمثيل الذى يمكن تسميته بالأوبرالى ، وإن كان بعيدا تماما عما يقدم فى الأوبرا الغربية ، وكانت العروض تقدم فى الحانات ونوادى الشاى . وكان لابد للممثلين أن يتقنوا الرقص والألعاب البهلوانية حتى يمكن لهم أن يجتذبوا انتباه النظارة الذين كانوا أثناء مشاهدة العرض يشربون ويأكلون ويتحدثون ويساومون الباعة الذين يقدمون لهم الدخان والشاى والمرطبات . ولم يكن النظارة ينتبهون إلا حين تستلفت أنظارهم قطعة مثيرة جميلة أو عالية الصوت ، مما جعل الممثلين يلجأون إلى الصراخ بأعلى أصواتهم أثناء الأداء لكى يسمعهم

المشاهدون . وكانوا فى أغلب الأحيان يلبسون أقنعة على وجوهم حتى يسهل على النظارة فهم أدوارهم .

ولأن أدوار الممثلين كثيرا ما كانت تتطلب منهم المهارة فى تحريك أعضائهم ، فقد كانت كل حركة تؤدى طبقا لقواعد من الرشاقة منسجمة مع النغمات الموسيقية التى تعزف فى خلال التمثيل . وكانت حركات اليدين تستخدم رمزا للكثير من الأعمال . كما كانت تصحب الكثير من الأقوال . وكان لابد أن تكون هذه الحركات دقيقة متفقة مع العرف والتقاليد القديمة . وكان فن تحريك اليدين والجسم عند بعض كبار الممثلين يؤلف نصف مايقدمون فى العرض .

أبرز ما يرتبط بالأداء طلاء الوجوه بمختلف الألوان .

وحين كنا نتابع العرض لم نكن نفهم معنى الألوان التى طليت بها وجوه الممثلين ـ وخاصة بعد أن اصبحت النساء قاسما مشتركا فى هذه العروض ـ إلا بعد أن شرح لنا مرافقنا ما تعنيه . فاللون الأحمر يرمز الى الخير والعظمة والمجد . والأزرق يرمز الى الشجاعة والعنف والنشاط . فاللون الأبيض يمثل البراعة والحذق والمكر وهو الغالب على وجه المهرجين او المجرمين . أما الأسود فهو المثل للأمانة والاستقامة والعدل ويلون به وجه القاضى أو القائد . واللون البنى يشير الى الشخصية القوية العنيدة . بينما الأصفر يدل على الذكاء ولكن مع التهور . ويدل اللون الأخضر على القوى الخارقة كالأشباح والشياطين ، بعكس اللون الذهبى الذى تطلى به وجوه من يمثلون الآلهة والملائكة والأرواح الخيرة .

• البانتوميم

عندما بدأ العرض لم نسمع سوى الخلفية الموسيقية الرتيبة الألحان . أما التمثيل والمشاهد التى توالت أمامنا فلم نكد نفهم منها شيئا إلا عندما اكتشفنا أنها تقدم بطريقة البانتوميم ، وحين بدأ مرافقنا يشرح لنا ما تعنيه .

التمثيل البانتوميمى منتشر فى أغلب العروض الصينية الأوبرالية ، حيث لايحتاج الأمر إلى الديكورات المسرحية ـ بما فى ذلك الأثاث ـ الا أقل القليل . ويكتفى بالأزياء

ذات الطبيعة والزخرفة الخاصة ، وتحريكها بالأسلوب الذى يتفق مع ما يعنيه المؤدى للعرض سواء بالنسبة للحركات أو الكلمات . كانت الممثلة الرئيسية فى الأوبرا هى أشهر نجمة تحظى بشهرة عالمية مرموقة اسمها « يانج لى هوا » . الزى الذى ترتديه يسمى « الأكمام المائية » وكل كم على الذراع سهل الحركة بالغ الاتساع ، يستخدم تحريكه للتعبير عن المشاعر والعواطف : والكم الحريرى المزخرف طويل يمكن أن يصل إلى الأرض عندما يتم فك نصفه الإضافى بمعرفة الممثلة الخبيرة فى الوقت المطلوب للتعبير المقصود .

فللتعبير عن الدهشة أو الصدمة تفرد الممثلة ذراعيها بقوة فتطير الأكمام الى الخلف قاصدة إظهار الانزعاج . وعندما يريد الممثل أن يعبر عن الخجل أو الارتباك فإنه يرفع أحد الكمين على وجهه وكأنه يختفى وراءه . أما التصميم أو الشجاعة فيتم التعبير عنها بضرب الأكمام ضربة خاطفة حول المعصم ثم لف اليدين خلف الظهر . أما التعبير عن الخوف فيكون بأن يترك الممثل إحدى يديه فوق الأخرى بسرعة وتتابع بينما ترتجف الأكمام حول الكفين . . !

التعبيرات كثيرة يفهمها المتابعون من ذوى الخبرة بعروض البانتوميم الأوبرالى وما تعنيه حركة الأكمام الطويلة . فبعض الحركات تعبر عن العودة من رحلة بعيدة . وبعضها يعبر عن الإحساس بالبرودة وذلك بلف الأكمام حول الأيدى فى عناق قوى بينما التعبير عن الإحساس بشدة الحرّ يكون بفتح الأكمام بشكل مروحى » .

أما استخدام بعض الأثاث الخفيف على المسرح فهو للتعبير عن الحركة والتعقل . فالكرسى مثلا يمكن أن يكون مستخدما كمقعد بشكله الطبيعى ، ولكنه حين يوضع فوق مائدة فذلك يعنى الصعود إلى الجبل ، وقد يعنى الجلوس فوق كرسى العرش . فإذا قفز الممثل من فوق الكرسى فذلك يعنى أنه انتحر بإلقاء نفسه فى البئر . وقد يستخدم شريطا طويلا من الورق يتدلى فوق أذنيه للتعبير عن أنه يمثل الشبح . . !

● قمم الإبداع الفنى

يقولون فى تايبيه أن تايوان ستبقى حصنا للثقافة والقيم الصينية وأنماط الحياة

التقليدية . ومتحفها الذى أقيم على النمط الهندسى لقصور عصر سونج ، بحديقته الواسعة ذات الأسوار التى تحيط به يضم مجموعة عالمية ضخمة من قمم الإبداع الصينى منذ خمسة آلاف سنة ، ومن عصور أباطرة سونج (٩٦٠ ـ ١٢٧٩) وتايوان (١٢٧٩ ـ ١٣٦٨) ومنج (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤) وشنج (١٦٤٤ ـ ١٩١١) .

من بين ما شهدناه من هذه القمم أثناء زيارتنا للمتحف الوطنى ما شرحت لنا تفاصيله ومعالمه مرافقتنا عواطف الدؤلى .

يضم المتحف أكثر من ٧٠٠ ألف تحفة تحكى ماضى الصين ، منها الأوانى الفخارية المسجلة من عصر ماقبل التاريخ ، والبرونز القديم ، والأنسجة المزدانة بالرسوم والصور ، واللوحات الزيتية من العصور الوسطى ، والتماثيل المثيرة ، والقطع الخزفية الحساسة ، والبورسلين واليشب الأخضر والمجوهرات الرائعة ، وبالتقريب أبرز إنتاج إنسانى شرقى يمكن تصوره من مختلف فترات التاريخ الصينى . العملية التى تثير الاستغراب هى كيف تم نقل كل هذه الكنوز الصينية وتحريكها من أماكنها أولا بأول خلال عمليات المقاومة والحروب المتتالية . فقد كان أول انتقال لها من بكين إلى نانكنج ثم إلى سشوان ثم مرة أخرى إلى نانكنج بعد استسلام اليابان فى الحرب الثانية ، ثم أخيرا من نانكنج إلى تايوان مع الانتقال النهائى لحكومة الكومنتانج إلى مقرها الجديد فى تايبيه . ثم نقل هذه المجموعات الفنية التاريخية بين هذه المدن وخلال الدوى والقنابل والمدافع والحروب مستمرة يعتبر وحده إنجازا كبيرا لم يشهد مثله أى متحف آخر فى العالم .

أبرز ما لفت نظرنا من المعروضات تلك التحف المصنوعة من اليشب . وكما ذكرت مرافقتنا فإن اليشب قديم قدم التاريخ الصينى نفسه ، وشاهد ذلك ماهو معروض منه مما عثر عليه فى أقدم القبور . وكانت أسرة مينج الملكية قد جعلت من اليشب شرابا قالت إنه ينقى الدم ويرخى العضلات المشدودة ويغذى العظام ، كما أنه بلسم للعقل والروح . واليشب الذى صنعت منه أبدع التحف الفنية يتركب من معدنين متحدين هما الجاديت والنفريت . وكلا المعدنين صلب قاسٍ يحتاج تهشيم البوصة المكعبة منه إلى ضغوط خمسين طنا فى بعض الأحيان . وتكسر القطعة الكبيرة منه عادة بتعريضها إلى

الحرارة الشديدة ثم إلى الماء البارد على التعاقب . وفى وسع الإنسان أن يدرك حذق الفنان الصينى من قدرته على إظهار ألوان براقة خضراء وسمراء وسوداء وبيضاء وزرقاء مشوبة بالخضرة من هذا الحجر العديم اللون بطبيعته . وكان أول ماعثر على اليشب فى عهد أسرة شانج فى صورة ضفدعة تستخدم قربانا مقدسا ، شاهدنا بعضها فى داخل إطار زجاجى مغلق . كما شاهدنا أدوات منه غاية فى الجمال من أيام كنفوشيوس .

وقد أصبح اليشب فى جميع الأحوال مادة تشكل منها أجمل التحف . وحجم الحجر عادة هو الذى يحدد شكل التحفة النهائى بعد القطع ، تمثالا كانت أو حلية أو قلادة أو آنية . وكان أهل الصين فى الزمن القديم يطلقون عليه اسما مرادفا لجمال الجسد والروح ، ثم صار مادة رئيسية لصناعة الأدوات والأسلحة . ولما ساد فى الصين مذهب « الأرواحية » القائل بأن لكل مادة فى الكون روحا ، اقتصر استخدام اليشب على مجال الفنون الجميلة والتحف ، وصارت استخداماته تتم على المستويين الشخصى والزخرفى، فكان يعلق قلادة على صدور علية القوم قبل أن يشيع بين جميع الطبقات القادرة . ومنذ ذلك الوقت راجت سوق النحاتين ، ولم يمض وقت حتى أصبح صناعة وتجارة . وقد شهدنا أجمل قطعة فى المتحف الوطنى يعود تاريخها إلى أيام أسرة تانج جونج .

قالت مرافقتنا : لعلكم تستغربون أن كونفوشيوس نفسه تحدث عن اليشب فقال عنه : « انه ناعم أملس براق مثل الذكاء ، وأطرافه تبدو حادة ولكنها لاتقطع مثل العدالة ، وهو يتدلى نحو الأرض مثل التواضع ، وعندما يدق عليه يعطى صوتا واضحا ذا رنين مثل الموسيقا . أما عروقه فغير مخيفة وتزيد فى جماله مثل الصدق ، وله تألقه ولمعانه مثل السماء ، وأما جوهره الثابت منبعه من الجبل والماء فمثل الأرض » .

● البرونز والخزف الصينى

ولايكاد البرونز يقل قدما عن اليشب فى الفن الصينى ، ومجموعة التحف البرونزية فى المتحف تحكى تاريخا طويلا منذ العصر البرونزى قبل حوالى ثلاثة آلاف سنة . وحين وقفنا أمام أحد القدور البرونزية قالت لنا مرافقتنا إن الأقاصيص الصينية تروى أن

الامبراطور « يو» أحد أباطرة الصين الأقدمين وبطل الطوفان الصينى ، تلقى المعادن التى بعثت بها إليه الولايات التسع الخاضعة لحكمه ، وهى الخراج المفروض عليها ، ثم صبها كلها وصنع منها ثلاثة قدور لكل منها تسع أرجل . لها من القوة السحرية ما تستطيع به أن تدفع المؤثرات البغيضة ، وتجعل مايوضع فيها من المواد يغلى بغير نار ، ويخرج منها مالذ وطاب من الطعام والشراب . وقد أصبحت هذه القدور الرمز المقدس للسلطة الامبراطورية وتوارثتها الأسر واحدة بعد الأخرى ، فكانت كل منها تتلقاها بعناية فائقة من التى قبلها .وقد أصبح صب البرونز ونقشه فنا من الفنون الجميلة الصينية ، وكان تصنع منه أوان للحفلات الدينية شاهدنا منها الكثير من الأوانى القربانية من عصر شانج وأدوات وآلات موسيقية من مختلف العصور التاريخية . ووصل فن البرونز إلى ذروة مجده أيام أسرة سونج حيث طالعنا من تحفها قدورا ودنان خمر ومباخر وأسلحة ومرايا ونواقيس وطبولا ومزهريات .

وتحف الخزف والصينى والسيلادون تعد بالآلاف فى متحف تايبيه ، الذى جمع فيه أبرز القطع التى نقلتها إليه حكومة الصين الوطنية وهى تنتقل من الصين الأم إلى تايوان. وكل هذه التحف مزخرفة وملونة ذات لمعان لم ينطفىء برغم مرور مئات السنين. وأروع المعروض منها تماثيل الأباطرة والأميرات والآلهة إلى جانب تماثيل كونفوشيوس وبوذا والمقدسين الآخرين ، بالإضافة إلى الأوانى والمزاهر ذات النقوش البديعة التى لم يتغير لونها . وكل هذه القطع الثمينة لاتقدر بمال حتى إن إحدى قطع البورسلين المهربة بيعت فى مزاد أقيم فى لندن بمائة ألف جنيه استرلينى !

هكذا تتبعنا معالم الثقافة الصينية فى المتحف الوطنى فى تايبيه وهى ثقافة تربط الصين الأم وتايوان . . على طريق الوحدة .

● حلم الوحدة

تايوان مجتمع ديناميكى حديث واقتصادى متطور ، يتمتع بالكثير من النشاط والطاقة غير المحدودة والابتكارات الفنية البارزة والصناعات اليدوية الموروثة ، تماما كما يحافظ على القيم والأخلاقيات التقليدية المرتبطة بتعاليم كونفوشيوس الأخلاقية .

وفى تايبيه يمكن تتبع أصول الثقافة الصينية منذ عهد الامبراطور الأخضر الذى وحد القبائل فى المملكة الوسطى حوالى عام ٢٧٠٠ ق. م . بمايعنى امتداد التاريخ المسجل لحوالى خمسة آلاف سنة . وأغلب ما مر بالصين من أحداث محفوظ فى تايوان . ولم يستطع أى شىء على مدى التاريخ تمزيق وحدة الصين مهما اتسعت أنحاؤها . فالثقافة وأنماط الحياة وحتى اللغة لم تتغير فى كل مناطق الصين مما جعل العلاقات الداخلية وثيقة ثابتة .

وإذا كانت الأيديولوجيات الحديثة قد حفرت خندقا بين الصينيين ، فإن النظام الجمهورى الوطنى فى تايوان الذى يحكم من تايبيه ، والنظام الجمهورى الشعبى فى الصين الذى يحكم من بكين ، كلاهما يقول إنه هو نفسه حكومة كل الصين ، وكل من الحكومتين لاتجادل فى حقيقة أن تايوان إنما هى إقليم مكمل لأقاليم الصين الكبيرة . فالوطنيون يحكمون وفقا للنظام الرأسمالى والانفتاح الحر ، بينما الشيوعيون يحكمون على الأسس السياسية التى وضعها كارل ماركس ولينين وكلتا الحكومتين تريد إعادة توحيد تايوان مع الصين الأم تحت نظامها . . !

وبرغم الطريق السياسى المسدود بين النظامين ، فإن أيا منهما لم يطفىء جذوة العادات الصنية الموروثة . وللحقيقة فإن الثقافة الصينية التقليدية أصبحت هى العامل المشترك الذى ترتكز عليه جهود الصين الوطنية على أمل الوحدة . ويؤكد قادتها بحزم على أنهم أصحاب الحق الشرعى لحكم كل الصين فى مواجهة الحقائق السياسية لأنهم ـ كما يقولون ـ يحكمون تبعا للتقاليد والفلسفات والنواميس الصينية المتوارثة . وتعليم كونفوشيوس ماتزال تحكم المجتمع فى تايوان . وبعد أن تمتعوا بمستوى مريح للحياة حسب المقاييس والاستقرار السياسى عادوا إلى تدعيم وإحياء الفنون وتطويرها بخطا واسعة فى الموسيقا والأوبرا والرقص والمسرح وفنون صناعة السينما الحديثة ، وذلك استعدادا لإعادة الروابط الثقافية الكاملة مع الصين الأم حين توحدها مع تايوان . . !!

هذا الحلم تبدو ملامحه من خلال ماقاله رئيس جمهورية الصين الوطنية فى خطابه بمناسبة العيد الوطنى : « إن حزب الكومنتانج الذى تحمل أعباء تعبيد طريق تقدم أمتنا التاريخى ، يأمل فى التعجيل بحلول النصر وإعادة توحيدالصين تحت المبادىء

الشعبية الثلاثة . ومن خلال ذلك سوف نرفع قريبا علمنا الوطنى ، الرمز الخالد للحرية والعدل والمساواة والغد المشرق والدائم فى كل أنحاء الصين . إننا نأمل من كل الصينيين أن يكرسوا أنفسهم للعمل على تحقيق هذه المهمة التاريخية . وبذلك سوف يرفرف علمنا الوطنى على الوطن الأم فى أقرب تاريخ ممكن » . . !

الأمل الذى يراود أحلامهم فى تايبيه هو أن تنتصر الصين الوطنية ذات العشرين مليون نسمة ، على الصين الشعبية ذات الألف ومائتى مليون نسمة . . وأن تضمهما الوحدة معا تحت علمها وفى ظل نظامها ... !!

الفصل الخامس

نافذة على الصين

بحيرة « الشمس والقمر » تكاد تكون أشهر المعالم ذات الطبيعة الساحرة فى وسط تايوان . وحين كنا نخترق الطريق إليها من العاصمة تايبيه، كان علينا أن نمر بعدد من المعالم التاريخية شهدنا خلالها كيف تحافظ الشعوب على تراثها وتقاليدها ، وكيف تعمل على إحياء ماضيها ومظاهر أصالتها .

الشعب فى تايوان خليط من جماعات عرقية موغلة فى القدم ، كانت هى صاحبة الأرض . والثقافة والتاريخ ، انضمت إليها جماعات جذيدة مهاجرة زاحفة من الصين الأم على فترات متتالية ، كان آخرها عقب الصراع الأيديولوجى فى منتصف القرن العشرين الذى أدى إلى قيام جمهورية الصين الوطنية على جزيرة فورموزا . ومنذ قامت الدولة الجديدة نشأت رغبة عارمة فى المحافظة على الجذور ، جذور قديمة ثابتة تمثل الأصول السكانية القبلية التى تضم تسع قوميات بدائية لها ثقافتها وتقاليدها وخبراتها . . وجذور حديثة متشبثة تمثل المقيمين الجدد من المستوطنين الصينين الحالمين بالعودة إلى الصين الأم ، المرتبطين بمعالمها وآثارها وتراثها . . ومن خلال التمسك بالجذور جاء تحقيق تجارب ثقافية رائدة ، لعل أبرزها إنشاء « قرية فورموزا البدائية «وفتح » نافذة على الصين » .

● المدينة القومية

لماذا . . نافذة على الصين ؟

الحلم الدائم لسكان تايوان من أصحاب الأصول الصينية المهاجرة هو العودة إلى الصين الأم عندما يتم تحريرها كما يتصورون ، أو على الأقل عندما تتحدان ، وإذا لم

يكن الجيل الحالى قادرا على ذلك ، فقد يستطيعه الجيل التالى ، ولكن كل ذلك لايكون إلا بغرس التعلق بالوطن الأم فى أذهان أبناء الشعب ، وفتح عيونهم على المعالم التاريخية الرئيسية التى تضمها أرض الصين منذ عهودها الامبراطورية القديمة والتى لم يرها الأبناء وماتزال محفورة فى رؤوس الآباء والأمهات . .

كان السبيل إلى ذلك هو إقامة مدينة قزمية نموذجية صغيرة أطلقوا عليها اسم «نافذة على الصين » تضم ٧١ نموذجا من أشهر معالم الصين التاريخية فى منمنمات ، تم تصغيرها بنسبة واحد إلى ٢٥ تعبر عن الأساليب المختلفة للحياة فى مختلف عصور المجتمع الصينى .

زرنا المدينة القزمية فى منطقة لونجتان على مسافة ٣٥ كيلو مترا ، جنوب غربى تايبيه . منشآت المدينة وحدها أقيمت على مساحة ٢٠ ألف متر مربع واستغرقت عملية إنشائها منذ بدء تنفيذ مخططاتها عشر سنوات ، بدأت فى عام ١٩٧٥ حتى تم افتتاحها فى ٧ يوليو ١٩٨٤ . المعالم التاريخية البارزة فى الوطن الأم التى أقيمت فى المدينة هى صورة طبق الأصل من المعالم التى شهدناها قبل ذلك فى مختلف أنحاء الصين الشعبية . أبرز هذه المعالم سور الصين العظيم الذى أحيطت به المدينة القزمية ، والمدينة المحرمة بقاعاتها وقصورها وأسوارها وتقاليدها وتماثيلها ، بما فى ذلك ساحة تيان آن صن ، ومعبدالسماء فى بكين وممر شويونج والباجودا البوذية لمعبد فوكنج فى مقاطعة شانسى البالغ طولها الأصلى ٧٦ مترا بارتفاع ٢٢ طابقا والتى أنشئت عام ١٠٥٦ .

ومن بين نماذج المعالم الأخرى المثيرة قرية قومية « الهاكا » فى فوكتان والمقامة على نمط دائرى تحيط به الأسوار وتضم ٣٠٠ غرفة تشغل أربعة طوابق تضمن لسكانها الاكتفاء الذاتى . أول الطوابق مخصص للمطابخ والثانى لتخزين الحبوب والأغذية بينما الطابقان الثالث والرابع للإقامة وممارسة الحياة العائلية ، أما الساحة المركزية التى تتوسط الدائرة فمخصصة للاحتفالات والأعياد والمناسبات الاجتماعية .

هناك نموذج آخر لحدائق سوشو الأمبراطورية التاريخية من عصر « مينج » التى أقيمت عام ١٥٠٦ فى وادى بانجتسى ببحيراتها الصناعية وأشجارها وجسورها وقاعاتها ومقاصيرها وأرصفتها المبلطة وزخارفها وعمارتها الهندسية التقليدية .

ويحتل نموذج للقصر الصيفى مساحة واسعة ، وكذلك نموذج للمعبد السماوى فى شنتا الذى استغرق إنشاؤه فى عصر شينج تسعين عاما بين ١٧٠٢ و ١٧٩٢ والمقام على ارتفاع ألف متر فوق سطح البحر ، وكان البلاط الامبراطورى ينتقل إليه خمسة شهور كل عام . وتبعد عنه قليلا قاعة إلهة السماء فى معبد شينى بمقاطعة شانسى ، ويرجع تاريخ إنشائه إلى عام ١٠٢٣ م فى عصر سونج ـ تمثال الإلهة الأم يتمثل فى شكل الامبراطورة دواجر توشى تحيط بها تماثيل أربعين من نساء البلاط كل منها قطعة رائعة من كنوز الفن . وتشتهر عن هذه القاعة أسطورة تحكى عن انتشار المجاعة والجفاف الذى غطى أراضى المنطقة وارتفعت ابتهالات الصلاة داخل قاعة إلهة السماء ، فتساقطت على الفور أمطار غزيرة كانت كافية لزراعة ٤٠٠٠ هكتار من الأرض .

ومن أجمل النماذج مغارات لونجمان فى لويانج بمقاطعة هوتان . والتى بدأ نحتها فى عام ٤٩٤ م حتى٦٧٦ م خلال عصر تانج فى أعلى قمة الجبل خلف معبد فنجسيان . المغارات تمثل الطراز الهندسى الصينى وأروع زخارف الفن مع تمثال هائل لبوذا القاعد القرفصاء بطول ٨٥ قدما وحوله الملائكة حارسون والملوك وقوف بطول ٥٠ قدما .

● مظاهر النهضة الحديثة

كل هذه المعالم يتمثل فيها أفراد الشعب وطوابير الجيوش الامبراطورية فى تماثيل صغيرة يبلغ عددها ٥٠ ألف تمثال ، طول كل منها يبلغ حوالى ٧ سنتيمترات مصغرة بنسبة ١ إلى ٢٥ ، وشكلت بنفس النسبة الأشجار والطيور والحيوانات والحدائق ومختلف أنواع التماثيل . مصممو منشآت « نافذة على التاريخ » لم يكتفوا بالمعالم التاريخية فى الصين الأم ». ولكنهم أضافوا إليها معالم حديثة تعرض بالأرقام والبيانات مظاهر التطور الاقتصادى والاجتماعى والصناعى فى تايوان ، ليشهد الأبناء مدى النهضة التى بلغتها بلادهم خلال عدد قليل من السنوات . من بين ذلك نماذج من المشروعات الصناعية وخطوط قطارات الأنفاق والسكك الحديدية المكهربة التى تربط تايبيه ببقية المدن الرئيسية ، وكذلك أرصفة ميناء تايشونج ومطاحن الدقيق وصهاريج تخزين البترول والغاز ومحطة الكهرباء الرئيسية ورافعات الشحن ، بالإضافة إلى

الشاحنات البرية وسفن الشحن البحرية التى تنقل الصادرات والواردات . ومن أجمل النماذج مطار تايبيه وطائراته التى تتحرك على الأرض وتصعد وتهبط فى مدارج المطار ، وحديقة الحيوان ومسجد تايبيه الكبير ومنشآت جامع تايوان والقاعات التذكارية لشيانج كاى شك وصن يات سين والمتحف الوطنى .

هكذا تنفتح النافذة على الصين الأم لتجمع بينها وبين جمهورية الصين ، ولتمتزج أمام عيون أبناء الشعب فى تايوان كل معالم الحضارات الصينية مع مظاهر النهضة الحديثة فى وطنهم الجديد .

هنا يشهد الأبناء بالنماذج والأرقام والبيانات المتجددة حقيقة المعجزة الاقتصادية التايوانية وتطورها ، وكيف استطاعت تايوان تحقيق فائض نقدى كبير أخذ يتراكم فى خزائنها بسبب الزيادة الضخمة فى صادراتها بالنسبة لوارداتها ، وكيف تجاوز الاحتياطى النقدى ٣٠ مليار دولار ومايزال يسجل ارتفاعا مطردا وراسخا ، وكيف أصبحت الجزيرة بحجمها المتواضع الذى لايزيد عن ٣٦ ألف كيلو متر مربع إحدى أغنى دول العالم حتى إن دخل الفرد فيها بدأ يتجاوز هذا العام ٦ آلاف دولار . وقد تحقق كل ذلك من خلال اقتناع بأنه « إذا أردت أن تبنى بلدا غنيا ، يجب عليك أولا أن تجعل الشعب غنيا ، فإذا أثرى الافراد ازدهر الوطن » .

● قرية فورموزا الحضارية

التجربة الثقافية الثانية نشهدها حين نصل إلى تايشونج ، ثالث أكبر مدينة فى جزيرة تايوان ، ونلتقى فى جنوبها الشرقى ببحيرة « الشمس والقمر » صن مون ليك وشواطئها . فى هذه المنطقة نزور « قرية فورموزا التقليدية » التى تمثل مرحلة بدائية من مراحل الحضارة الصينية القديمة .

القرية تمتد على مساحة ٦٢ هكتار (الهكتار = ١٠ آلاف متر مربع) وكان الهدف من إقامتها المحافظة على تراث تايوان منذ الزمن الذى كانت تستوطن الجزيرة فيه تسع قبائل أو قوميات لا يزال المنحدرون منها يفخرون بجذورهم فيها ويعتزون بانتمائهم إليها . إنها تعرض المعالم البيئية التى عاش فيها الأجداد خلال مراحل حضارتهم

الصينية القديمة ، بما فيها التقليدية ذات الطابع المميز ، ومظاهر الحياة العامة والخاصة .

● المجتمعات السكانية

شهدنا معالم القرية مقسمة إلى تسعة أقسام تمثل أساليب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفنية لكل مجتمع من المجتمعات السكانية .

ففى نموذج مجتمع «يامى » » الذين كانوا يسكنون جزيرة «لانيو » نشهد كيف تقوم حياتهم على صيد الأسماك . هنا القوارب الصغيرة ذات المجاديف التى يستخدمها فردان أو ثلاثة فى ملكية خاصة ، وهناك القوارب الكبيرة للصيد التعاونى يشارك فيها بالجهد عدد من الأفراد يقسمون حصيلة الصيد بينهم بالتساوى . حياة أبناء القبيلة تقوم على الصيد وصناعة القوارب وتجفيف الأسماك وتمليحها . . كل فرد يبذل جهدا مساويا لقدرات عمره ، الجميع أسرة واحدة ليس لها زعيم . فكل منهم يعرف واجبه ويدرك حقوقه فى ظل النظام التعاونى المشترك . وتتغير مهمات الأفراد حسب تغير الفصول والشهور . الرجال الناضجون يتولون صناعة السفن والقوارب وبناء البيوت وصيد الأسماك وصنع المشغولات المعدنية والأوانى الفخارية . والنساء عليهن فلاحة الأرض وجمع الحصاد وإعداد الطعام ونسج الملابس . ويترك للكبار أصحاب الخبرات صناعة الصدريات الذهبية والخوذات الفضية وتصميم زخارف المبانى وديكوراتها وكل ما يحتاج للمهارات الفنية . وهؤلاء يتمتعون بالاحترام والتبجيل ويترك لهم تنظيم عمليات الرى وتقديم الأضحيات والقرابين للآلهة الحارسة .

أما قرية قبيلة « آمى أكبر المجتمعات القبلية فهى تستوطن سهول وادى تايتونج وسفوح مرتفعات وسط تايوان حيث الأنهار والقنوات والأراضى الخصبة الصالحة للزراعة . وهم يشكلون عدة تجمعات قروية أسرية تضم كل منها حوالى ٥٠٠ فرد من الأقارب ، ولخصوبة أرضهم وسهولة ريها فقد برعوا فى شئون الزراعة وحرث الحقول مستخدمين الثيران ، بالإضافة إلى اشتغال قلة منهم فى الصيد النهرى . ويتميز مجتمعهم الأسرى بالتنظيم الإدارى والمجالس القروية وتلعب المرأة دورا متميزا فى العشيرة، بينما الرجال فى حكم الأتباع والمرءوسين .

وتتحمل المرأة مسئولية الحصاد وتجفيف وتخزين المنتجات الزراعية سواء فى القاعات المقامة خارج البيت مستقلة عنه أو على جوانب جدران الأكواخ السكنية المصنوعة من أعواد البامبو والقش والمبنية من طبقتين مزدوجتين ، بينما لكل كوخ بابان متباعدان بحيث لايسمح للرياح العاصفة أن تدخل بشكل مباشر إلى داخل البيوت إذ تنكسر حدتها بين البابين غير المتقابلين . وتبرع النساء فى الصناعات اليدوية الريفية وبخاصة فى صنع الأوانى الفخارية التى تستخدم فى الطبخ والتخزين والتسخين وحفظ الأرز وتنقية مياه الشرب ، بالإضافة إلى الصحاف التى تحمل الأضحيات والقرابين والتى تدفن مع صاحبها فى قبره بعد الموت .

وهم يحرصون على الروابط الأسرية بحيث يخصص فى كل كوخ غرفة للإبن أو البنت عندالزواج . . فإذا زاد العدد بحيث لا يستوعبه الكوخ فإن الأب يقيم كوخا آخر على مساحة أخرى غير بعيدة من كوخ الأسرة .

وقبل انتقال العروسين إلى البيت الجديد يقام احتفال دينى فى كوخ الوالدين تقدم خلاله فطيرة الأرز قربانا للآلهة مع دعوات بألا تنفصل عرى الروابط الأسرية بين البيتين . وتتميز الأكواخ من الداخل بالزخارف اللونية والرسوم وتماثيل آلهة السماء المنحوتة على الأعمدة الخشبية التى ترفع السقوف لتضمن لها الأمن والاستقرار .

● القديم . والحديث

النماذج التى تضمها قرية فورموزا الحضارية تتميز بأن كلا منها أقيم فى بيئة طبيعية مماثلة للبيئة التى تعيش فيها كل قبيلة ، بجبالها وأنهارها وسفوحها وقنواتها وحقولها وحدائقها وأنماط مساكنها وبيوتها وتقسيماتها الداخلية وساحاتها الخارجية . أما ممثلو كل قبيلة فيرتدون زيهم الشعبى ويقومون بأداء رقصاتهم على أنغام مسيقاهم وطبولهم ويقفون أمام مشاغلهم الصناعية ينسجون وينحتون ويزخرفون ويؤدون كل الأعمال اليدوية التى يتميزون بها ، ويمارسون حياتهم تماما كما يعيشونها فى بيئاتهم الأصلية . . حتى الطعام يقدم بنفس الطريقة التقليدية وفى الأوانى الفخارية دون اللجوء إلى أى من الأدوات أو الآلات الحديثة .

الرجال يؤدون الدور نفسه الذى يؤدونه حسب طبيعة مجتمعهم ، والنساء يمارسن كل أعمالهن التى يمارسنها فى قراهم ، والأطفال من حولهم يلعبون ويمرحون ويلهون دون اللجوء إلى أى نوع من الألعاب الحديثة . . فصورة الحياة البدائية تعرض بطريقة طبيعية لايمسها أى تجديد أو تحديث حتى يمكن الحفاظ على الماضى الذى لايريدون أن يفقد أو يضيع مع دورة التاريخ .

المقابلة بين القديم والحديث تبدو فور اجتياز البوابة الفاصلة بين قرية فورموزا والجانب الآخر المواجه لها . هنا أنشئت حديقة أوربية رائعة على النمط الحديث تمتد على مساحة ستين ألف متر مربع ، تزهو بالخضرة والزهور والورد فى أحواض منسقة تنسيقا بديعا ، تتناثر بينها النوافير ، بينما تتوسط الحديقة نافورة موسيقية ضخمة تتراقص مياهها بأشعة الليزر فى استعراضات ملونة تقدم ٥٧٦ نوعا من التشكيلات على الأنغام الموسيقية المتباينة شرقية وغربية .

فى أقصى الحديقة يقع مبنى متحف الفنون الذى يضم مجموعة من معروضات التراث الحضارى المختارة من المشغولات اليدوية والصناعات التقليدية التى تتميز بها كل قومية من القوميات .

المعروضات كلها تعطى صورة باذخة لثقافات الحضارات القديمة فى تايوان ، كما تربط بينها وبين الثقافات الصينية بمختلف ألوانها وفنونها على مدى التاريخ فى أرض الصين الأم .

المشهد كله تطل عليه ثلاثة أبراج صينية أوسطها من خمس طبقات يرتفع إلى ٩٠٠ متر بينما البرجان الآخران من ثلاثة طوابق . الإطلالة من فوق البرج الأوسط تقدم مشهدا متكاملا لقرية فورموزا ، ولبحيرة الشمس والقمر ، ثم لمعالم تجربة ثقافية أخرى متميزة لنطل عليها من بعيد « مجمع فوكوانج شان » .

● تجربة مجمع ثقافى

« فوكوانج شان » تعنى « جبل بوذا المضىء » . لفت أنظارنا ونحن نطل من فوق

البرج حيث شهدنا على بعد تمثالا مذهبا هائلا يقوم على قمة الجبل قرب مدينة «كاوشنج» وهو يطل على ساحة واسعة تضم مجموعة من المبانى متباينة الأشكال والأحجام .

قالت لنا مرافقتنا : هذا المجمع أقيم على مساحة لاتقل عن ٥٠ هيكتارا (نصف مليون متر مربع) . وهو تجربة ثقافية مثيرة من نوع خاص . . حتى ولو بدا لكم فى صورة معبد بوذى .

فى الطريق حدثتنا عن قصة إنشاء المجمع والرجل الذى أنشأه . . قالت : قبل اثنين وعشرين عاما ، فى سنة ١٩٦٧ وقف الراهب العلامة شنج يون المسئول عن مكتب الخدمات البوذية فى المنطقة ، يطل على هذا المكان الذى لم يكن سوى أرض مهملة على سفح الجبل تغطيها الأعشاب ولا تطؤها أقدام إنسان . وراح يتذكر المراحل التى مر بها منذ ترك بيته فى شنجو وأصبح راهبا فى سن الثانية عشرة ، ثم درس فى الكلية الدينية فى نانكين ليلتحق بعدها بالدراسات العليا ليتخرج ويحصل على الدكتوراه ويعين مديرا لعدة مدارس ثم رئيسا لتحرير عدة صحف . وبعد الصراع المذهبى فى الصين رحل إلى تايوان عام ١٩٤٩ وراح يتابع طبع ونشر الدراسات البوذية حتى تولى مسئولية مكتب الخدمات فى كاوتشنج . وخطر له وهو يطل على هذه المساحة الواسعة من الأرض القريبة من مكتبه إنها مناسبة لتنفيذ مشروع طالما ملأ خياله. فقرر أن يبيع مقر مكتب الخدمات الذى كان قد أقيم بحصيلة صناديق النذور، وأن يضيف إليها قيمة مبيعاته من الكتب والدراسات البوذية التى أخذ يطبعها بالملايين ويوزعها على أتباع البوذية المنتشرين فى جميع أنحاء العالم حيث يتلقى منهم هبات ومعونات هائلة لتنفيذ مشروعه . وقاد حملة شاركه فيها الأهالى والرهبان لإعداد الأرض التى أطلق عليها اسم « أرض بوذا الطاهرة » وبدأ بالجهد المشترك إقامة أول مبانى فوكوانج شان عند أقدام سفح الجبل ، لتتدرج مبانيه الأخرى بعد ذلك صعودا حتى القمة ليصبح خلال سنوات قليلة أضخم مجمع ثقافى دينى تعليمى اجتماعى صحى تشغل مبانيه مساحة النصف مليون متر مربع ، هو الأكثر شهرة فى جميع أنحاء تايوان .

المشهد بالغ الإثارة وخاصة عند قمة الجبل الذى يستقر عليه أضخم تمثال مذهب لبوذا طوله ١٢٠ قدما أى حوالى ٣٥ مترا ، يحيط بقاعدته ٤٨٠ تمثالا مذهبا لتلاميذه و٣٠٠ تمثال لحوارييه تمتد على طول الساحة المواجهة . حول جوانب الساحة أقيم ١٤ الف و ٨٠٠ تمثال للرهبان البوذيين .

الأكثر إثارة هو المشاهد المجسدة المتتابعة فى مجموعة القاعات الرئيسية التى تستقبل الزائرين والتى تمثل مراحل انتشار البوذية وحياة « جاوتاما بوذا » وقصة الصراع بين الخير والشر ، والسبيل الخير للوصول إلى السمو وبلوغ « النير فانا » من خلال أتباع طريق الفضيلة والأعمال الطيبة .

● الكل فى واحد

ولكن ليس هذا هو بيت القصيد بالنسبة للتجربة الثقافية المتميزة . فالأهم هو ما أقيم فى نطاق المجمع من معالم رئيسية تحقق الكثير من الخدمات للإنسان وتتناول كل مناحى الثقافة بصرف النظر عن التوجه الدينى . فقد تم فى إحدى طبقات المجمع إقامة مدرسة تضم جميع مراحل التعليم من الرياض إلى التعليم العالى ، ولا يكتفى فيها بتدريس العلوم الدينية المتصلة بالبوذية ، ولكن التعليم يشتمل على المواد الحديثة بما فيها اللغات والرياضيات والعلوم الطبيعية والتقنية والبحثية ، ويلحق الخريجون بكلية الدراسات البوذية للحصول على درجة الأستاذية . ويسمح للقادمين من أى دولة فى العالم بالالتحاق بهذه المعاهد . كما أن الإقامة والتغذية والتعليم بالمجان دون مقابل وتتضمن البرامج التعليمية للفتيات دراسة التمريض والدراسات الطبية المعاونة .

دراسة التمريض تهدف إلى : تدعيم الهيئة الطبية فى المستشفى التخصصى الذى يشكل أحد أقسام المجمع للخدمات الطبية والاجتماعية . هذا المستشفى يستقبل المرضى ويقوم بعلاجهم بالمجان سواء كانوا من العاملين داخل المجمع أو من خارجه .

يتبع الجهاز الطبى سيارات إسعاف طبية مجهزة لتلبية أى نداءات لطلب العلاج . ولا يكتفى المستشفى بتلبية احتياجات المرضى ولكنه يزود المحتاجين منهم بالملابس والأغذية والأدوية دون مقابل . وضمن الأجنحة جناح مخصص للعجزة وكبار السن

الذين يحتاجون للرعاية و يبحثون عن الراحة والأمان ، بالاضافة إلى جناح آخر لليتامى والأحداث ، يتلقون فيه العلم ويتمتعون بالحرية والسعادة والأمن الاجتماعى .

أما الجانب التثقيفى فيتم من خلال المكتبة التى تضم عشرات الآلاف من الكتب الدينية والأدبية والاجتماعية والعلمية والدراسات البوذية ، ومن خلال قسم خاص للنشر وطباعة الكتب تحت اشراف الجمعية الثقافية . كما يوجد متحف يضم الآثار التراثية للبوذية والمعروضات التاريخية التى تحكى تاريخ الحضارة فى البلاد .

برغم أن هذه التجربة الحية تقوم بها مؤسسة دينية بوذية إلا أنها نموذج يمكن أن يحتذى لدعم الجهود الثقافية فى أى مجتمع يؤمن بقيم الحياة . . وحرية البشرية .

الفصل السادس

متحف الشمع للأباطرة

متحف الشمع أحد المعالم المميزة فى تايبيه . . يعرض مراحل تاريخ الفن من خلال التماثيل الشمعية للأباطرة الذين تولوا الحكم منذ « هوانج تى » الامبراطور الأصفر الذى يعدونه أبا الشعب الصينى والذى تولى العرش عام ٢٦٩٨ قبل الميلاد . ومن خلال المعروضات فى المتحف يستطيع الزائر تتبع الشخصيات والأحداث التاريخية والسياسية والاقتصادية والثقافية للنهضة الصينية ، كما يمكنه أن يشهد بعض التحف الأثرية الثمينة المعروضة فى جوانب المتحف من مختلف العصور . والتماثيل المعروضة لاتكتفى بالأباطرة فقط . . بل وبأهم الشخصيات الأخرى البارزة فى مختلف الحياة والذين أثروا فى مسيرة البلاد حتى العصر الحديث . ومايلفت النظر فى التماثيل الشمعية أنها كلها ترتدى الأزياء التاريخية والتيجان مما يعطى فكرة كاملة عن الحياة الاجتماعية والملابس الفاخرة الثمينة التى تطورت فى الصين على مدى التاريخ .

قبل أن ندخل المتحف نلتقى بمجموعات من ورش الاعمال الفنية والصناعية والثقافية تقدم فى معارض متتابعة يعمل بداخلها الفنانون والبارعون فى مختلف الصناعات والمهن وكلهم يرتدون الملابس التقليدية التى كان يرتديها رجال الصناعة والفنون ، ويعملون بنفس الأجهزة والآلات والأدوات التى كانت تستخدم فى العصور القديمة ، وهم يمارسون العمل فى مشاغلهم وورشهم بل وبيوتهم الشعبية أيضا . هذا غير النجارين والحدادين والنحاتين والخطاطين والرسامين والمثالين والصياغ وصانعى المجوهرات والتحف ، كما يقدم الرياضيون والمصارعون والراقصون والموسيقيون ولاعبو الأكروبات ألوانا من مختلف فنونهم واستعراضاتهم فى الساحة الوسطى المواجهة لقاعات متحف الشمع .

عند مدخل قاعة الشمع يستقبلنا على الجانبين الإلـهان الحارسان المذكوران فى الأساطير الصينية القديمة وهما الأخوان « شين تو» و « بولو » . وهما معروفان بنفوذهما المسيطر على الأرواح الشريرة ، لهذا فهما يقفان عند الباب ليدفعا الأرواح الشريرة إذا حاولت الدخول وليحميا أصحاب المتحف وضيوفه من أى إزعاج .

● الامبراطور أبو الصينيين

وبنظرة سريعة نجد أن محتويات متحف الشمع من التماثيل تصل إلى ٦٣ شخصية بين أباطرة وسياسيين وفلاسفة وحكماء وزوجات أباطرة . يتقدمهم على يسار الزائر أول الأباطرة هوانج تى أبو العينين الذى جاء بعد الحكام الأسطوريين وحكم بين عامى ٢٦٩٨ و ٢٥٩٧ ق . م يقولون إنه هو أول من اخترع البوصلة وكان رائد التقدم الثقافى والأدبى والعلمى . وهو امبراطور محارب قوى وجاء للصين بالمغنطيس والعجلات وشيد أول أبنية من الآجر فى البلاد وأقام مرصدا لدراسة النجوم وأصلح التقويم وأعاد توزيع الأرض على الأهالى .

ثانى الأباطرة هو « يو » الذى حكم بين عامى ٢٣٥٧ و ٢٢٥٥ ق . م وكان أول ماقدمه للمصلحين أن وضع فى خارج باب قصره طبلا يضربونه إذا أرادوا أن يسمعوه شكواهم ، ولو حايكتبون عليه مايشيرون به على الحكومة . وكان غنيا فى غير زهو عظيما فى غير ترف ، وكان يلبس قلنسوة صفراء ومئزرا قاتم اللون وهو نفس اللباس الذى وضع على تمثاله الشمعى . ولم يكن يتحلى بالجواهر ولم تكن ثيابه مطرزة . وقد كانَ أقدر من حكم «جونج ـ جو » طوال عهدها كله ورجحهم عقلا وأطولهم عمرا وأحبهم إلى قلوب الشعب .

تمثال الامبراطور الثالث يحمل اسم «شوون » وهو البطل الذى جاهدلحماية البلاد من فيضانات نهر هوانج ـ هو والذى أصلح التقويم وضبط الموازين والمقاييس . وتقول الأساطير المقدسة أن خمر الأرز عصر فى أيامه وقدم للامبراطور ، ولكنه صبه على الأرض وقال متنبئا : «سيأتى اليوم الذى يخسر فيه أحد الناس بسبب هذا الشىء ملكا ». ثم نفى من كشف هذا الشراب المسكر من البلاد وحرم على الناس شربه . ولكن جاء من

بعده الامبراطور «جى ـ بى» صاحب التمثال الشمعى الرابع وكان شاذ الأطوار فأراد أن يسلى نفسه هو وزوجته فأمر ثلاثة آلاف من الصينيين أن يموتوا ميتة هنيئة بالقفز فى بحيرة من النبيذ . . !

● يلعب الشطرنج مع الإله

هناك امبراطور آخر هو «وو ـ بى » أحد أباطرة أسرة شانج وكان كافرا يتحدى الآلهة ويسب روح السماء ويلعب الشطرنج مع ذلك الروح ويأمر أحد أفراد حاشيته بأن يحرك القطع بدل الروح . فإذا أخطأ سخر منه ثم أهدى اليه كيسا من الجلد مملوءا دما وراح يسلى نفسه بأن يصوب إليه سهامه . وقالت اللافتة أمام تمثاله إن صاعقة أصابته فأهلكته .

أما جوسيين آخر ملوك أسرة شانج فكان مخترع عصا الطعام . ويحكى عنه أنه قال « لقد سمعت أن لقلب الإنسان سبع فتحات » وأحب أن نثبت صدق هذا القول فجرب ذلك فى وزيره الذى مات بالطبع . وكانت تاكى زوجته مضرب المثل فى الفجور والقسوة، فكانت تعقد فى بلاطها حفلات الرقص الخليع وكان الرجال والنساء يمرحون عراة فى حدائقها . فلما غضب الناس من هذه الفعال عمدت تكميم المتزمرين على أن يمسكوا بأيديهم معادن محمية فى النار أو يمشوا على قضبان مطلية بالشحم ممتدة فوق حفرة مملوءة بالفحم المشتعل .فإذا سقط الضحايا فى الحفرة طربت الملكة حين تراهم يشوون فى النار . . !

نأتى بعد ذلك إلى الامبراطور « تشو وويانج » مؤسس أسرة تشو عام ١١٢٢ ق . م. وفى عهده كانت القدوة والفضيلة موضع كل الاحترام . وكانت فترة حكمه منارةللموسيقا والفنون والعادات الطيبة والتقدم الثقافى .

وكانت زوجته » باوتزو » وتمثالها إلى جانبه تلعب على آلة مثل الجيتار ـ غايةفى الجمال وكان يحبها كل الحب . ولكن كان من الصعوبة بمكان أن يجعلها أحد تضحك . وليبعث الامبراطور فى قلبها السرور كان يأمر حراس السور العظيم بأن يدقوا أجراس الإنذار بدعوى هجوم الأعداء على السور وكان يتكرر منه ذلك أكثر من مرة وفى كل مرة

كانت قوات الحراسة تندفع لترد الأعداء فلا تجد شيئا . وكان الأعداء قد تنبهوا إلى ذلك فانتهزوا فرصة دق أجراس الإنذار وعدم استجابة الحراس الذين تصوروا أنها كانت إنذارا رائعا من أجل سرور الامبراطورة . . فانقض الأعداء على السور ، ولم يتحرك حراس السور لإنقاذ الامبراطور .

● وحد الصين

أعظم الأباطرة الذين وقفنا طويلا أمام تمثاله الشمعي هو «شي هونج ـ دي » . مكتوب على اللافتة أمامه أنه الفاتح الذى وحد كل ولايات الصين المنقسمة فى دولة واحدة عام ٢٥٩ ق. م . وأعلن نفسه أول ملك على كل الصين . وقد وجه همه إلى وضع دستور ثابت دائم لامبراطوريته الجديدة . وكان أول عمل قام به أن حمى بلاده من البرابرة المجاورين لحدود الصين الشمالية بأن أتم الأسوار التى كانت مقامة من قبل عند حدودها ووصلها كلها بعضها ببعض . وقد وجد فى أعدائه المقيمين فى داخل البلاد موردا سهلا يستمد منه حاجته من العمال لتشييد السور العظيم الذى يعد رمزا لمجد الصين ودليلا على عظيم صبرها ، فهو أضخم بناء أقامه الإنسان فى جميع عصور التاريخ. وقد وجه الامبراطور شى هونج عنايته بعد ذلك إلى شئون الإدارة ووضع القواعد العامة التى قامت عليها الدولة الصينية فى المستقبل . وقضى على قوة زعماء الإقطاع ، ومهد السبيل لرخاء الصين بإنشاء الملكيات الزراعية . وكان يسير فى البلاد متخفيا ومن غير حرس ، يتفقد أحوالها ويتعرف على مافيها من خلل وفساد وسوء نظام، ثم يصدر الأوامر الصريحة لإصلاح هذه العيوب ومعاقبة المفسدين .

وكان من أثر قضائه على الأسر القوية أن أضحى فى شيخوخته لانصير له ولامعين ، وحاول أعداؤه أن يغتالوه ، ولكنه كان يكشف أمرهم فى الوقت المناسب ويقتل بيديه من يحاولون قتله . وكان يجلس على عرشه والسيف مسلول فوق ركبتيه ولايسمح لأحد أن يُعرف فى أى حجرة من قصوره الكثيرة ينام ليلته .

● الامبراطور العادل

من أسرة تانج نشهد تمثال أعظم أباطرتها « تاى تزونج » الذى حكم الصين من عام

٦٢٧ إلى عام ٦٥٠ م . وقد مهد هذا الامبراطور السبيل إلى أعظم عصور الصين خلقا وإبداعا فقد نعمت فى عهده بخمسين عاما من السلام النسبى واستقرار الحكم . وقد رفض كل أسباب الترف ، وأخرج من قصره ثلاث آلاف من السيدات اللاتى جىء بهن لتسليته . ولما أشار عليه وزراؤه بوضع القوانين الصارمة لقمع الجرائم قال لهم : «إنى إذا أنقصت نفقات المعيشة ، وخفضت أعباء الضرائب ، ولم أستعن إلا بالأمناء من الموظفين حتى يحصل الناس على كفايتهم من الكساء . . كان أثر ذلك فى منع السرقات أعظم من أثر أقسى أنواع العقاب »

وزار الامبراطور يوما سجون شانجان فرأى فيها ٢٩٠ سجينا حكم عليهم بالإعدام . فلم يكن منه إلا أن أرسلهم ليحرثوا الأرض ، واكتفى منهم بأن يعدوه بشرفهم أن يعودوا إلى سجنهم . وكان أن عادوا جميعا . وبلغ من سرور الامبراطور أن أمر بالإفراج عنهم جميعا . وسن فى ذلك الوقت قانونا يقضى بألا يصادق أى امبراطور على حكم بالإعدام إلا بعد أن يصوم ثلاثة أيام .

● رجل المتناقضات

هناك أيضا تمثال الامبراطور » منج هوانج ـ أى » وإلى جواره زوجته « يانج جوى ـ فى» كان هذا الامبراطور رجلا اجتمعت فيه كثير من المتناقضات البشرية . فقد كان يقرض الشعر ويشن الحرب على البلاد البعيدة ، وفرض الجزية على تركيا وفارس وسمر قند . وكان عهده الممتد بين ٧١٣ و ٧٥٦ م . يتميز أول الامر بالتقشف والتزمت وأغلق مصانع الحرير وحرم على نساء القصر التحلى بالجواهر أو الملابس المطرزة . ثم اختتم عهده بالاستمتاع بكل فن وبكل وسيلة من وسائل الترف . وضحى آخر الأمر بعرشه لينعم ببسمات حبيبته » يانج جوى ـ فى » . وكان حين التقى بها فى سن الستين بينما كانت هى فى السابعة والعشرين . وقد أحبها الامبراطور لأنها كانت عنيدة ذات أطوار شاذة متغطرسة ولكنه كان يسميها » الطاهرة العظيمة » وأخذ عنها فن الاستمتاع بضروب الترف والملاذ . . وانصرف ابن السماء عن الدولة وشئونها وعهد بالسلطة الحكومية كلها الى أخى السيدة الطاهرة وهو رجل فاسد عاجز . فقام حاكم إحدى الولايات الشمالية بالتمرد وأعلن نفسه امبراطورا على البلاد ، وتداعت الحصون بين

يديه، وفر منج من عاصمة ملكه . وتمرد الجنود الذين كانوا يحرسونه أثناء فراره واختطفوا حبيبته « يانج جوى فى » وقتلوها أمام عينيه .

بعد أن ينتهى طابور أباطرة الصين . . نلتقى بعدد من فلاسفة الصين بينهم لوتسى وكنفوسى شيوس ، ثم بعدد من سياسييها بينهم « صن يات صن » و« شيانج كاى شيك » و « ماوتسى تونج » و «شوان لاى » ثم كبير أدباء الصين الحديثه «لوهتسون . الذى وضع أساس الأدب الصينى الحديث وكان من أبرع المفكرين والثوار . .

● مدينة المائة معبد

الآن « نقوم بجولة سريعة فى بقية أنحاء جزيرة تايوان نستكمل بها رحلتنا لمشاهدة الوجوه الأخرى للجميلة . . التى لم تعد عذراء . . » !

الفصل السابع

الداوية والكونفوشية

ونتجه إلى الجنوب . .

نحن فى مدينة « تاينان » . . العاصمة القديمة للجزيرة خلال عهد كوكسنجا منذ عام ١٦٨٤ وحتى عام ١٨٨٧ م ، والتى ماتزال حتى الآن المركز التقليدى للثقافة فى الجزيرة . . ويطلق عليها اسم » مدينة المائه معبد » لأنهاتضم بين حناياها أكثر من ٢٢٠ معبدا رئيسيًّا وعددا غير محدود من الهياكل المحلية . ويتمثل فيها كل فرع من فروع العقائد التقليدية . من بين أجمل هذه المعابد معبد » شنج هوانج » أى مدينة الإلّه . أنشأ هذا المعبد ابن الامبراطور كوكسنجا فى القرن السابع عشر . . ويتعبد فيه الطاويون متبعين العقيدة الطاوية التى وضع أساسها الأول الحكيم » لاوتسى » الذى يقول إن «طاو أو داو » هو البداية العظمى لجميع الأشياء فى العالم وأن الناس الذين يريدون أن يحيوا حياة صالحة يجب أن يتبعوا » داو » وهى كلمة معناها الصحيح فى الأصل « الامتناع عن التفكير » وهكذا يرى الداويون أن التفكير أمر عادى سطحى لاخير فيه للجدل أو النقاش يضر الحياة أكثر مما ينفعها . أما الطريقة الطبيعية فيمكن الوصول إليها بنبذ العقل وجميع مشاغله والالتجاء إلى حياة العزلة والتقشف والتأمل الهادىء فى الطبيعة . ويقول لاوتسى « إن الطبيعة جعلت حياة الناس فى الأيام السابقة بسيطة آمنة . فكان العلم كله هنيئا سعيدا . ثم حصل الناس على المعرفة فعقدوا الحياة بالمخترعات وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية . فالعاقل هو من يبتعد عن هذا التعقيد الحضارى وهذا التيه المفسد الموهن وعن المرتشين والمصلحين والمخترعين . فسر الحكمة كلها وسر الصناعة كلها هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة ونبذ أساليب الخداع وأفانين العقل وقبول جميع أوامر الطبيعة الصادرة من الغرائز .

قبل أن ندخل لمشاهدة المعبد الطاوى (الداوى) نلتقى فى واجهته بغابة كثيفة من

الأشجار . . ثم ننحدر فى ممرات متعرجة إلى داخل المعبد . . تقول لنا مرافقتنا إن بيوت الداويين أيضا تأخذ نفس الشكل . . تمر اليها من خلال ممرات ملتوية قبل أن تجد أول حجرة من حجرات البيت . . وإذا لم تكن هناك غابة كثيفة من الأشجار فيكفى أن تكون أشجارها مرسومة على لوحة عريضة لينحدر الزائر بعدها فى الممرات الجانبية للبيت . وسر هذه الاشجار والرسوم والممرات المتعرجة هو أنها تصد الشياطين والجن والمردة وأرواح الشر عن دخول البيت أو المعبد .فالداوى يؤمن بأن فى الإمكان منع الروح الشريرة إذا اندفعت داخلة إلى البيت وذلك إذا وجدت فى وجهها جدارا يصدها ، فهى تفاجأ بالجدار أو الشجر الكثيف أثناء اندفاعها السريع فتصطدم به . . وتموت . .

وقد استمر الصينيون إلى أمد طويل مؤمنين بالداوية كما يؤمنون أيضا بالكونفوشية وظلت العقيدتان معا زهاء خمسمائة عام من بعد وفاة لاوتسى وكونفوشيوس عقيدتى كل الصينيين . وجاءت العقيدة البوذية إلى الصين . وعرف الناس أن هناك أميرا يسمى جاوتا مابوذا » يتحدث عن « النيرفانا » التى يمكن أن يصل اليها الأسلاف عندما يحققون السمو الروحى ، ولما كان الصينيون قد عبدوا الأسلاف دائما ويريدون أن يعرفوا ما حدث لأسلافهم بعد الوفاة فقد اتجهوا لمعرفة البوذية التى تفسر الحياة بعد الموت وتفسر الطريق إلى النيرفانا . وسرعان ماانتشرت تعاليم بوذا فى جميع أنحاء الصين . وحتى عندما اعتنق بعض أفراد الشعب الصينى العقيدة البوذية وتخلّوا عن الداوية والكونفوشية . . فهو لم ينبذهما تماما بل أضاف العقيدة الجديدة إلى العقيدتين القائمتين. ويوصف الصينيون بأنهم الشعب الذى يعتنق ثلاث عقائد . . هى الداوية الكونفوشية والبوذية . . وقد يعتنق صينى واحد هذه العقائد الثلاث معا كما سبق أن قالت لنا مرافقتنا ونحن فى تايبيه . . !

● لقاء بين الحكيمين

العلاقة بين لاوتسى وكونفوشيوس بدأت والأخير مازال فتى صغيرا يفكر كثيرا فى أمور العقيدة والفلسفة ، بينما الأول كان قد تجاوز الخمسين ويعمل أمينا للمحفوظات الامبراطورية بمدينة « لو ـ يانج» . . تحدثنا إلى كبير الرهبان فى المعبد . قال لنا الرجل :

فى ذلك اليوم أكثر من ألفين وخمسائة من السنين جرى نقاش داخل قاعة المكتبة كاد يتطور إلى خلاف حاد . فقد كان الفتى قد أرسل مذكرة إلى لاوتسى يقول فيها إنه يتمنى أن يلقاه . وبينما هو ينتظر مد يده إلى إحدى المخطوطات التى كتبت على الخيزران وكانت هى كتاب « التغييرات » الذى درسه كل الحكماء القدامى وتعلموا منه الإنسانية والعدالة ، وعندما دخل لاوتسى إلى القاعة وأطل إلى مايقرأه الفتى نظر إليه فى سخرية وهو يتأمل كلمتى العدالة والإنسانية المذكورتين على غلاف المخطوط . قال لاوتسى يخاطب الفتى كونفوشيوس :

ـ لماذا تدرس كثيرا تلك الأشياء التى درست فى الأيام الخوالى ؟ وماهى الأهمية أو الفائدة التى تجنيها من وراء ذلك ؟

وأجاب كونفوشيوس :

ـ أعتقد أن الناس ولدوا أخيارا وأن التعليم والمعرفة يبقيانهم أخيارا . ولكن قبل أن نحصل على المعرفة الجديدة يجب أولا أن نقف على المعرفة القديمة . وهذا هو السبب فى أنى أرى وجوب دراسة حكمة الآباء الأولين بعناية واهتمام .

غضب ذلك الرد لاوتسى . وقال للفتى :

ـ إن الناس الذين تتحدث عنهم قد استحالوا وعظامهم إلى تراب ولم تبق سوى كلماتهم . وإذا ماحانت ساعة الرجل العظيم قام من فوره وتولى القيادة . أما قبل أن تحين تلك الساعة فإن العقبات تهدم كل ما يحاوله . ولقد سمعت أن التاجر الموفق يحرص على إخفاء ثروته ويعمل عمل من لايملك شيئا على الإطلاق . فدعك من غرورك ومن برامجك الكبرى لتعليم العدالة للعالم . فكل ذلك لن يجديك فتيلا وهذا هو ماأحببت أن أقول لك .

وعند انتهى لاوتسى من كلامه آدار ظهره لكونفوشيوس وغادر القاعة . وعاد كونفوشيوس إلى أتباعه فسألوه جميعا عن لقائه مع لاوتسى وعن رأيه فيه وفكر الفتى قليلا ثم قال :

ـ قد عرفت من قبل أن التنين المهول يركب الريح ويخترق السحاب ويعلو فى أجواز

الفضاء . وقد قابلت اليوم لاوتسى . ولست أستطيع أن أجد له مثيلا غير التنين . . !

وكان هذا هو الفرق الذى سألنا عنه بين لاوتسى وكونفوشيوس . . هذا هو لاوتسى كما تحدث عنه الراهب الداوى ، ولكنه لم يقل لنا شيئا عندما سألناه عن سر تحول الداوية من عقيدة فلسفية إلى عقيدة تؤمن بمعبودات لم يذكرها صاحب العقيدة أيام حياته قط وراح أتباعه يعبدون كل أنواع التنين . . والفيران . . وبنات آوى . . والثعابين . .

ولكن . . كما فعلها لاوتسى من قبل . . فعلها الراهب . وأدار لنا ظهره . . وقضى .

● تحول خطير

والذى عرفناه أن الداويين فى الصين قد راحوا يعتقدون فى أشياء أخرى غريبة . فآمنوا بأن هناك رمادا معينا ونوعا آخر من الحجارة والكتابة لها قوة السحر . . إذا حملها المرء فإن الرصاص لاينفذ فى جسده ولايستطيع أن يقضى على حياته . . وأن حامله لايمكن أن يخوض فى الماء قط . . كا لاتستطيع النار أن تحرقه . . وبمضى الزمن زاد اعتقادهم فى الشياطين والمردة والجن ومصاصى الدماء والغيلان وكل أرواح الشر .

واعتقد الداويون أن أسوأ الأرواح الشريرة موجودة فى الجبال ، وأن لجميع الجبال أرواحها الشريرة ، وكلما زاد حجم الجبل زادت قوة روح الشر فيه .

وبدأ الداويون يحكون آلاف القصص عن الشياطين فى الجبال وراحوا يقصون كيف يتمكن بعض المؤمنين من قتل مردة الشياطين فى هذه الجبال .

ومن بين هذه القصص التى تناقلوها : أنه على سفح جبل«لى لو » كان المسافرون يقفون لدى مرورهم عند فندق صغير يستريحون فيه . ولكن أحدا لم يجرؤ قط على المبيت فيه ، إذ كان كل الناس يتحدثون عن الروح الشريرة التى تهبط من الجبل ومعها خمسون شيطانا فى زى رجال ونساء ، يقتلون كل من قضى فى الفندق ليلته .

وذات يوم نزل بالفندق ساحر يدعى «ييه ـ هى » أقسم إلا أن يبيت فيه ليلته . . وكان الساحر قد وصل بعد ظهر ذلك اليوم واستراح . وعندما أظلم الليل أشعل شمعة

وأخذ يقرأ بعض القراءات التى تبعد كل أرواح الشر عنه . ومرت ساعة تبعتها أخرى وأخذت الشمعة تذوب شيئا فشيئا ويتناقص حجمها ويقل منها الضوء . ولم يكد الليل ينتصف حتى انفتح الباب فجأة واندفع عشرة رجال طوال القامة يرتدون ملابس قاتمة السواد ، وجلسوا جميعا على مقربة من « بيه ـ هى » ودون أن يقولوا كلمة واحدة راحوا يلعبون القمار . وتظاهر الساحر بأنه لايراهم . ولكنه أخرج من جيبه مرآة سحرية صغيرةوأطل فيها . وعندما شهد ماعكسته صفحة المرآة اصطكت أسنانه بشدة ، فقد كشفت له المرآة عن عشرة كلاب رهيبة تجلس على مقربة من بعضها البعض ، يثير مرآها الخوف والرعب . على أن الساحر ماأسرع مااستعاد هدوءه . . ونظر أمامه من وراء المرآة فإذا العشرة لايزالون فى جلستهم يلعبون القمار . . وإن بدوا أمامه فى المرآة السحرية التى تكشف الحقيقه كلابا رهيبة .

عندئذ عرف الساحر من هم هؤلاء المقامرون . ومن أجل أن يزداد تأكدا ، التقط شمعة وأخذ يروح ويجىء فى الغرفة متظاهرا بالقراءة . وراح وهو يسير يقترب قليلا قليلا من الجالسين القرفصاء . وعندما أصبح قريبا جدا منهم . دفع شمعته فجأة نحو واحد منهم . وفى لحظة ارتفعت صيحة ذعر رهيبة وانتشرت رائحة شعر يحترق . ولم يكد يحدث ذلك حتى أخرج الساحر على الفور سكينا وألقاها على المقامر . وقفز بقية المقامرين وهم يهرولون مسرعين ، بينما تركوا صاحبهم الذى طعنه «بيه ـ هى » بسكينه ملقى على الأرض لايتحرك . وعندما انحنى الساحر ليرى ماإذا كان قد قتل المقامر حقا « رأى أمامه كلبا مهولا ميتا . . لاحراك به »

● إكسير الحياة

بعد خمسمائة سنة من اختفاء « لاوتسى » الحكيم . . قيل إن أحد الداويين واسمه «تشانج ـ تاو ـ لينج » قد اكتشف شرابا يجعل الناس يحيون حياة الخلود ، وسمى هذا الشراب «إكسير الحياة » وكان الشراب فى صورة سائل شاع بينهم وأسرفوا فى استعماله إسرافا يقال إنه أودى بحياة بضع عشرات من أباطرة الصين المدمنين .

وبدأ الداويون على الفور يعبدون الرجل الذى اخترع إكسير الحياة حتى إن سلالته

لاتزال تعبد حتى اليوم . ويسمى زعيمهم وحفيد تشانج تاولينج باسم الامبراطور اللؤلؤى الذى يعيش فى جبال التنين ويحكم أتباعه بسلطة ملك . . !

عقيدة كونفوشيوس غير كل تعاليم لاوتسى والداويين المحدثين . والصينيون لا يقولون عنه إنه نبى وهم لايعبدونه ولكنهم يرون أن الكونفوشية منهج خلقى وأسلوب من أساليب الحياة إلا أنها استطاعت أن تقوم بالدور الذى يمكن ان يقوم به أى دين سماوى فقد استطاعت أن تؤدى جميع الوظائف التى يرجى أن يؤديها أى دين من الأديان.

والواقع أن كونفوشيوس نفسه كان رجل دين تمثلت فيه كل العقائد الصينية القديمة ، وكان اتباعه ومريدوه رجال دين بكل مافى هذه الكلمة من معنى برغم ابتعاد تعاليمه عن ذكر كل مايتعلق بالسماء والطقوس الإلهية وهو إذا كان قد تجاهل هذه الأسس التى يفترض من أنها أسس كل دين ومظاهره الرئيسية فهو لم يفعل ذلك عن استخفاف ولكنه كان يرى أنها ليست من جوهر الدين فى شىء .

فالعقيدة التى جاء بها كونفوشيوس تدخل بالفعل تحت ما يسمى بالمذهب الإنسانى فهو أول إنسانى ظهر فى العالم . وهو يرى أن على المرء أن يصل الى ما يتمناه من مراتب التقدم والسعادة عن طريق ذاته فحسب ويكون ذلك بتثقيف نفسه وتهذيبها لأن المعرفة الصحيحة هى وسيلة الحياة السعيدة الهانئة والمعرفة الصحيحة هى التى تخلق الرجل السعيد الموفق ، وهى التى تخرج العائلة الصالحة والحكومة العادلة وهى التى تؤدى بوجه عام إلى خلق عالم تسوده العدالة والمحبة والسلام . وكان يقول :

« إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أنحاء الامبراطورية بدأوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدأوا بتنظيم أسرهم . ولما أرادوا أن يهذبوا أنفسهم بدأوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم . ولما أرادو ان يكونوا مخلصين فى تفكيرهم بدأوا بتوسيع دائرة معارفهم . . وهذا التوسع فى المعارف لايكون إلا بالبحث عن الحقيقة »

● ضريح كوسينجا ومعبد كونفوشيوس

ونزور ضريح كوسينجا البطل القومى ، الذى يقوم وسط حديقة تغطيها الأشجار الاستوائية التى تداعبها النسمات . بنى الضريح عام ١٨٧٥ بأوامر من بلاط المانشو فى بكين . وكان هذا قرارا متميزا إذ كان دليلا على أن قائد المقاومة ضد المينج قد عفى عنه وأنه أصبح بطلا قوميا . فى وسط قاعة الضريح يقوم تمثال لكوسينجا يحيط به القائدان اللذان سانداه وشاركاه فى المقاومة ، وصفت حول الضريح تماثيل لضباطه البالغ عددهم ١١٤ والذين جاءوا معه إلى تايوان . فى الجزء الخلفى من القاعة يوجد نصب لأم كوسينجا مع أمرائها الصغار بالإضافة إلى متحف صغير تعرض فيه وثائق ومتعلقات البطل القومى ومراحل حياته . كان الضريح قد دمر أثناء الغزو اليابانى ولكن بعد حرب العالمية الثانية أعيد ترميمه عام ١٩٦٢ . وتقام ثلاثة احتفالات بذكراه كل عام . أولها فى فبراير تاريخ استسلام الهولنديين لكوسنجا ، والثانى فى ٢٩ إبريل يوم الانسحاب ، والثالث فى ٢٧ أغسطس يوم ميلاد البطل .

وتوجد ثلاث كتل من ضريح كوسينجا فى معبد كونفوشيوس أقدم المعابد فى تايوان. وكانت إقامة المعبد فى عام ١٦٦٥ بمعرفة ششنج شنج ابن كوسينجا الذى خلف اباه باعتبار المعبد مركزا لنهضة الثقافة الصينية فى تايوان ، وقد تم ترميمه ست عشرة مرة منذ ذلك التاريخ ولايزال حتى الآن يمثل المعبد الأول لكونفوشيوس فى تايوان يعكس طراز الكلاسيكية فى الجزيرة .

أقيم المعبد داخل مجمع من الحدائق . له أبواب ذات أقواس وجدران داخلية تقسم المجمع إلى قاعات تستخدم كأماكن لتدريس علوم المذهب الكونفوشيوسى للتلاميذ الصينيين أما المدفن فى وسط قاعة « النجاح العظيم » فقد رمز إليه بلوحة معدنية فوق قاعدة حجرية تزينها الورود كل صباح وتحيط بها لوحات مقدمة من مختلف أباطرة أسرة شينج ولوحة أخرى من شيانج كاى شيك . ويجرى الاحتفال بذكرى مولد كونفوشيوس فى فجر يوم ٢٨ سبتمبر من كل عام .

تقول لنا مرافقتنا إن حفيد كوسينجا سلم تايوان لقوات المانشو عام ١٦٨٤ ، وكان

هناك فرد من أسرة آخر أباطرة مينج ومعه خمس من محظياته يقيمون فى الجزيرة ، وعندما بلغته أنباء سقوط تايوان فى يد أسرة المانشو انتحر لفوره ، وتعبيرا عن ولائهن لسيدهن شنقت المحظيات الخمس أنفسهن فى نفس اليوم ، وقد أنعم على المحظيات المنتحرات بلقب الأميرات الملكيات وأقيم لهن ضريح يضم أجسادهن للتعبير عن تقدير الصينيين لفضيلة الولاء والشرف والتضحية بالنفس . وتضم قاعة ضريحهن أيقونات لعرائس خمس مزينة بالجواهر والملابس الحريرية .

● بيت إله المدينة

بالقرب من نفس المكان يوجد معبد بوذى أقيم فى القرن السابع عشر بواسطة شنج سنج ابن كوسينجا الذى خلفه تكريما لابنه . فى وسط القاعة يقوم تمثال «البوذا السعيد» تحرسه تماثيل أربعة حراس مشعة الوجوه قاسية المظهر . وأمام بوذا يوجد مذبح للقرابين تحيط به زخارف تمثل التنين .

المقيمون فى تانيان يؤمنون بأن سلوكياتهم وتصرفاتهم تقدم فى تقارير إلى آلهة السماء والجحيم بواسطة شنج هوانج إله المدينة . ومعبد هذا الإله يضم تمثالا ملتحيا للإله يحرسه محاربان على كل من الجانبين .

يوجد معبد آخر للامبراطور مصنوع من اليشب الأخضر ، وهو معبد طاوىٌّ يضم تمثال الامبراطور . إلى يمينه يقوم هيكل يطلق عليه اسم « بلاط القديس المحارب » مكرس للإله المحارب ذى الوجه الأحمر « كواك كونج » ويتوسط القاعة مائدة لتقديم القرابين تشعل فيها أعواد البخور التى لاتنطفىء ويدخل التاويون إلى المعبد وهم منحنون راكعين على ركبهم ويشعلون أعواد البخور وهم يضمون كفوفهم فى صلاة قصيرة ويغادرون المعبد بظهورهم من الباب الخارجى .

● الحصون الهولندية

ونواصل التجول فى مدينة تانيان ...

فبخلاف المعابد تتمتع المدينة بمجموعة من المعالم التاريخية الهامة فهناك « برج شيكان » من أطلال قلعة يوفيدنتا الهولندية حيث استسلم الهولنديون المهزومون

للامبراطور كوسنجا وعلى مبعدة حوالى عشرين دقيقة نلتقى ببقايا الحصن الهولندى «زيلانديا» وغير بعيد من حصن زيلانديا نجد «الحصن المسالم الخالد» الذى أقامه الصنييون للدفاع عن الشاطىء ضد الغزاة اليابانيين عام ١٨٧٥ . وفى متحف الشمع فى تانيان تعرض نماذج حية تمثل تاريخ المجتمع التيوانى الشهير .

إلى الشمال من المدينة نلتقى بأكبر بحيرتين فى تايوان : «بحيرة المرجان» و«بحيرة خزان تينجوين» . عند هاتين البحيرتين يقوم منتجعان بديعان حيث يتمتع الزوار والسائحون بركوب القوارب والتجديف وصيد الأسماك وما إليها من الأنشطة البحرية . والجبال المحيطة ،بالبحيرتين نموذجية للاستمتاع بنزهات تسلق الجبال والسير بين الأشجار مع مشاهدة المناظر الرائعة على الجزيرة . أما السباحة فى مياه البحيرتين فغير مسموح بها لا لشىء إلا أن هذه المياه هى مصدر الشرب لسكان المنطقة كلها والسباحة يمكن أن تكون سببا للتلوث .

غير بعيد من المكان يقوم «هيكل ملوك الجبل الثلاثة» . إنه معبد بوذى أقيم منذ ثلاثمائة عام تكريسا لثلاثة إخوة كانوا السبب فى إنقاذ حياة الامبراطور . وكان وراء الإخوة الثلاثة معلمهم الذى تنازلوا له عن الجائزة التى منحها لهم الامبراطور . وتكريما لهم منح الامبراطور كلا منهم لقب «ملك الجبل» نسبة إلى ثلاثة جبال فى مقاطعة فوكين ، ويضم الهيكل اثنى عشر تمثالا تمثل المعابد المقدسة مع زخارف ملونة رائعة على مائدة القرابين والجدران الملفتة للأنظار .

● مع قبائل آمى ويامى

منطقة «هوالين» هى موطن الآميين أكبر القوميات القبلية فى تايوان البالغ عددهم أكثر من ٦٠ الف نسمة . ومشاهدتهم خلال احتفالات نهاية الحصاد تبعث البهجة فى القلوب . وأفراد قبيلة الآمى ينتهزون فرصة قدوم السائحين فى هذه المناسبة ليقدموا أروع رقصاتهم الشعبية وأغانيهم التقليدية المثيرة وهم يرتدون ملابسهم الوطنية الزاخرة بالألوان الجميلة ويقدمون عروضهم فى قرية آمى الثقافية . . كما نشاهد أجمل هذه العروض فى قرية «فنج بن» حيث تقدم لوحات شعبية راقصة تؤديها فتيات غاية فى الحسن والجمال .

أما قبيلة يامى فموطنها « جزيرة الأوركيد » وعدد أفرادها لايزيدون عن ألفى فرد . هذه الجزيرة تعتبر جنة الفردوس سواء للأهالى أو للزائرين لجمال زهورها الملونة حيثما تحركت أو تنقلت بين أنحائها . الجزيرة مساحتها ٤٥ كم٢ تعيش فيها أصغر الجماعات القبلية فى تايوان وهم يعيشون حياة بدائية فى غاية البساطة معتمدين على مايجلبه البحر لهم من أسماك وكائنات بحرية مع مايجمعونه من الفواكه من أشجار الجزيرة ، وهم يستخدمون قوراب خشبية بسيطة من صنع أيديهم وبأدوات ووسائل بدائية طبيعية . وهم بارعون فى صناعة التحف الجميلة التى ينتجونها ويشكلونها بطريقة غاية فى الدقة والإبهار .

وبرغم أن الحكومة أقامت لهم مساكن من الكونكريت فى جزيرة الأوركيد ، إلا أنهم يرفضون الإقامة فيها ويفضلون أن يعيشوا فى بيوتهم التقليدية التى أقامها آباؤهم قبل مئات السنين وتعودوا عليها . وهم يحفرون هذه البيوت تحت الأرض وفى أحضان سفوح التلال أو وراء جسور السدود التى تحميهم من العواصف الشديدة والرياح العنيفة التى تهاجم الجزيرة فى أوقات كثيرة كل عام. وفى هذه البيوت يقيمون غرفا للغزل والنسيج وخياطة الملابس والصناعة والسيراميك ومخازن لحفظ حاجاتهم ، والمواد الغذائية التى يحتفظون بها لمدد طويلة بالإضافة إلى أماكن النوم جماعات . . كما يقيمون أرضية خشبية أو سرادقات فوق أعمدة يقضون فيها الأمسيات الحارة فى الصيف .

هناك أسباب وراء استمرارهم فى حياتهم البدائية وتمتعهم بها . فخلال غزو اليابانيين لتايوان فى النصف الأول من القرن العشرين عزلوا الجزيرة تماما لتكون متحفا لأبحاث علم الإنسان أو الجنس البشرى ، ولم يكن مسموحا باستخدام الأدوات أو الآلات الحديثة أو الأجهزة المتطورة حتى يواصل أهل الجزيرة حياتهم البدائية دون اعتماد على العلوم الحديثة بقدرالإمكان . الآن وبعد زوال الغزو اليابانى وجد أفراد قبيلة إليامى أنهم أسعد حالا بانعزالهم وبحياتهم البسيطة البعيدة عن التعقيد .

التجول فى الجزيرة يستغرق حوالى ساعتين حيث متعة الجمال بين زهور الأوركيد التى تنمو بين الأشجار وثمار المانجو وجوز الهند الذى ينمو فى كل مكان . وفى الربيع يحضر السائحون إلى هذه الجزيرة ليستمتعوا ويتمتعوا برقصات وأغانى اليامى الشعبية التى

يقدمونها سواء على البر فى القوارب التى تتقافز على جوانبها الأسماك الطائرة والتى يسقط كثير منها داخل القارب وقد أقيمت للسائحين والزوار بيوت ضيافة وكازينوهات للمتعة والاستجمام حيث ترتبط الجزيرة جوًّا بمدينة تايتونج وتايبيه وكوتشنج كما أن هناك خطا ملاحيا للقوارب البخارية يربط الجزيرة بالمدن المحيطة .

• منابع الحكمة

المتعة التى لاتستطيع أن تنساها هى فى زيارة إلى « منبع الحكمة » كما يسمى أو منتجع «شى بن » ففى حضن الجبل عند منابع نهر « شى بن » يقوم هذا المنتجع حيث أقدم ينابيع المياه الحارة وحماماتها فى تايوان ،والتى سماها اليابانيون خلال غزوهم بمنتجع الحكمة .

قرية « شى بن » تمتد لمسافة ١٢ كيلو مترا على طول الشاطىء قرب مداخل مدينة تايتونج حيث تخترق الوادى الجبال الشاهقة والممرات الضيقة التى تختفى وراء المرتفعات المنعزلة فى غربى إقليم سشوان بما يحيط بها من أشجار الغابات الكثيفة والصخور العالية ومساقط المياه بالإضافة إلى غابات البامبو وفواكه الأوركيد وسكان الجبال أنصاف العراة .

المياه المعدنية الحارة تنبثق من عيون الجبل وصخوره وتتجمع المياه فى برك أوحمامات تظل فيها الحرارة عالية حتى أن أكثرها حرارة لايستطيع أن يتحملها الإنسان ولكن العيون ذات الحرارة المتوسطة فهى معقولة وبركها باتساع حوالى خمسة أمتار وبعمق متر ونصف المتر وتغذى مباشرة من المياه المتساقطة من الجبل . ولأن هذه المياه المعدنية حارة وقوية فإنها صالحة للحمامات العلاجية والاستشفاء ويقولون إن الاستحمام لست مرات لمدة ٢٠ دقيقة كافية لعلاج الأمراض التالية : هياج الأعصاب والحساسية والتهابات القروح والروماتيز والتهاب المفاصل وضعف الأطراف وضيق التنفس والشرايين .

وادى « شى بن » يستحق القيام بجولات مشيا على الأقدام . خلال الطريق ستلتقى « بمسابقط مياه اليشب الأبيض » وهى تسقط من ارتفاع حوالى كيلو متر واحد

مسببة دويا كبيراً يختلط بأصوات الطيور والحشرات الكثيرة الطائرة وضربات المياه على أعواد البامبو والحشائش الطويلة .

وعلى مسافة كيلو مترات قليلة تجد نفسك وسط أشجار غابة « شى بن » لتصل إلى حدائقها عبر جسر يمر فوق النهر . هنا تجد متعتك بين عالم الأشجار والممرات الضيقة وساحات الخيام والأكشاك الخيزرانية الخضراء والنهيرات والمساقط المائية والأشجار العتيقة المقدسة .

وبعد استراحة ممتعة فى هذا المكان تعود لتمر فى طريقك بقرية « تاى ـ ما ـ لى » . . وهى تمتد لمسافة اثنى عشر كيلو مترا على طول الشاطىء وباتساع مائة متر ، مياه الشاطىء زرقاء وخالية تماماً من أى ملوثات ، أما الرمال فناعمة هادئة تبعث الراحة فى النفوس .

القرية تقوم بشكل رئيسى على صيد السمك الذى يقوم باصطياده الصيادون مستخدمين اللانشات البخارية ، وهى ليست لنشات بالمعنى المعروف ولكن الواحد منها عبارة عن لوح أو مسطح من أعواد البامبو المربوطة جيداً والمحزمة بالحبال باتساع حوالى ستة أمتار، وهم يستخدمون موتورات خاصة يجلبونها من اليابان ...

السائحون والزوار يستطيعون المشاركة فى صيد السمك على هذه « الزحافات » وهى متعة رائعة لا تقدر بمال .



طالبات الجامعات المجندات ، يسرن فى خطوات عسكرية رشيقة وهن يعزفن الموسيقى



أحد مشاهد موكب الزهور . . يرضى المشاعر التقليدية للصينيين المحبين للألوان والرقص والتمثيل



فراشة بشرية تتراقص بأجنحتها الحريرية ذات الألوان الزاهية فى بداية احتفالات العيد الوطنى



الاوبرا الصينية . . فن يربط القديم والحديث فى تايبيه



رقصة التنين كما تقدم خلال العروض الاستعراضية فى احتفالات تايوان



طابور العرض العسكرى فى الساحة الكبرى . .

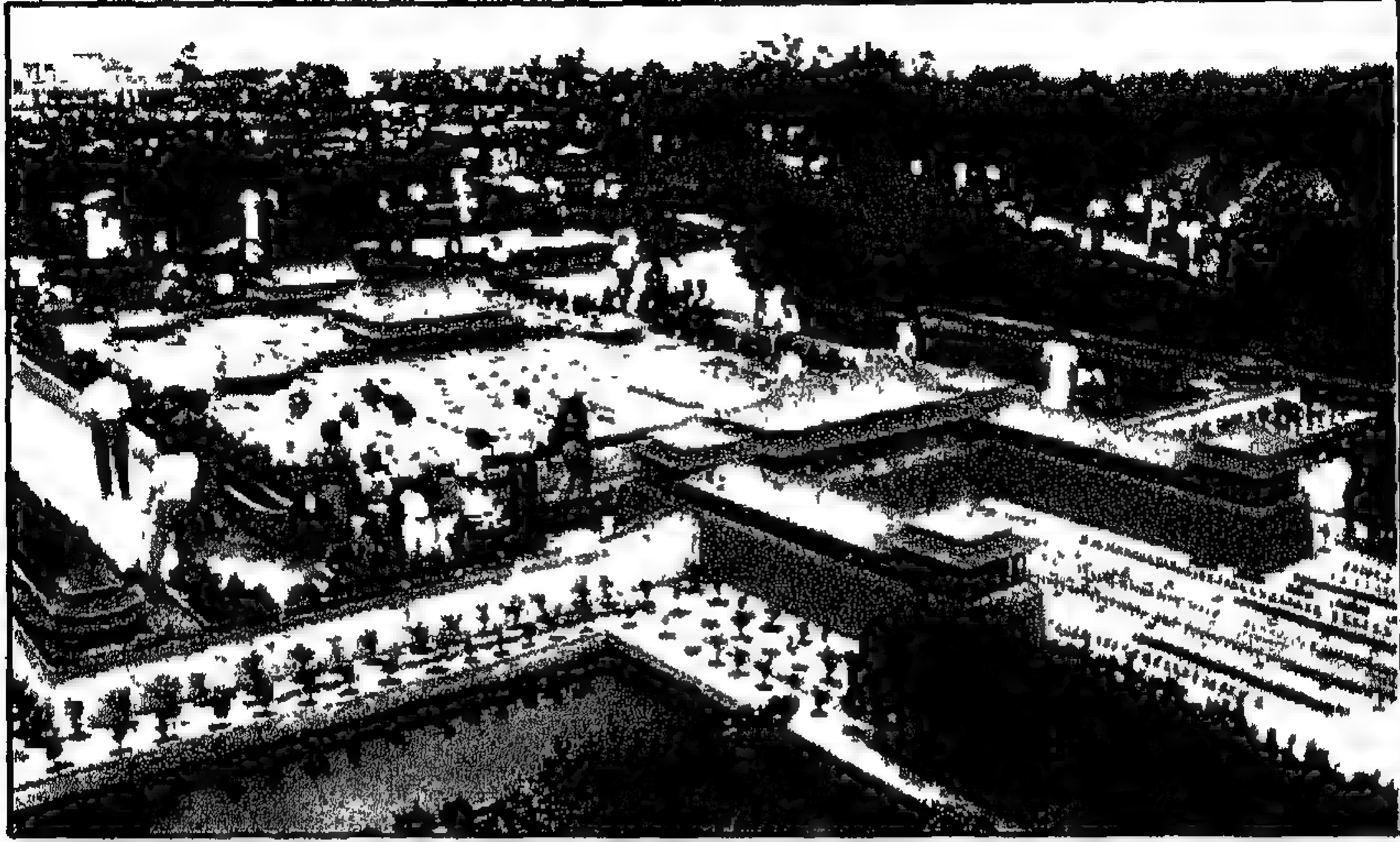
وصورة الزعيم « صن يات صن » تتصدر واجهة القصر



فتيات الجيل الجديد يتلاعبن بالورود والمراوح والبالونات فى تشكيلات العرض



المؤلف . . وإطلالة على المدينة القزمية . . « نافذة على الصين »



المدينة القزمية « نافذة على الصين » .



نموذج لسور الصين العظيم فى « نافذة على الصين »



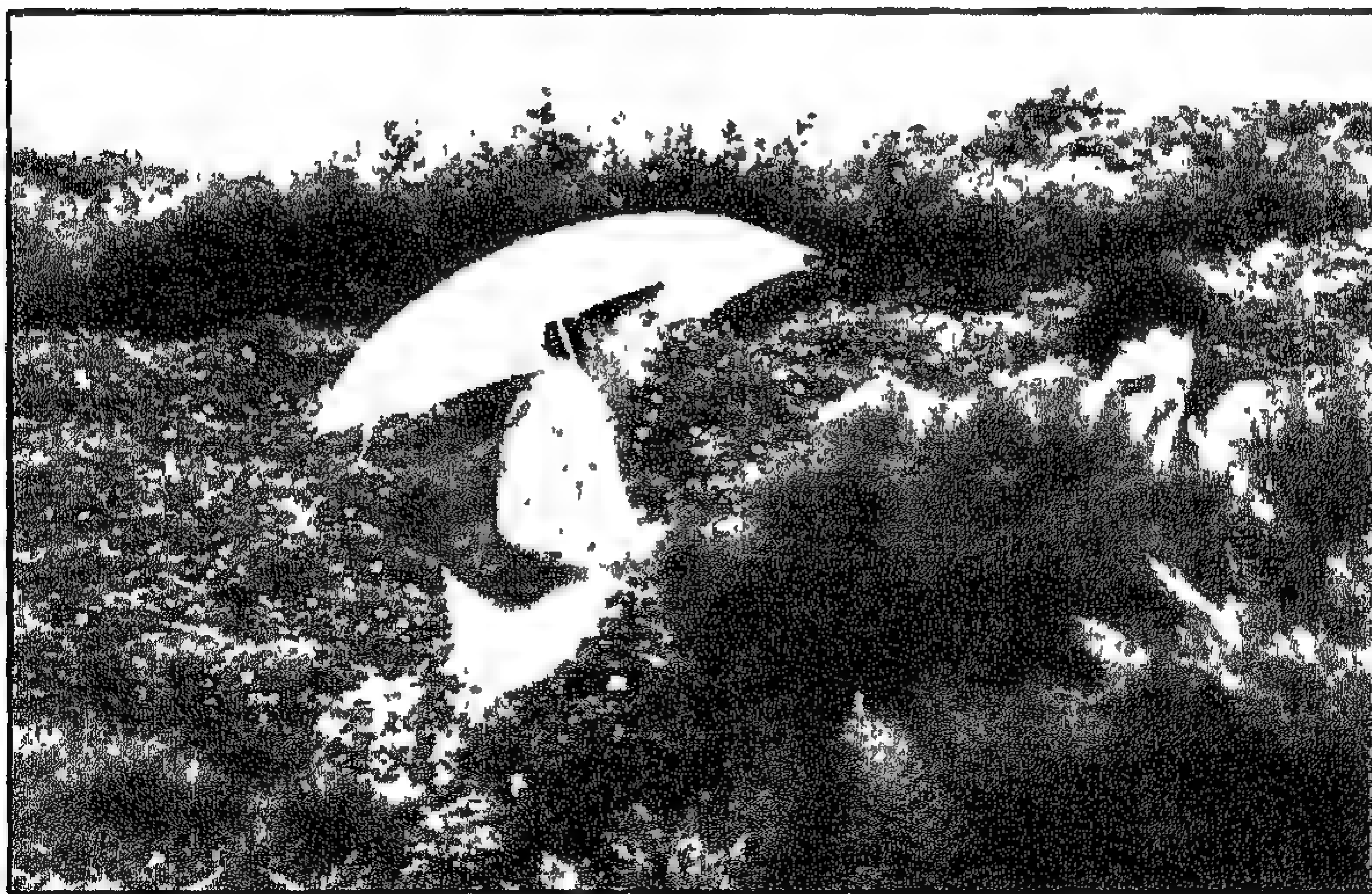
فى مصنع للإلكترونيات التى تشتهر بها تايوان



تمثال برونزى ضخم للزعيم " سن كاى سك " بارتفاع اكثر من ستة أمتار داخل ضريحه



زحام البشر والسيارات والمباني في تايبيه



حدائق الزهور في تايبيه

الباب الرابع

كوريا الجنوبية
أكبر النمور

الفصل الأول : الوصفة السحرية .

الفصل الثانى : عندما يتحدث التاريخ .

الفصل الثالث : كيانجزو .. المتحف المفتوح .

الفصل الرابع : سيول .. مركز القلب .

كوريا الجنوبية : على طريق العمالقة
النمر الأسطورى ومعجزته الاقتصادية

جلس الملك السماوى «هوانين» فوق عرشه يستمع إلى ابنه «هوانونج» فى استغراب كبير . كان الإبن يرجو أباه أن يسمح له بالهبوط إلى الأرض لينشر عليها السعاد فلطالما عاشت فى الظلمات . ولم يجد الملك السماوى إلا أن يستجيب . . واختار لولده إحدى القمم المرتفعة على جبل «ميوهيانج» مكانا لنزوله ومعه ثلاثة آلاف من الأتباع . وخلال مسير الأمير السماوى بين حنايا الأرض التقى مع دبة ونمر أعربا له عن رغبتهما فى التحول إلى هيئة غير حيوانية قريبة الشبه بهيئته إذا كان ينشد السعادة للجميع . فأشار الأمير إلى أحد الكهوف وطلب منهما أن يدخلا ويواصلا الصلاة مائة يوم لتحقق لها السماء أمنيتهما ، لكن النمر لم يحتمل الاستمرار داخل ظلمة الكهف ، فغادره متمسكا بالمساحة الواسعة من الأرض التى عاش عليها ، بينما قضت الدبة المدة المحددة كاملة لتتحول بعدها إلى حسناء رائعة الجمال .

كانت الرغبة الأولى للمرأة هى أن تنجب طفلا . .

ولم يجد « هوانونج » ما يمنعه من أن يتخذها زوجة له . وجلست تحت شجرة الصندل المقدسة تدعو وتبتهل . ولم تمض فترة حتى انتفخ بطنها ، وظهر حملها . وجاءها المخاض تحت جذع الشجرة لتلد «تانجون» الذى أصبح أول ملك بشرى على الأرض !

استمرت الحياة البشرية بناسها الجدد مدة مئات من السنين ، والنمر يجد متعته فى الحياة وسط البشر على الأرض الواسعة . ولكن شرور الناس بدأت تنتشر حتى ضاق الامير السماوى بهم ، فدعا أباه «هوانين» ليعيده إلى هيئته السماوية . ومضى هوانونج

مرتفعا إلى المساء تاركا مثله السماوية المقدسة ليهتدى بها الناس . .

بينما ظل النمر المتمسك بأرضه وأصله وكان «طوطما» دينيا قويا ، ويعتبر رمزا يعتز به الكوريون حتى اليوم ... !

***

الفصل الأول

الوصفة السحرية

عندما ذهبنا إلى كوريا الجنوبية كانت تداعب رؤوسنا الأسطورة التى لا يزال شعبها يحتفظ بقيمها السماوية ويتخذها شعارا لتقدمه وإصراره على صنع المعجزات . ومع أول خطواتنا رحنا نتذكر « الوصفة الكورية » التى قالها الجنرال « بارك شونج هى » لشعبه من أجل أن يحقق التنمية عقب توليه السلطة فى مايو ١٩٦١ وجعلها دستور حركة تحديث كوريا . هذه الوصفة السحرية تتركز فى كلمات تقول :

«إن أردتم الثراء ، فلابد أن تبذلوا الجهد مهما كانت التضحيات . وينبغى أن تعلموا أنه إذا كانت مواردنا محدودة ، فإن الإبداع والابتكار لاحدود لهما »

وهكذا بدأت التجربة الكورية الحقيقية منذ ذلك التاريخ ، بعد أن ظهرت البشائر مع انتهاء الحرب الكورية فى يوليو 1953 ،، وهى فترة كرست لإزالة الآثار النفسية والاجتماعية الناتجة عن الحرب الأهلية وتقسيم الوطن الكبير إلى شمال وجنوب .

والحق أن المعجزة الاقتصادية الكورية بدأت مع حكم «بارك » حتى أصبحت كوريا الجنوبية هى القوة الاقتصادية الثالثة عشرة فى العالم . وخلال فترة حكمه التى امتدت رسميا كرئيس منتخب للبلاد من عام ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٧٩ تاريخ اغتياله فى انقلاب عسكرى قادة «شون دوهوان » ثم خليفته «روه تاى وو » ـ وهما الرئيسان اللذان أصدرت المحكمة باستحقاقهما ـ بعد ثبوت تهم التمرد والخيانة والفساد عليهما ـ حكم الاعدام للأول والسجن لمدة ٢٢,٥ سنه ونصف السنة للثانى . وقد لعب دور كشف تورطهما الرئيس الجديد «كيم يونج سام » الذى نجح فى كسب تأييد شعبى كبير خلال السنوات الأخيرة وبخاصة بعد نجاح حملته ضد فساد كبار القادة والمسئولين .

ولقد صاحبت هذه الحملة التى قام بها الرئيس كيم يونج سام خطوة مهمة أكسبته التأييد الجماهيرى . ففى ٢٥ فبراير ١٩٩٣ وقبل دخوله أول اجتماع للحكومة المنتخبة الجديدة ، قدم كشف حساب بثروته معلنا تعهده بالخروج من الرئاسة بعد خمس سنوات وبلا أى تجديد . . أى خلال عام ١٩٩٧ . ولم يكتف الرئيس الجديد بذلك ، بل أصدر قوانين تفرض «الشفافية » للكشف عن حسابات الشخصيات السياسية والعامة ، ومكافحة الفساد بهدف قطع الروابط غير المشروعة بين الدوائر الاقتصادية والسياسيين . ولاشك أن احترام الرئيس الكورى نفسه لهذه القوانين قد دعم مصداقيتها ، وشجع الأجهزة المختصة على تطبيقها على الجميع . وقد فرض كيم يونج سام على أعضاء الحكومة اتخاذ الخطوة نفسها والإقرار بخضوعهم للمحاسبة قبل تولى مناصبهم . إلى جانب ذلك فقد فرض التطور السياسى والاقتصادى تطورا تشريعيا استهدف تذليل جميع معوقات التصدير وجذب الاستثمارات الأجنبية . وعلى الرغم من التزام الحكومة بفتح الأسواق تنفيذا لاتفاقية إنشاء منظمة التجارة العالمية ، فإن المنتجات الأجنبية تشكو البوار بالأسواق الكورية ، بعكس السلع الكورية التى تروج فى أسواق العالم . فالشعب الكورى شديد الاعتزاز بروح الوطنية وبكل ماهو كورى . وهو شعب يعمل بلا كلل لتحسين ظروف حياته ، وإنجاح خطط التنمية لبلاده .

لكن ... كيف استطاعت كوريا الجنوبية تحقيق معجزتها الاقتصادية التى وضعتها على قمة النمور الآسيوية الكبيرة . . ؟ !

• برنامج بارك والمعجزة

قد تكون المعونات الأجنبية ومعظمها من الولايات المتحدة ـ قد استهدفت تقوية الجنوب الرأسمالى فى مواجهة الشمال الشيوعى . ولكن الحكومة الكورية وخبراءها الاقتصاديين اعتبروا ذلك مجرد وسيلة وخطوة فى سبيل الوصول إلى الاعتماد على النفس على طريق تطوير آفاق التنمية التى ارتكزت فى الأساس على نطوير تكنولوجيا ذات خصائص كورية ، مكنت كوريا الجنوبية من اقتحام أسواق العالم . كانت هذه التكنولوجيا فى الحقيقة نتيجة استغلال القيادة الكورية لعلاقاتها بالغرب للحصول على

جزء كبير من المعونات فى صورة تكنولوجيا ومساعدات فنية حتى تحقق لها تراكما تقنيا وأيادى مدربة على أعلى مستوى للتعامل معها .

بدأت المعجزة الاقتصادية الكورية مع تولى الجنرال «بارك شونج هى » قيادة أمور البلاد . كان بارك ضابطا من أصل ريفى . تدرب فى الأكاديمية العسكرية اليابانية ، وخدم كملازم فى جيش كواتونج فى منشوريا خلال الحرب العالمية الثانية . وبعد انتهاء الحرب التحق بالجيش الكورى لعدة سنوات تحول بعدها إلى الخدمة المدنية . ولكنه عاد إلى أداء الواجب العسكرى عندما قامت الحرب الأهلية الكورية . وفى عام ١٩٦٠ ترقى ليتولى قيادة الجيش الثانى الذى قام بثورة عسكرية وإن ظل هو بعيدا عن الأمور السياسية الرئيسية . وخلال قيادة بارك استمرت الحكومة العسكرية حتى عام ١٩٦٣ عندما عجزت تماما عن مقاومة الضغوط للعودة إلى الحكم المدنى . وجرت الانتخابات الرئاسية فى منتصف أكتوبر حينما استقال بارك من السلك العسكرى وتقدم كمرشح للحزب الديمقراطى الجمهورى . وانتصر بارك على منافسه وتم انتخابه رئيسا للجمهورية . وأعيد انتخابه مرة ثانية فى عام ١٩٦٧ ثم فى عام ١٩٧١ للمرة الثالثة .

وخلال فترة رئاسته دعا بارك إلى برنامج لبعث النهضة الإصلاحية . وبتوجيهاته أعد الدستور من خلال المؤتمر الوطنى للاتحاد . وعلى ضوء بنود الدستور الجديد أعيد انتخاب بارك لست سنوات جديدة كرئس للجمهورية بلا قيود .

ولكن حكم بارك انتهى بمصرعه عام ١٩٧٩ برصاص أحد الخونة . وتعتبر السنوات الثانية عشرة التى قاد فيها البلاد هى فترة الازدهار التى قادت إلى النهضة المعجزة للبلاد من خلال برنامجه الاقتصادى . أما الفترة التى أعقبت مصرعه المفاجىء فقد اتسمت بالشكوك والنزاعات وانعدام الثقة خاصة أثناء تولى نائبه بحكم الدستور استكمال الفترة الرئاسية الباقية . وفى انقلاب عسكرى أطاح الجنرال «شون دو هوان » بالرئيس المؤقت ليتولى الرئاسة عام ١٩٨١ وفى ظل الحكم العرفى فرض شون يدا من حديد على أمور البلاد ، وواجه القوى والأحزاب المعارضة والحركات الطلابية بالحديد والنار . « وتولى من بعده خليفته روتاى وو» الذى ازدادت فى عهده المفاسد . وحين جاء الرئيس الجديد كيم يونج نجح فى كسب تأييد شعبى كبير خلال السنوات الأخيرة

خاصة بعد نجاح حملته ضد فساد كبار القادة والمسئولين ، وانتهى الأمر بمحاكمة الرئيسين الأسبقين وإدانتهما . واعتبر الحكم انتصارا كبيرا للرئيس الحالى « كيم يونج» وحكومته فى مواجهة الفساد .

• المقومات الأربعة

الحقيقة أن حركة النهضة والازدهار من خلال برنامج بارك الإصلاحى استمرت فى طريقها دون توقف ، لإقامة الصناعات الجديدة والتحول الاقتصادى الكبير . وتحسن الموقف المالى للبلاد حتى أصبحت كوريا الجنوبية الدولة الرابعة عشرة فى التصدير العالمى ولا يزال الازدهار الكورى الاقتصادى يواصل الصعود .

دخلت كوريا الآن فى سباق لمواجهة التحديات التكنولوجية خلال السنوات القادمة ومواصلة تنميتها الاقتصادية . وهى تتجه بشكل رئيسى إلى المزيد من عمليات التصدير لصناعاتها التى استطاعت أن تغزو بها العالم . وكان لابد أن تتجه هذه الصادرات لتكون عالية الجودة ، متميزة الصنع ، مع إنتاج متميز بالكفاءة المتزايدة . ومن خلال المقدرة الكامنة على التطور فى المستقبل ، من المتوقع أن تحافظ كوريا مع بداية القرن الواحد والعشرين على معدل مرتفع للناتج القومى بحيث يتجاوز بكثير الرقم الحالى وهو ٢٩٦ بليون دولار ، يرتفع معه متوسط نصيب الفرد من الناتج القومى إلى أكثر من الرقم الحالى الذى يبلغ ٩٧٩٠ دولار أمريكى سنويا . كما يتجاوز الناتج المحلى أكثر من الرقم الحالى وهو ٢٨٣ بليون دولار . . وعلى ضوء هذه النتائج فإن من المتوقع أن تحتل كوريا مركزا أكثر تقدما مما هى عليه الآن لتصبح فى عداد الدول العشر الأولى من حيث القوة الاقتصادية وفى مجال التجارة العالمية .

كل ذلك يحدث من خلال مقومات أربعة تتلخص فى : التخطيط السليم ، والعمالة الماهرة ، والتوازن فى الحقوق والواجبات ، والثقة بالنفس .

لقد قدمت كوريا الجنوبية أبرز الأمثلة على التحول الناجح السريع . وإذا كانت قد بدأت قفزتها بالنسبة لهياكلها الاقتصادية متأخرة عن تايوان مثلا بعشر سنوات ، إلا أنها

تعتمد على عدد قليل من التجمعات الصناعية العملاقة أبرزها سامسونج ، وهايونداى ، وجولدستار ، ودايو ، وبوهانج .

وكما قال بارك شينيل مدير الإعلام : إن كوريا ترى الآن أنها استكملت مؤهلات الدولة القوية ، وبات من حقها أن تضطلع بدور أكبر وحاسم فى الشئون الدولية . فلم يعد يلائمها الآن وصف النمر الأسيوى ، فقد تجاوزته إلى مرحلة «القطب الاقتصادى العالمى »

● ماذا يجرى فى المصانع

استطعنا أن ندرك خلال جولاتنا فى مختلف المنشآت الصناعية ، أن التطور الاقتصادى قد واجهته الكثير من المشكلات ، أغلبها الاعتماد على القروض الأجنبية أول الأمر . ولكن الحكومة استطاعت أن تلغى خطط الاقتراض ، وساعدها على ذلك صخامة الأرباح المتوفرة من عملية تصدير الخدمات واستمرار الزيادة فى الصادرات ، وخاصة الصناعات الثقيلة والصناعات الكيماوية سريعة التطور والتى تمثل أكثر من نصف إجمالى المنتجات الصناعية .

بدت لنا الصورة أكثر وضوحا عند زيارتنا لمصانع سامسونج للصناعات الإلكترونية . إن صورة التطور فى الصناعات الإلكترونية تبدو مثيرة بعد أن بات واضحا أن هذا القطاع يعتبر مصدرا مهما للعملة الصعبة ، لأنه يعتمد على التصدير بصفة أساسية . ولم تعد المسألة هى إنتاج أجهزة التليفزيون والفيديو والحاسبات والبرادات الكهربائية والغسالات وأجهزة التكييف وانتاج الموتورات والكومبريسورات . فقد تجاوزت ذلك إلى إنتاج ماكينات الطائرات وأجهزتها الإلكترونية ، ثم أفران الميكروويف والساعات والمعدات الطبية .

وخلال زيارتنا لمصانع السيارات وجدنا أن هذه الصناعة استطاعت أن تحقق تقدما كبيرا . وأصبحت سيارات هونداى وداوو للركوب تنافس السيارات اليابانية وتتفوق عليها فى صلابة وقوة جسم السيارة وتحمله للصدمات ، وتجد لها سوقا كبيرا فى أوروبا

وأمريكا . كما دخلت سيارات النقل والحافلات ميدان التصدير والمنافسة بكميات كبيرة.

كانت لنا زيارة أخرى لصناعات الحديد والصلب . أكد لنا مدير مصانع «بوهانج» للحديد والصلب التى تمتلك الحكومة غالبيتها ، أنها أصبحت هى العمود الفقرى للصناعات الثقيلة . وقد عرفنا أن طاقتها الإنتاجية تقدر بحوالى تسعة ملايين من الأطنان ، لتكون بذلك سابع شركة للحديد والصلب فى العالم . كما أن المصنع الجديد أضاف قدرة ثلاثة ملايين من الأطنان ، مما جعل كوريا تصبح ضمن أول عشر دول منتجة للصلب فى العالم .

• التعليم هو الأساس

لا شك ـ كما لاحظنا خلال زيارتنا لمدرسة « صويو » للتعليم الإعدادى والثانوى ـ أن مايدفع المسيرة الاقتصادية فى كوريا الجنوبية إلى الأمام ، هو تقدير قيمة العلم وشدة احترامه ، ودور الأم التى تكمل فى البيت دور المدرسة ، مع التركيز على المهارت التكنولوجية الجماعية بأكثر من التركيز على المهارات الفردية ، وإن كان ذلك التركيز الجماعى لم يمنع من ظهور بعض الكفاءات الفردية . وليس هناك أكثر تعبيرا عن التشديد على العملية التعليمية من أن كوريا الجنوبية لديها الآن أكثر من مليون ونصف المليون من الطلاب فى التعليم العالى وأن لديها جيشا من خريجى الهندسة يعادل كل مالدى انجلترا وألمانيا والسويد مجتمعة .

ويقوم التعليم الكورى أساسا على فلسفة ديمقراطية توفر للجميع فرصا تعليمية متكافئة وتحترم الكفاءات الفردية . وترمى البرامج التعليمية بالإضافة إلى تعليم المعارف الأساسية إلى تلقين التلاميذ القيم والمهارات اللازمة لبعث الأمة الكورية . وقد تخلصت كوريا من الفقر فى ظرف سنوات قليلة ، وأصبحت بلدا صناعيا تتقدم فيه الحياة الاجتماعية . لهذا لم تكن غاية التربية مساعدة الطلبة على المساهمة الفعالة فى المجتمع الجديد فحسب ، بل كان هدفها إكسابهم القدرة على تكوين الأحكام التى تتآلف مع القيم الكورية التقليدية فى مجال البر بالآباء والإخلاص للوطن . وتتم على الدوام دراسة

التاريخ الكورى والثقافة الكورية وإعادة تقييمها على ضوء النهضة التى تسرى الآن داخل المجتمع . كما يهدف التعليم إلى تنمية الوعى التاريخى لتخلق لدى الطلبة شعور الاعتزاز بالوطن ، وليدركوا أهمية المساهمة الكورية فى الثقافة العالمية .

وإذا كانت التربية قديما تعنى قبل كل شىء بالتعليم العقلى النظرى ، فإن المتطلبات الملحة للمجتمع العصرى اليوم قد خلقت وعيا جديدا بكرامة العمل اليدوى وقيمته ، ومسئولية التعليم فى المساعدة على الإسراع بالتنمية الصناعية . وينعكس هذا الأمر فى سياسة الحكومة الرامية إلى تشجيع التعليم الفنى والمهنى وتطوره . ففى السنوات الأخيرة تم إنشاء المدارس الثانوية الفنية والمهنية العديدة ، وقام بتأسيس معظمها مجموعات الشركات الصناعية الكبرى ، استجابت المعاهد العليا والجامعات من جانبها للدعوة لتقديم برامج عملية ، وكان على المعاهد والجامعات فى الريف إقامة أقسام للزراعة ، أما المعاهد الموجودة فى الجهات الساحلية فكان عليها إقامة أقسام لمصايد الأسماك وعلوم البحار وهكذا . .

وليس من شك أن التقدم الذى حققته كوريا فى السنوات الأخيرة يدين لما يعلقه الكوريون على التعليم من أهمية ، النظرى منه والعملى . وإذا كانت وزارة التربية والتعليم مسئولة عن سير التعليم الرسمى وصيانة المؤسسات التعليمية ، فإن لبعض المدن والمقاطعات مجالس تعليمية خاصة تعمل كأجهزة تمثيلية تليها إدارات تعليم لكل مديرية ومدينة ، وهى مسئولة عن أنشطة التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى وتتلقى التوجيهات السياسية من الحكومة ، فيما يتصل بشئون التعليم الأساسية كما تقدم العون المالى .

أما عن التعليم العالى فهو يرمى إلى تكوين فهم عميق للإنسان وبيئته . وغرس الرغبة لدى الدارسين للمساهمة فى بناء المجتمع . وتأكيد الإرادة لديهم للمشاركة فى تحسين منهج حياتهم .

وقد تم أخيرا إنشاء « مجلس الإصلاح التعليمى » الذى يرفع تقاريره مباشرة لرئيس الدولة . ويتكون هذا المجلس من قادة الربية والتعليم ومديرى المدارس وقادة آخرين

من مختلف مناحى الحياة . ويتولى هذا المجلس ـ بالاستعانة بفريق مختار من الأساتذة الجامعيين والمتخصصين ـ مراجعة وإعداد نظام تعليمى أكثر ملاءمة لحاضر كوريا وحاجاتها المستقبلية .

● رياح المستقبل

إذا كان الكوريون يعتزون بتاريخهم المتلاطم الطويل الممتد لخمسة آلاف سنة ، إلا أنهم ينتفضون الآن وينطلقون من عقال النسمات الهادئة والأمواج المتلاحقة ، ليهزوا العالم فى حركة دائبة كأنها الرياح والأعاصير التى تكنس أمامها كل شىء . لقد استجمعت « المملكة الهادئة المتنسكة » كل قواها لتنطلق مع المستقبل ، متناغمة مع انطلاقة العالم الجديد . لقد نفض الكوريون عن أنفسهم آثار غزوات جيرانهم الصينيين، ووحشية احتلال اليابانيين ، وانقضاضات الغربيين ، وضراوة الحرب الأهلية ، وتمزقات التقسيم التى قوت الشمال على الجنوب . وخلال العقود الثلاثة الأخيرة استطاعت كوريا الجنوبية اقتحام العالم ووضعت نفسها على الخريطة الدولية . والكوريون الذين يتطلعون إلى المستقبل مازالوا متمسكين بتقاليدهم وأخلاقياتهم وقيمهم التى توارثوها عن الأجداد ، ومازالوا يفخرون بتماسكهم وعزيمتهم وصلابتهم وقوتهم التى لم يشهد مثلها العالم .

إن أرض بلادهم الجبلية الصغيرة بملايينها الأربعة والأربعين من السكان ، جعلتهم يواجهون صعوبات شتى وتحديات بالغة . فالزراعة تحتاج إلى الميكنة المتقدمة . وندرة المعادن ترغمهم من أجل التصنيع على استيراد المواد الخام من الخارج . وفرض التقسيم إلى شمال وجنوب يجعل من الضرورى زيادة الإنفاق والإعداد العسكرى لضمان أمنهم . وكل ذلك واقع حياتى لايفرض فقط الاجتهاد لتقوية الموقف الاقتصادى ، بل أيضا للاعتماد على النفس والإرادة والعزيمة لدى كل كورى كبير أو صغير .

ومع ذلك فإن كل هذه الصعوبات لم تستطع أن توقف تقدم كوريا للاندفاع إلى الأمام . والكوريون لا يقبلون الاستسلام ببساطة . لقد عانوا كثيرا من متاعب الماضى ، ولم يتوقعوا أن تبحر أشرعة سفنهم فى لطف . لهذا يدفعهم إلى الأمام ماتوارثوه من تلاحم

عقائدهم البوذية والكونفوشيوسية التى تقوى النفوس على التقدم والاندفاع . . والصبر على انتظار النتائج .

إن كوريا فى الحقيقة تخرج عن القياس فى أكثر من طريق ، حتى أنها لا تتوقف أبدا عن إثارة الدهشة والاستغراب . إنها دولة تجرؤ بكل قوة على التحدى، ولديها القدرة على مواجهة صعاب الماضى والحاضر . . والاندفاع إلى الأمام بدون أى توقف . . للانطلاق مع رياح المستقبل .

الفصل الثانى

عندما يتحدث التاريخ

العودة إلى التاريخ ضرورة حتى يمكننا متابعة بعض مايعتمل فى نفوس الكوريين ، ونستشف كيف بلورت الحروب هذا التاريخ منذ العصور الغابرة ، وندرك حقيقة تقسيم شبه الجزيرة الكورية إلى شمال وجنوب . .

سمعنا السرد التاريخى من رئيس دائرة الإعلام الخارجى بوزارة الإعلام «بارك شنيل» خلال اللقاء التى تم معه ، ليحدثنا عن المعجزة الكورية .

قال لنا : كانت كوريا محاطة طوال تاريخها بأعداء أقوياء من جميع الجهات . ولم يكن ذلك قاصرا فقط على شبه الجزيرة ، بل أيضا على ثلاثة آلاف جزيرة أخرى تتبعها ، أكبرها جزيرة شيشو ، جزيرة الرياح والصخور ، وتاريخها عاصف كرياحها مع موجات الثقافات المتباعدة التى هبت عليها .

والماضى البعيد ـ من خلال الاكتشافات الأثرية الحديثة ـ يؤكد أن الشعوب البدائية التى سكنت شبه الجزيرة يمتد تاريخها لأكثر من نصف مليون سنة . وإذا كانت آثار هذه الشعوب قد انطمست ، إلا أن هناك مايشير إلى وصول المنغول إلى التخوم الشمالية قادمين من سيبريا ومنشوريا . وكان سكان الكهوف يعيشون على صيد الأسماك والحيوانات ، ويجمعون الفواكه البرية ، ويشكلون الفخار والمنحوتات الحيوانية من طيور وأسماك ، كما كانوا يصنعون الوجوه الإنسانية من العظام والأصداف . هؤلاء السكان الأصليون هم « الباليو آشيانز » أى قدامى الأسيويين . وقد كانوا يعيشون فى شكل قبائل متجولة بعضها قادم من جبال « الألطاى » . ثم ظهرت مع الزمن مجموعات إقليمية أخرى تحالفت فيما بينها كان أبرزها وحدة « زولسان » التى أسسها

الجدالأسطورى « تانجون » ولا يزال هذا الجد الأسطورى هو النموذج ومثال الوطنية الكورية ، وهو الرمز الذى يعتز به الكوريون .

وعاش الناس من كل هذا الخليط داخل شبه الجزيرة والحرب وسيلة مشرعة ، حيث تندلع الحروب بين القبائل الصغيرة المتنازعة على السيادة المحلية . وتطورت هذه الحروب مع تكون الجيوش الإقليمية المؤلفة من جنود متمرسين يقاتلون لسيطرة حكام المقاطعات المتنافسة وخاصة الغزاة من خارج شبه الجزيرة . والقادمون الجدد كانوا فى الغالب من الصينيين الذين وفدوا فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأسسوا لهم مستعمرات عديدة . وطوال سبعة قرون حكمت شبه الجزيرة الكورية ثلاث ممالك رئيسية وطدت لنفسها تدريجيا خلال القرن الأول قبل الميلاد . وجاءت بعد هذه الممالك مملكة «شيللا» فى الجنوب وهى التى اتخذت المذهب البوذى دينا رسميا للبلاد . واستطاعت هذه المملكة توحيد شبه الجزيرة الكورية بمساعدة الجيوش الصينية . واستمرت سلالة «شيللا » تحكم طوال قرنين ونصف القرن بلغت البلاد فى عهدهم درجة كبيرة من الازدهار . ولكن أمرها انتهى عندما انغمست الطبقة الحاكمة فى حياة الترف والملذات، مما أدى إلى ثورات الفلاحين المناهضة لفرض الضرائب فى أرجاء البلاد . واتسعت الثورات حتى اضطر آخر حكام شيللا إلى التنازل عن العرش .

من هنا بدأ عهد مملكة كوريو . والاسم مأخوذ من كلمة كوجويو التى قامت فى الشمال ،وعاصمتها كانت هى عاصمة «تايجون » القديمة . واسم هذه العاصمة هو الذى تحول بعد ذلك ليصبح اسما للبلاد كلها . . «كوريا » .

● هكذا ظهر اسم كوريا

بدأت مملكة كوريا حكمها بقيادة ملكها «وانج كون » فتزوج من إحدى أميرات مملكة شيللا واسترضى كبار المسئولين ، وحمى الرهبان البوذيين من انقضاض الرهبان الكونفوشيين ، حيث كانت المملكة الجديدة تعتنق مذهب كونفوشيوس . وشهدت مملكة كوريو فترة ازدهار ثقافى ، وكان لتعاليم الحكيم كونفوشيوس الأثر الأكبر على المجتمع فوحدته توحيدا وطنيا . ولكن بعد سلسلة من الانشقاقات التى أدت إليها

غزوات صينية ، بدأت تعاليم الفلسفة الكونفوشية ذات التوجهات الإنسانية تتضارب مع مطالب الديانة البوذية التقشفية . وازداد التصارع بين التيارين لعهود طويلة انتهت بسيطرة الجنرال «يى» على الساحة بعد انتصاره فى سلسلة انتصارات عسكرية على المنغول .

وبدأت بعد ذلك مملكة «يى» التى نقلت العاصمة إلى سيول . وفى ظل حكومة سلالة يى أصبح المذهب الكونفوشيوسى هو المذهب الرئيسى المرشد ، وكانت أبرز مظاهره التركيز على التعليم والاختراعات واستصلاح الأراضى ، وتم تطوير الموسيقى والعلوم والتكنولوجيا .

● الغزو اليابانى

امتد حكم سلالة «يى » حوالى خمسمائة سنة ، شهدت خلالها معارك حربية طويلة وقاسية مع الغزاة من الصينيين . واضطرت البلاد فى بعض فتراتها إلى الانطواء على نفسها. وعزز الكوريون ثقافتهم الخاصة بهم خلال فترة الهمود . وعرفت كوريا ذلك الوقت « بمملكة النساك » .

حدثت بعد ذلك أحداث جديدة بدخول السفن الحربية والأساطيل التجارية الغربية لتجوب المياه الكورية فى أعقاب ازدهار الثورة الصناعية فى أوروبا . وظهر إلحاح متزايد على ضرورة فتح كوريا لأبوابها لدخول القوى الجديدة ، ومنح الغرب امتيازات تجارية .واضطرت كوريا للرضوخ عام ١٨٧٦ لقوى الضغط اليابانى لتوقيع معاهدة تجارية بين البلدين . وكانت هذه المعاهدة هى الباب المفتوح الذى كانت اليابان تسعى إليه . ومع موافقة الغرب الضمنية مهدت اليابان لغزو كوريا .

كانت اليابان قد أصبحت قوة عالمية يعمل حسابها خاصة بعد انتصارها على الصين فى الحرب الصينية اليابانية فى ظل هذا التفوق بدعوى حماية الشرعية الكورية . ودبر الحاكم العسكرى اليابانى مؤامرة اغتيال الملكة الكورية « مين » وتحولت كوريا لتصبح محمية يابانية .

وبعد خمس سنوات بدأ الاحتلال اليابانى الكامل بعد أن ضمتها اليابان إليها .

واستمر هذا الاحتلال حتى عام ١٩٤٥ . وسيطرت اليابان على كل المقدرات الكورية فى أسوإ نوع من أنواع الاحتلال ، ومع الحرب العالمية الثانية تحولت كوريا إلى مصنع للأسلحة لدعم جهود اليابان الحربية ، وأرغم الشبان الكوريون على الانخراط فى الجيوش اليابانية .

● حكاية التقسيم

استسلمت اليابان للحلفاء فى نهاية الحرب العالمية الثانية . ولم يرحم الحلفاء الدولة الكورية التى كانت موحدة ، فعملوا على تقسيمها عند خط عرض ٣٨ إلى محميتين . . القسم الشمالى وضع تحت الوصاية السوفياتية باسم كوريا الشمالية ، أما القسم الجنوبى فقد وضع تحت الوصاية الأمريكية باسم كوريا الجنوبية .

وكان لابد للصراع الأيديولوجى أن يقع نتيجة رفض السوفيات إجراء الانتخابات الوطنية لتوحيد الكوريتين . وكانت النتيجة أن سحبت القوات الأمريكية جيوشها وانتخب عميلها « سينجمان رى » رئيسا لكوريا الجنوبية المعروفة اليوم باسم « جمهورية كوريا » .

وكان لابد أن يحدث صراع بين الكوريتين حول خط العرض الذى قسم كوريا إلى قسمين . ووقعت الحرب الأهلية التى استمرت ثلاث سنوات ، ولعب فيها الصينيون دورا هاما مساندا لكوريا الشمالية ، فدخلت بسببه الأمم المتحدة بقواتها . وبعد الأزمة العسكريةالتى قامت عام ١٩٥١ عندما شنت قوات الأمم المتحدة هجوما بالقرب من خط عرض ٣٨ بدأت المفاوضات توقف الأعمال العدائية بين الكوريتين ، واستمرت حتى يوليو ١٩٥٣ حتى تم التوصل أخيرا إلى توقيع الهدنة التى لا تزال قائمة حتى اليوم بالرغم من محاولات مستمرة يشنها الكوريون الشماليون ضد كوريا الجنوبية .

● بعيدا عن سيول

قبل أن نستقل الطائرة إلى العاصمة الكورية قالوا لنا : لا تتصوروا أن زيارتكم للعاصمة سيول ستجعلكم تعرفون كل شيء عن كوريا . فالواقع غير ذلك تماما . فسيول مدينة حديثة جدا ، تم تشييدها كمدينة بعد الحرب الكورية وتوقيع هدنة

١٩٥٣ . وكل المبانى الحديثة ـ مع بعض الاستثناءات التى تشمل المتحف الوطنى ودار البلدية ومحطة السكك الحديدية والمصرف المركزى والكاتدرائية الانجليكانية والبوابات الأثرية والأسوار القديمة حول القصور ـ تم بناؤها جميعا خلال السنوات الأربعين الأخيرة . فالحضارة الكورية الأصيلة محجوبة وراء تلك المدينة . ومازال روابط الحضارة القوية لم تتآكل . وكل ذلك يبدو واضحا إذا خرجتم خارج سيول وتجولتم بين معالم الأقاليم والمدن فى الشرق والوسط والجنوب . وإذا زرتم كيونجزو والجزر . عدا كل ذلك فستجدون مبانى حكومية وسكنية وعمارات عالية للبنوك والمستثمرين ومترو أنفاق ومجمعا رياضيا ومطاعم أمريكية ومراكز تجارية حديثة جدا ، مثلها كلها مثل مايمكن أن تشاهدوه فى أى مدينة أو عاصمة من عواصم العالم الحديث . فاتركوا كل هذا إلى نهاية جولتكم حتى لاتخدعكم سيول بأنها هى كوريا الحقيقية ! ولتجعلوا منها نقطة الانطلاق وأنتم ترحلون إلى جميع أنحاء البلاد لتعرفوا مظاهر الحضارة الكورية على حقيقتها .

واقتنعنا بالنصيحة . وبدأنا رحلتنا من خارج مدينة سيول ، إلى أن نعود إليها فى نهاية الجولة . . قبل الرحيل .

● القرية التقليدية

كانت بداية جولتنا إلى القرية الفولكلورية فى بلدة « سوون » على مسيرة نصف ساعة إلى الجنوب ، حيث نتعرف على حياة الشعب الكورى فى ماضيه ، ونشهد مجتمعاتهم وصناعاتهم وحرفهم التى لم يندثر أغلبها بعد ، ولنتعمق فى عادات هذا الشعب وتقاليده وعقائده وثقافاته الموروثة .

القرية التقليدية ليست مجرد متحف حى فى الهواء الطلق . . بل هى المجتمع الحقيقى المهنى الممتد على مساحة واسعة بنيت عليها بيوت ومزارع تمثل كل المقاطعات والجزر الكورية ويبلغ عددها ٢٥٠ بيتا ومبنى . هنا نستعرض كيف كانت تجرى الحياة قبل مئات من السنين ، حيث كان الناس يعيشون فى البيوت والدكاكين والمزارع ويمارسون كل شئون الحياة . .

المدخل الذى اجتزناه أقيم على النمط التقليدى الكورى بفتحاته الثلاث وسقفه القرميدى المغطى بعريش جاف من قش الأرز.

وتوقفنا لنستمع إلى مرافقتنا أحلام ـ وهو اسمها العربى الذى أطلقه عليها أساتذتها فى كلية اللغة العربية عندما اعتنقت الإسلام ـ قالت لنا :

عندما أقام أجدادنا بيوتهم صنعوا مايحفظ تقاليدهم وعاداتهم وثقافاتهم وأزياءهم وحرفهم إلى أطول مدى ممكن . ونحن نجد أن من واجبنا أن نعمل على الحفاظ على هذه التقاليد ونعتنى بمعالمها ، فجعلنا هذا المتحف الحى مركزا تعليميا يعطى لأبنائنا ولزائرينا فكرة عن مدى تطور مجتمعنا دون أن ننسى كيف عاش الأجداد .

الصورة العامة التى اطلعت عليها أبصارنا ونحن نتنقل بين معالم القرية ، تبدأ مع دخولنا مشغل السيراميك والسيلادون الذى تصنع منه أشهر التحف والأوانى الكورية . أمامنا فرن تقليدى تشتعل فيه نار حمراء تغذى بالخشب ، وحوله تناثر عدد من الحرفيين المهرة فى أزيائهم التقليدية البيضاء وأغطية رؤوسهم الشبكية السوداء ، كل منهم مشغول بما هو مكلف به بداية من خلطة الطين الذى يصنع منه السيلادون . استخدم الأقدمون خلطة الفخار فى مملكة كوريو منذ مئات السنين . وعندما اختفت ظل سرها لايعرفه أحد. ثم اكتشفت قبل سنوات مناطق جديدة على الساحل الجنوبى الغربى أمكن الحصول منها على الخلطة السحرية من المواد الطبيعية . واستطاع أحد « معلمى» قرية شاوانج حل رموز لغز تشكيل الطين الفخارى وأسلوب حرق السيلادون باستخدام مصادر الطاقة الطبيعية . شاهدنا العمال المهرة يخلطون المواد ويعجنونها أكثر من مائة مرة لإخراج الهواء منها باستخدام الأيدى والأقدام . وحين تصبح جاهزة يقوم المعلم بتشكيلها ويسلمها لمن يقوم بحرقها فى الفرن على درجة حرارة معينة . ثم يقوم معلم آخر بنقشها ليدخلها مرة أخرى فى الفرن ، لتخرج تحفة السيلادون البيضاء المائلة للخضرة بلمعة رائعة تعتبر أغلى مايباع من هذا النوع فى الأسواق العالمية .

• الحرف الشعبية

تتعدد نماذج الورش والمشاغل التى تقدم مختلف أنواع الحرف الشعبية التى كان

يمارسها الأقدمون . وكل العاملين فى هذه الورش يرتدون الأزياء التقليدية البيضاء وأغطية الرأس الشبكية ويؤدون أعمالهم بمنتهى الدقة والإتقان والنظافة والترتيب النموذجى . نجد الحداد أمام الكور يصنع الآلات الزراعية بيديه ...

وعند مداخل البيوت التى تمثل نماذج مختلفة من القرى والأقاليم القديمة نشاهد النساء وكل منهن تؤدى عملا فى بيتها . هنا امرأة تغزل خيوطا من الحرير تستخرجه بنفسها من شرانق دود القز الموضوع فى إناء به ماء ساخن . . وهذه المنسوجات الحريرية المغزولة باليد هى أغلى الأنواع التى يشتريها الأغنياء لملابسهم وفى حفلاتهم وأعراسهم . وأمام بيت آخر تجلس امرأة أمام أكوام من القطن تقوم بنسجها وأمامها مغزلها الذى تديره بقدمها . وكان هذا القطن يستخدم فى المبادلات بدلا من النقد فى عصر مملكة يى حيث كانت المرتبات تدفع للموظفين بوزنات من القطن كل حسب قيمة مرتبه .

هنا ايضا نجد امرأة تكوى ثيابا بضربها بمضربين خشبيين . وامرأة أخرى تصنع السلال والمعلقات والأوانى والمراوح من قش البمبو مع تشكيلات متقنة الألوان ، بينما زميلتها تقوم بتلوين الصناديق والأوانى والقبعات والمراوح بالألوان المبهجة الزاهية .

فى أحد الدكاكين نلتقى بالطبيب الشعبى الذى يقرأ الحظ أيضا . لقد قسم دكانه إلى عدة أقسام . قسم للاستشارات والكشف على المرضى ، وقسم لقراءة الكف ومعرفة الحظ ، وقسم للدهان بالأعشاب الطبية ، وقسم لتخزين الأعشاب بأنواعها وكل منها مخصص لنوع معين من العلاج . أما القسم الداخلى فهو للإقامة والمبيت .

● ألعاب وعرائس

فى الساحة المواجهة للبيوت فى القرية الفولكلورية نشاهد استعراضا للمشى على الحبال المشدودة . ونتابع مسابقات الطائرات الورقية التى يحاول كل لاعب فيها أن يقطع خيوط طائرة منافسه المحلقة عن طريق اعتراضها بخيط طائرته . ونشهد عروضا ورقصات شعبية يؤديها فتيات وفتيان بالأزياء التقليدية . وأبرز الألعاب هى الأرجوحة الخاصة بالفتيات حيث يوضع لوح خشبى طويل يرتكز فى منتصفه على كيس ملىء بقش الأرز ، وتقف اللاعبتان كل واحدة على طرف وتقفزان دوريا لتنزلا على طرف

الأرجوحة . وتتنافس الطالبات الزائرات مع اللاعبات فى أزيائهن التقليديه بين التصفيق والمرح والابتهاج .

فى طريقنا لمغادرة القرية نجد أنفسنا وسط زحام يضم مجموعات من الشبان والشابات والأمهات والآباء . إنه حفل زفاف تقليدى يقدم فى أوقات معينة كل يوم . وتخصص أيام لاحتفالات الزفاف الجماعية الحديثة بأقل التكاليف . نرى العريس يرتدى ثوبا أنيقا يتم تأجيره من مكان متخصص للتأجير . الثوب عبارة عن سترة فضفاضة بكمين واسعين ، وسروال عريض يربط عند الكعبين برباط من القماش ويتقاطع جانبا السترة فوق الصدر ويربطان بعقده ، والعريس يرتدى لمزيد من الأناقة معطفاً مزخرفاً وقد وضع على رأسه قبعة سوداء معقودة فوق الرأس . أما زى العروس فمصنوع من الحرير ذى الألوان الزاهية ،ويتكون من بلوزة قصيرة جدا وواسعة ، يتقاطع جانباها عند الصدر ويربطان برباط طويل من القماش ، وسروال طويل حتى القدمين يوثق عاليا على الصدر . وبعد المراسم التى يحضرها الأبوان يشرب الجميع الأنخاب التقليدية ، وتعزف الموسيقا وتقدم باقات الزهور . وترقص الفتيات مع الفتيان وحولهم تلتف الجماهير .

● بوسان .. مرجل الجبل

ونحن فى طريقنا إلى الجنوب ، ننطلق إلى « بوسان » المدينة التى يطلقون عليها اسم «مرجل الجبل » هذا الاسم حملته لتوسطها حلقة القمم الجبلية المرتفعة لأكثر من سبعمائة متر وراء المدينة فى شكل حافة المرجل .

بوسان هى ثانى مدن كوريا بعد سيول ويسكنها أكثر من أربعه ملايين نسمة . وكانت هى العاصمة المؤقتة للبلاد فى أحلك سنوات الحرب الأهلية الكورية والوحيدة من المدن التى لم تقع فى يد الأعداء . وهى تعتبر الميناء الرئيس فى كوريا للصادرات والواردات بعد أن فتحت أبوابها رسميا للعلاقات التجارية مع العالم الخارجى حيث تتنوع النشاطات التجارية والصناعات . بالقرب منها تقع مجمعات بوشانج للصناعات الثقيلة . وبين غرب بوسان وميناء يوسو يقع المجرى المائى « هاليو سودو » وهو متنزه

بحرى قومى . المشهد البحرى تزينه الجزر الصغيرة الجميلة والتشكيلات الصخرية الرائعة والقرى التقليدية لصيد الأسماك .

تقول لنا مرافقتنا أحلام ونحن نطل على المشهد البحرى الرائع :

هذا المشهد الذى يبهركم شهد أبرز المعارك البحرية الضاريةأثناء الغزو اليابانى فى القرن السادس عشر فى عهد سلالة «يى » الملكية . ففى عام ١٥٩٢ هزم الأميرال « يى سون شى » بسفنه المدرعة المسماة : «سفن السلحفاة » الاسطول اليابانى الذى فر أمامه هاربا بعد هزيمته الساحقة . ولكن مياه بوسان لم تكن فقط ميدانا للمعارك البحرية . ولكنها كانت أيضا ميدانا للمنافسات الأولمبية ،حيث شهد مركز اليخوت الجديد بالقرب من منتجع هيونداى كل سباقات اليخوت البحرية التى تضمنتها الألعاب الأولمبية عام ١٩٨٨ كما جرت فيه مسابقات اليخوت البحرية للألعاب الأسيوية فى دورة ١٩٨٦ .

خلال جولاتنا فى مدينة بوسان وجدنا أنها تضم عددا كبيرا من المنتجعات والشواطىء السياحية ، حيث تعتبر أحد منتجعاتها مركزا للنشاطات الاجتماعية لرجال الأعمال . وتتناثر فى كل أنحاء المدينة مجموعات من الفنادق والمطاعم الفاخرة لاستقبال ملايين السائحين الذين يفدون لزيارة هذه الشواطىء بين شهرى يوليو وأغسطس . وتسجل المنطقة حوالى نصف مليون سائح يوميا فى أوج الصيف تهتم أغلبيتهم بالرياضات المائية المفضلة .

أجمل الجولات نستطيع أن نقوم بها فى مترو الأنفاق. وهو خط مريح جدا يربط المناطق السياحية مثل محطات السفن والقطار والباص السريع بمنتجع تونجناى ومتنزه كومبانج ومعبد بوموسا . فى إحدى محطات المترو ننزل لنتجول فى سوق السمك الرئيسى حيث مرسى سفن الصيد . هنا نجد قسما مخصصا لتصنيع الأمساك وتعليبها . كما نشاهد فى قسم آخر عرضا كاملا لجميع أنواع الأسماك التى تتقافز بعد صيدها مباشرة. والمدينة تستهلك وحدها ستين فى المائة من هذه الحصيلة بينما تستهلك باقى المدن الكورية النسبة الباقية.

عند محطة أخرى للمترو نهبط إلى قلب المدينة حيث متنزه « يونج دوسان » هذا الاسم يعنى « جبل رأس التنين » ويرمز إليه بتنين برونزى كبير ينتصب فى أرض المتنزه . وغير بعيد منه يقوم برج يرتفع حوالى مائة وخمسين مترا نطل من فوقه على أجمل مناظر المدينة والهضاب البعيدة .

فى محطة أخرى ننزل فى « تونج ناى » هنا نلتقى بأشهر الينابيع الطبية بمياهها الساخنة . ويقصدها العديد من محبى السباحة فى المياه المعدنية سواء للمتعة أو للعلاج . وغير بعيد منه نزور متنزه « كوم جانج » الذى يضم حديقة حيوانات رائعة وحدائق نباتية وحوضا كبيرا لأسماك الزينة مع متحف أثرى متميز .

فى المنطقة نفسها يقع مدفن الأمم المتحدة التذكارى . هذا المدفن الواسع الأرجاء يضم أجداث شهداء الحرب الكورية من غير القوات الأمريكية الذين أعيدوا إلى الولايات التحدة بعد توقيع الهدنة . ترفرف على المكان أعلام ست عشرة دولة حاربت إلى جانب قوات الأمم المتحدة . وعلى طول الطريق الممتد من المدفن نصل إلى المتحف الوطنى الذى يضم كنوزا تاريخية وثقافية من عصور ماقبل التاريخ وحتى العصور الحديثة .

الفصل الثالث

كيانجزو ... المتحف المفتوح

كيانجزو . . تقع فى الجنوب الشرقى ، وكانت من قبل عاصمة مملكة شيللا المزدهرة . قبل أن نجوس فى أنحاء المدينة وآثارها نعرف الكثير عما جرى بها من أحداث خلال الحركات الطلابية التى تلعب دورا كبيرا فى السنوات الأخيرة .

فخلال حكم «شون دوهوان » الذى حكم عليه أخيرا بالإعدام لكثرة المفاسد والرشاوى والوحشية فى عهده ، كانت حركات الطلاب المعارضة قد بلغت القمة وخاصة فى كيانجزو . هنا تحولت الحركة إلى قوة معارضة شبه مسلحة . ومع ظهور المفاسد واتساع الطغيان صعد الطلاب من احتجاجاتهم مطالبين بإصلاح سياسى . وكان رد فعل السلطة إغلاق الجامعات فى مايو ١٩٨٠ والقبض على زعيم المعارضة «كيم داى جونج » . وأسفر ذلك فى اليوم التالى عن وقوع ماأصبح يسمى « بمذبحة كيانجزو » . فقد انتفض الطلاب فى المدينة . ومع اشتداد مقاومتهم للسلطة انقضت القوات على الطلبة . وكانت النتيجة مصرع حوالى ألف شخص . وتعد مذبحة كيانجزو نقطة تحول فى تاريخ الحركة الطلابية ، وهى أحد أدلة الاتهام ، التى أدت فى النهاية إلى الحكم بإعدام الرئيس الأسبق « شون دوهوان » .

هنا نعود إلى التاريخ القديم فى كيانجزو حيث المعابد البوذية والمقابر الملكية والنصب التذكارية مع أقدم مرصد حجرى فى أسيا على الإطلاق .

ومنذ البداية ندرك أن كيانجزو . كانت إحدى المراكز الرئيسية للديانة البوذية ، أبرز الديانات فى كوريا ، ويبلغ عدد معتنقيها حوالى ٨ مليون نسمة ، أى بنسبة مساوية لجميع الدينيين الذين يعتنقون ديانات أخرى ومجموع أعدادهم لايتجاوز سبعة ملايين . وبين هؤلاء مسيحيون بروتستانت ، وروم كاثوليك ، وكنفوشيون وداويون وشامانيون

مع أقلية إسلامية لاتتجاوز أربعين ألفا من المسلمين الكوريين . وقد دخلت البوذية عام ٣٧٢ م عن طريق رهبان صينيين . وحينما اعتنقتها الأسرة المالكة بسبب معجزات نسبت إلى بعض القديسين اقتفى السكان أثرها . وسرعان ماعمرت سفوح التلال بالمعابد والايقونات والأديره والأبراج وتماثيل بوذا الصخرية وتآلفت الفنون الهندية المعمارية مع مختلف المعابد فى المدينة .

وادى «كيانجزو» كان موطن حضارة مملكة شيللا التى استمر حكمها بين عامى ٥٧ ق.م إلى ٩٣٥ ميلادية . وهى تقع فى حوض منعزل جغرافياً على طول الطريق العام بين « سول وبوسان » . وكان هذا الانعزال ذا أهمية كبيرة فى حماية المملكة من الأطماع الصينية . وعندما اتحد ملوكها مع ملوك سلالة تانج الصينية استطاعوا معا هزيمة المملكتين الكوريتين الأخريين فى شبه الجزيرة وهما بكشما وكوجوريو . ولم تفلح الصين فى هزيمة مملكة شيللا التى امتد حكمها إلى أقصى الشمال وتفرغت بعد ذلك إلى التركيز على التقدم والتطور .

وفى عام ٤٢٤ م وصل أحد الرهبان البوذيين واسمه «آدو » حيث قام بإدخال البوذية إلى المملكة . إلا أن البوذية لم تصبح الدين الرسمى فيها إلا بعد مائة عام . وفى عام ٥٠٣ م دخلت الكونفوشية إلى كوريا فكان لها تأثيرها السياسى والاجتماعى والثقافى على البلاد والذى استمر حتى الآن ، بالرغم من أن البوذية لم تتأثر كثيرا بدخول الكونفوشية .

فى وادى كيانجزو تنتشر المعابد المزينة بمبانى الباجودا الحجرية والمدافن الملكية والنقوش البوذية مما يجعلها متحفا بلا جدران . فالحقيقة أنها تعتبر كنزا أصيلا ، يمتلىء بالآثار التاريخية لمملكة شيللا المزدهرة ، كما أن عشرات من روابى الأضرحة الترابية للملوك والملكات تقوم معا فى حديقة « تومولى » وسط المدينة . وقد كانت هذه الأضرحة موردا كبيرا لعشرات من التيجان الذهبية الفريدة والجواهر الرائعة والخزف وأنواع الحلى التى يمكن مشاهدتها فى المتحف الوطنى الذى يقع على مسافة قصيرة من داخل المدينة . هى زيارة شهدنا خلالها أجمل آثار مملكة شيللا .

المتحف الوطنى يثير الدهشة بمعروضاته والاكتشافات الأثرية التى تضمها أنحاؤه . ولعل أبرز معالمه « جرس ايميلى » الذى يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار ونصف المتر ووزنه ٢٣ طنا . وهو من أكبر الأجراس فى آسيا وأضخمها رنينا . وتقول إحدى الأساطير إن هذا الجرس الذى صنع عا م٧٧١ م يسمى باسم جرس أيميلى لأن رنينه يشبه صوت طفل صغير ينادى أمه . وتقول رواية أخرى إنه تمت التضحية بفتاة شابة لإنجاح عملية صب الجرس . . !

عن هذا المتحف ومدينة كيانجزو نقرأ للباحثة هيلينى شابان ذلك الوصف البديع : « إن آثار شيللا والتى حفظها لنا التاريخ فى متحف كيانجزو ويتناثر بعضها على كل مكان فى مساحة الوادى تمد الباحثين فى الفن والتاريخ بكثير من المعرفة عن المعالم والآثار لحضارة رائعة لفترة من أعظم فترات تاريخ الشرق الأقصى . إنها مع كثير من معروضات المتحف الوطنى التى جمعت من هنا وهناك تحتاج إلى دراسات عميقة متأنية لفنون التاريخ فى هذه المنطقة من العالم . والمعادن والتماثيل المحفورة فى الصخور والرسوم الفنية التاريخية والمشغولات الذهبية والحلى والجواهر التى لايوجد لها مثيل . وقد أعطى كل ذلك صورة رائعة لثقافة ذلك العصر الذى امتد فى عمق التاريخ لحوالى خمسة آلاف سنة » .

والحق أن ما شاهدناه فى تلك الساحة المكشوفة من المتحف بلا جدران فى كيانجزو يثير الإعجاب . وكانت الكشوف التى تمت أخيرا قد استطاعت أن تتوصل إلى معالم ظلت مجهولة لقرون طويلة . كان أبرز هذه الكشوف العثور على المقابر الملكية التى غطتها الأتربة منذ منتصف القرن الأول الميلادى . فى هذه المقابر وجدت كنوز ثمينة هامة تحتوى على تيجان من الذهب والأحجار الكريمة وعقود وأقراط ذهبية يصل طول بعضها إلى ١٢٥ سنتيمترا وأحزمة وسط من حلقات من الذهب وأحجار اليشب الكريمة مع زخارف وأوان من اليشب وتماثيل لرؤوس التنين والسلاحف . أكثر من عشرة آلاف من قطع الكنوز الثمينة تم العثور عليها فى مقبرة واحدة هى مقبرة الملك تومول . . ولكن أكثر مايثير الدهشة صورة ملونة لفرس مجنح ينطلق مسرعا . هذا الفرس الطائر كان مرسوما على نسيج سرج مصنوع من خشب البتولا ومحاط ببرواز

.مفرط فى الزخرفة على نمط « الروكوكو » . وقد نقلت كل هذه الآثار إلى المتحف الوطنى ماعدا حوالى مائة قطعة يشاهدها الزوار من خلف ستائر زجاجية داخل المقبرة .

ونزور متنزة المدفن الملكى الذى تم افتتاحه عام ١٩٧٥ . الحديقة تضم عشرين ضريحا من أهم الأضرحة فى كوريا . وأبرز هذه الأضرحة ضريح الملك « مويول » الحاكم التاسع والعشرين لمملكة شيللا ، وهو يتميز بنصب تذكارى حجرى عبارة عن سلحفاة فى قاعدته يرتفع منها عامود يحمل لوحة منقوشة فى أعلاه غاية فى الروعة .

وبالقرب من ضريح مويول توجد قاعة سوك سون الكونفوشية والتى أقيمت خلال القرن ١٦ لتكريم عظماء الكونفوشية ، وهى أحد مبانى الباجودا المميزة . كما يوجد أيضاً ضريح الجنرال كيم يوشين أعظم قواد الملك مويول .

وعلى المنحدرات الغربية لجبل ناسان يقوم كوخ يبرز المأساة الأخيرة لسلالة شيللا عندما اغتيل الحاكم السابع والخمسون لهذه السلالة مع زوجته عام ٩٢٧م خلال أحد الاحتفالات . ولم يعد قائما من القصر الملكى سوى بعض القنوات الحجرية .

• إلى بولجوكسا وسوكورام

تحركنا من منتجع «جومون السياحى » الواقع على البحيرة وسط أودية تحيط بها جبال مغشاة بالأشجار فى الطريق إلى موقع كهف « سوكورام »

المعبد يقع على مسافة عشرين كم خارج كيانجزو ويرجع بناؤه إلى عام٥٣٥م . وتم توسيعه فى عام ٧٥١ ثم أعيد بناء معظم مبانيه الحالية وتجديدها عام ١٩٧٣ . ويعتبر هذا المعبد أحد أبرز المنجزات فى العالم القديم فى الشرق الأقصى . بتماثيله الحجرية وأفاريزه المنحوتة التى تعد من قمم الفن البوذى .

ونتجه بعدها إلى مغارة سوكورام التى تقوم فوق قمة جبلية وتضم تمثالا لبوذا منحوتا من الجرانيت بارتفاع أربعة أمتار مواجها للشرق . الكهف يعكس تقويما غاية فى الدقة وحسابا ممتازا للأبعاد والمسافات ، مع بساطة مدهشة فى تحديد الزوايا والأسس الهندسية والعلمية والتقنية التى اتبعت فى بناء الكهف الذى أقيم منذ اثنين وعشرين عاما كما

يضم المعبد عددا كبيرا من وجوه بوذا وتلاميذه منحوته بطريقة غاية فى البراعة ، نصعدعددا من الدرجات قبل أن نصل إلى التمثال الجرانيتى لبوذا ، ثم نجد أنفسنا وسط قاعة مستديرة تعلوها قبة كبيرة منحوتة فى الصخر لنواجه ثمانية تماثيل لكبار رسل البوذية يمثل كل منها درجة من الدرجات الثمانى التى يرتفع عليها البوذى حتى يصل إلى النيرفانا . ونلتقى بعد ذلك بتمثالين لحارسين مفزعى الوجه يصارعان كائنات شريرة ثم أربعة تماثل للملوك المقدسين . ثم نصل أخيرا بعد صعود الدرجات إلى تمثال القاعة الرئيسية التى يتوسطها تمثال بوذا (سوكامونى) جالسا فوق قاعدة من زهور اللوتس مواجها المدخل ومصوبا بصره ناحية الشرق ، واضعا كفه اليمين على ساقه اليمين ، وهى الهيئة التى يبدو عليها البوذا «وهو يدعو الأرض للشهادة » بينما كفه اليسرى مستقرة مفتوحة فوق ساقيه رمزا للرحمة . تغطى جدران القاعة المستديرة رسوم للحواريين العشرة الكبار والمريدين الثمانية من رسل البوذية . وفى عمق القاعة تقف ربة الرحمة تحيط رأسها بعشرة رؤوس معقودة على مايشبه التاج . وهناك أسطورة تحكى قصة هذه الرؤوس فتقول إن رأس بوذا كانت تمتلىء حزنا على الفقراء والكائنات حتى انفجرت إلى عشر قطع . وعندئذ قام أبوه الروحى بجمع الحراشف والقطع المنفجرة وأحاط بها رأس البوذا ولده حيث نبت من كل منها رأس جديدة وهكذا توزعت الأحزان على آل البشر على احدى عشر رأسا بدلا من رأس واحدة هو ما تمثله هذه المنحوتة الرائعة كواحدة من رموز فن النحت البوذى .

● المعهد العلمى فى تايجون

نتجه بعد كيانجزو إلى ثالث أكبر المدن فى كوريا . . مدينة « تايجون » ، بسكانها الذى يتجاوزون المليونين ، وجبالها التى تحيط بها من كل جانب بارتفاع يتجاوز الألف متر.

مدينة تايجون لها تاريخ ممتد إلى العصر الحجرى . يتجلى ذلك فى آثارها التى عثر عليها بما فيها من خزفيات وأحجار مصقولة تتزايد مع تقدمها فى العصر البرونزى . وقد برزت المدينة أيضا فى العصر الحديدى حيث عرفت كدولة قبلية ذات أهمية كبرى .

وأبرز آثارها حصنها الطينى الذى حل محله الآن متنزه تالسونج الذى تقع إلى جوراه العديد من المدافن والغرف الحجرية .

الآن تعتبر المدينة من أهم المدن الصناعنية فى كوريا . وتتركز فيها صناعة المنسوجات التى برزت مع التطور الاقتصادى . وتعمل تايجو على توسيع إنتاجها بهدف التصدير إلى الخارج من خلال تطور هذه الصناعة وتميز الأيدى العاملة الماهرة المتخصصة .

وإذا كانت تايجو تتميز بهذا التقدم الصناعى ، ومايتبعه من سوق زراعية تعتبر إحدى أقدم الأسواق الكورية التقليدية مع تنوع منتجاتها . . فإن أهم ماتتميز به المدينة هو «المعهد العلمى » الذى يعتبر أبرز المعاهد العالمية فى كوريا . فمع وصول المبشرين الغربيين وتأسيسهم للمدراس الغربية ، تم تأسيس أكاديمية كيسونج للشباب ، ليتبعها بعد ذلك إقامة عدة معاهد ثم خمس جامعات كبيرة تلعب دورا كبيرا فى التعليم العالى فى البلاد .

على أن أبرز ما نستطيع ان نزوره فى تايجو هو « معبد هاينسا ومعبد«تونجواسا » .

● معبد التعاليم فى هاينسا

« معبد هاينسا » يقع على جبال كايا . وهو معبد كبير فسيح ، يضم حوالى٩٣مبنى بين مزارات وصوامع على مساحة لاتقل عن ستة كيلو مترات مربعة . هنا يعيش أكثر من ٢٥٠ راهبا وراهبة يقضون أيامهم فى الانصراف إلى دراسة الكتابات القدية ، ثم التأمل الروحى فى صوامعهم .

المعبد يعتبر أكبر مركز لتدريب الرهبان البوذيين ويحتوى على مجموعة كبيرة من أبرز المنحوتات الفنية .

أهم ما يحتويه المعبد تعاليم بوذا المحفورة على ٨٠ ألف قالب من الخشب . ويقال إن راهبين بوذيين ذهبا إلى الصين حيث عثرا على كتاب يضم تعاليم البوذا ، وعندما عاد الراهبان وأقاما محرابا لهما على جبل كايسان . وهناك بلغ سمعها أن زوجة الملك تعانى من مرض عضال ، فذهبا وعالجاها بمعاونة البوذا ودعواتهما لها . ومن أجل أن يشكر

الملك صنيعهما أمر ببناء معبد لهما هو المعبد المسمى «هاينسا» ، حيث حفظت التعاليم الكاملة . ويقال إنه من الغريب أن حريقين شبا فى المعبد والتهما أخشابها ، ولكن تعاليم بوذا نجت من الحريقين ولم يصبها أى أذى . . رغم أنها محفورة على قوالب من الخشب !

فى هذا المعبد البوذى الكبير شهدنا احتفالا دينيا فى ذكرى البوذا . . كانت ساحة المعبد مليئة بالرهبان بينما الراهبات فى الزى المقدس ذى الأكمام الطويلة وأغطية الرأس البيضاء ، ويؤدون الصلوات ويرتلون على أنغام آلات الموسيقى التقليدية ، أمام تمثال البوذا الذهبى وحوله المقدسون من تلاميذه ومريديه .

وانتهى الاحتفال برقصة تؤديها راهبتان تمارسان الطقوس البوذية ، وقد وضعتا على رأسيهما الغطاء الأبيض الثلاثى وحول صدريها وأذرعهما «الشانجام» ذو الأكمام الطويلة البيضاوية . وتبدأ الرقصة المقدسة فى هدوء بينما فى الخلف طبلة معلقة تتدلى منها أطراف التنين وتتتابع الموسيقا فى سرعتها حتى تصل إلى قمة الإثارة حين تصل الراهبتان إلى الطبلة فتدقانها بمضربيهما المختفيين تحت الأكمام الطويلة ، لترسل نغمات متسارعة تعبر عن الانفعالات الداخلية مع تفاعل الصراع الروحى فى الطريق إلى «النيرفانا» وهى مرحلة السمو الروحى التى يمكن الوصول إليها بعد مراحل متتالية من المعاناة والآلام تعبر عنها الحركات والنغمات .

● رحلة إلى الجزر

من أجل بعض الترفيه نتجه إلى بعض الجزر التى تحيط بشبه الجزيرة الكورية .

ونبدأ بجزيرة « كوجيدو » . التى يعتبرونها جنة لمن يريدون التمتع بأيام العطلات .

وتكثر فيها صخور البازلت السوداء البركانية الأصل . ويرتفع فى قلبها جبل هالاسان أعلى جبال كوريا بفوهاته البركانية الصلبة . هنا يصطادون الأسماك فى البحر العميق بينما يتمتع السائحون بالرحلات البحرية فى القوارب البخارية . اما السباحون منهم فيختارون الشواطىء الرملية السوداء الجميلة أو الشواطىء المرجانية البيضاء .

الجزيرة مكان رائع للمهتمين بالنباتات . وهى تضم مجموعات رائعة من المناطق

شبه الحارة والباردة . وتوجد مجموعة من الشلالات الرائعة والمنازل المسقوفة بسيقان القش وأشكل الحمم البركانية المتجمدة والكهوف الباطنية . بالإضافة إلى الهضاب المغطاة بأشجار الصنوبر حيث تجمعات الطيور البحرية .

ونتجه بعد ذلك إلى «جزيرة الآلهة » ...

● جزيرة الآلهة

نتجه مع مرافقتنا إلى جزيرة «شيشو » أكبر جزر كوريا ومعناها «جزيرة الآلهة » . وهى تقع على مسافة حوالى مائة كيلو متر جنوب غربى شبه الجزيرة الكورية ، ويبلغ عدد سكانهاحوالى نصف مليون نسمة . ولم يكن الكوريون الأقدمون يطلقون عليها ذلك الاسم إنما كانوا يسمونها « المكان الذى هناك » وهى تشتهر الآن بخصائص ثلاث : العجوز والرياح والنساء « ويقولون عنها إنها الجزيرة التى ينقصها ثلاثة أشياء اللصوص والمتسولون والبوابات» .

قالت لنا مرافقتنا «أحلام» :

الجزيرة قديمة ، ولكنها تعرضت للنسيان لفترة طويلة ولم ينلها التحديث إلا منذ عهد قريب . وقد نشرت مجلة نيوزويك فى عام ١٩٧٥ مقالا تحت عنوان «جزيرة الآلهة » تحدثت فيه عن سكانها وثقافتهم وأطعمتهم كما أبرزت جمال شواطئها وخلجانها والرياضات الصالحة لها مثل سباقات ركوب الخيل ورياضة صيد الأسماك وتسلق الجبال .

وفى عام ١٩٨٠ كتبت مجلة « أسيان وول ستريت » قصة تحت عنوان « هذه جزيرة الأحلام» قالت فيها إن كوريا تتمنى أن تستبدل هدوء الجزيرة لتصبح مثل « بالى » فى جنوب شرق آسيا . ولكن الحكومة الكورية تفضل أن تجعلها مثل جزيرة هاواى . . أو « هاواى الشرق » .

والواقع أن هناك تشابها غريباً بين شيشو وجزيرة هاواى التى سبق أن زرناها . فهذه الجزيرة التى تقع على مسافة ١٥٠ كيلو مترا من «بوسان » الواقعة فى الممر المائى بين

كوريا واليابان ، تتميز بمياهها اللازوردية وتزخر بأجمل المناظر الطبيعية من غابات استوائية ومنحوتات بركانية وشلالات مائية متدفقة ومعابر رائعة وشواطىء رملية مثيرة . . مع جبل بركانى شقت وراءه أنفاق بركانية تبرز وراءها مجموعات من التشكيلات البركانية المثيرة للإعجاب .

قالت لنا أحلام وهى تدور بنا بين كل هذه المشاهد الرائعة « إن الأساطير تزعم أن الأسلاف القدامى الذين سكنوا هذه الجزيرة كانوا أشباه آلهة وكانت أسماؤهم « كو » و «بو» «يانج » . وقد جاء هؤلاء الثلاثة من ثلاث فجوات فى الأرض فى هذه المنطقة التى أطلق عليها بعد ذلك اسم شيشو . واعتمد الأسلاف الثلاثة فى تأمين أقواتهم على صيد الأسماك والرعى وصيد حيوانات البر . وأشارت لنا مرافقتنا إلى منخفض بسيط يبدو أنه حدث بفعل التآكل الكبير على مرور الزمن ، وقالت إن هذا المكان هو الذى جاء منه الأسلاف وهم سكان الجزيرة الأصليون ومازال الناس يحتفلون بذكرى مولدهم فى مهرجانات خاصة تقام فى أشهر إبريل وأكتوبر وديسمبر من كل عام عند المنخفض الذى يسمى « سمسونج هيول » .

ونظرا لتدفق السياح على جزيرة شيشو فقد عمدت الحكوة الكورية إلى وضع تخطيط إعمارى لتطويرها وأقيمت فيها مجموعة من الفنادق المتفاوتة الأسعار لتكون منطلقا للزوار لاستكشاف الجزيرة خلال استماعهم إلى قصة الأسلاف الثلاثة الذين أسعدهم حظهم ذات يوم بلقاء ثلاث أميرات فاتنات كان معهن بعض حبوب القمح والتقاوى مع طيور داجنة . وتزوج أنصاف الآلهة الفتيات الثلاث فأنجبن بنات وبنين هم الذين انحدر منهم سكان الجزيرة .

وانطلقنا نتجول فى جزيرة الآلهة . طوال الطريق حولنا كنا نلتقى بغابات أشجار الأناناس وزهور الأوركيد وحقول الأرز ، ونقف عند مجموعات من الكهوف الطبيعية والشلالات الراقصة والمنحوتات الصخرية المثيرة . أروع ما التقينا به ما يطلقون عليه صخرة الأجداد . وهى عبارة عن مجموعة من الوجوه البشرية المنحوتة من الحمم البركانية ذات عيون حافظة وأنوف ضخمة وآذان طويلة . وهم يقولون هنا إنها رمز للخصوبة وقد كانوا من قبل حماة للجزيرة لم يبق منهم حتى الآن إلا خمسون تمثالا .

● النساء الغاطسات

ونتوقف عند أحد المعالم الشهيرة بالجزيرة لنشهد «النساء الغاطسات» . إنهن نساء تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والخمسين ويتميزن بقوة الأبدان . ولاتتصور أنهن تماثيل فقط مقامة منذ قرون ، فإن هذه التماثيل الجامدة لا تزال لها أشباه حية يؤدين نفس الدور الذى كانت تقوم به الجدات . وقد اشتهرن بالغطس على طول الساحل الجنوبى للجزيرة بحثا عن الأعشاب والمحارات والأصداف . ويبلغ عدد الغاطسات الآن مالا يقل عن عشرين ألف أنثى يرتدين كلهن ملابس الغطس المعدنية ، وهن غالبا مايغطسن إلى عمق حوالى عشرين مترا ويبقين تحت الماء حوالى أربع دقائق . والناس تسميهن «الغاطسات الفاتنات» واهتمامهن ينصب دائما على جمع الأعشاب البحرية أكثر من اهتمامهن بالتمدد على الشواطىء واجتذاب الأنظار . ولكن تذكر قبل أن تستخدم آلة التصوير أن تستأذن منهن لتصويرهن لأنهن يخجلن من التصوير كما يرغبن دائما فى أن يتم تذكرهن من خلال سباحتهن الجميلة النموذجية تحت الماء وليس من خلال الصور . والنساء الغاطسات عادة يسعدهن أن يرين السياح يتناولون الأسماك النيئة بأسعار رخيصة تقوم مع الصلصلة الحارة .

وعلى مسيرة غير قليلة نذهب غربى سوجونيو حيث نشهد مشهدا رائعا . من تشكيل صخرى كأنه المسلة . يعرف باسم «وايتكلوى» تقول الأسطورة إنه كان هنا صياد فقد فى البحر . وظلت زوجته تفتقده وتبحث عنه عند الهضبة كل يوم تنتظر عودته . ولكنها ماتت دون أن يتحقق أملها . وبعد موتها ظهرت مجموعة من الصخور فى البحر مسنونة تتساقط منها المياه دائما ، وبجوارها رجل سابح على وجه الماء . واعتبر سكان الجزر أن هذه الصخور هى روح الزوج المفقود العائد إلى زوجته .

وفى النهاية هذه الجولة الرائعة فى مختلف أنحاء كوريا الجنوبية . . لابد أن نعود إلى العاصمة . . سيول . . التى أجلنا زيارتها إلى آخر المطاف .

الفصل الرابع

سيول .. مركز القلب
نظرة من فوق القمة

سيول كما رأيناها وتجولنا بين أنحائها ، مزيج من القديم والحديث .

الحديث هو ماطلعت عليه عيوننا ، ونحن نطل عليها من فوق برج « نامسان » أبرز معالم المدينة ، التى تتناثر على صفحتها مجموعات من ناطحات السحاب الحديثة ، شيدت فى فترة وجيزة لاتبعد بدايتها عن عام ١٩٨٠ ، وإن كانت قد بدت لنا أقزاما ونحن نطل عليها من فوق البرج الذى يعتبر ثالث أعلى برج فى العالم .

انطلقنا إلى قمة البرج « بالتلفريك » الكهربائى السريع . إنه يرتفع حوالى ٤٧٩ مترا فوق سطح البحر . . منها ارتفاع جبل نامسان البالغ ٢٤٣ مترا وطول جسم البرج البالغ ٢٣٧ مترا . .

الشرفة التى هبطنا عليها ترتفع ٣٥٥ مترا فوق سطح البحر ، ومنها انتقلنا إلى شرفتين أخريين على درجات وصلت بنا إلى الشرفة المفتوحة الواسعة ، حيث الهواء النقى الطلق . ومنها صعدنا إلى الشرفة الدائرية حيث محلات بيع الهدايا التذكارية ومطاعم الوجبات الخفيفة . ومن هذه الشرفة كانت إطلالتنا على المدينة الحديثة التى بدت وكأنها مدينة الأقزام بسياراتها التى تظهر ، وكأنها النمل المتحرك حول مبانيها التى تبدو مثل علب الكبريت !

المدينة الحديثة بناطحاتها ومجمعاتها وفنادقها ومصانعها وشوارعها الفسيحة النظيفة المنمقة ، بدأ تأسيسها الحديث عام ١٩٤٦ بعد أن تحررت من الحكم الاستعمارى اليابانى . ولم تكد ترتفع رأسها حتى شهدت فترة من التخريب والتدمير خلال الحرب

الأهلية التى دارت بين الشمال والجنوب وامتد لهيبها ثلاث سنوات « ومع نهاية الحرب عام ١٩٥٣ عادت لتصبح إحدى أكبر عشر مدن فى العالم ، بملايينها العشرة الذين قام على أكتافهم بناء المدينة التى امتدت على مساحة ٦٢٧ كم٢ فى عام ١٩٧٣ ثم اتسعت بجهدهم ومثابرتهم وجديتهم لتتحول إلى مدينة عصرية رائعة ، تعد من أجمل مدن العالم .

● مانهاتن الكورية

من يستطيع أن يصدق عينيه عندما يجد أن كثيبا رمليا كبيرا متخلفا من نهر «هان» ، قد تحول إلى مدينة تناطح مبانيها السحاب فى مدى أقل من خمس عشرة سنة ، يتزاحم بين حناياها نهارا مئات الآلاف من العاملين المتدافعين إلى أعمالهم ، ويتحول ليلها إلى أضواء متلألئة متباينة الألوان مع تواصل نشاطات أبناء المدينة فى مختلف الميادين ...

يحتضن حى « يودو » وحده مئات المنشآت الحكومية الرئيسية بما فيها مبنى الجمعية الوطنية بقبته النحاسية الضخمة ، والمركز الرئيسى للإذاعتين المرئية والمسموعة والمؤسسات العامة للصناعة والمصارف والمجمعات والمراكز التجارية ، تتوسطها أطول ناطحة سحاب فى آسيا بطوابقها الثلاثة والستين والتى تعتبر قمة من قمم النهضة الكورية الحديثة . .

أما الجسر الطويل الممتد بعرض نهر «هان » الذى لايقل اتساع مجراه عن نهر النيل ، فيربط حى يودو ، بقلب سيول الحى الذى يسمونه «مانهاتن كوريا » حيث المركز المالى الرئيسى الشبيه بمثيله فى الولايات المتحدة ، ويضم البنك المركزى وسوق الأوراق المالية والمصارف الائتمانية .

وفى الجانب الجنوبى لنهر «هان » يمتد حى «يونج دونج » الذى تربطه بالمدينة القديمة ثلاثة جسور ، ويتوسطه مجمع المعارض الكبير المسمى «كوكس » بما يضمه من أجنحة لمختلف المعروضات والصناعات والسلع التجارية المحلية والأجنبية .

النهر الكبير الذى يقسم سيول ويمتد مسافة ٥١٤كم من منبعه فى قلب شبه

الجزيرة الكورية ، لم يلعب دورا رئيسيا فى الحياة السياسية والاقتصادية والصناعية والتجارية والثقافية للبلاد فحسب ، بل كان له دور رئيسى فى الدفاع الوطنى والأمن القومى ، كما كان مسرحا للحكايات والأساطير الشعبية للشعب الكورى . لهذا لم يكن غريبا أن يلقى النهر ذلك الاهتام الحضارى الذى يجعله نموذجا للتألق والجمال بما أقيم على طول جانبيه من المتنزهات والحرائق والعمران الحضارى بتنسيق نموذجى ، وما امتدعلى شاطئيه من شبكات للتصفية تساعد على تطهير مياه النهر وتنقيتها وتضمن عدم تلوثها بالنفايات والمعلقات ليكون مرآة لامعة نظيفة طوال اختراقة للمدينة بين الشمال والجنوب .

على جانب هذا النهر العظيم ، أقيم أحدث وأجمل الإنشاءات الحديثة فى سيول ، بالجهد والتصميم والمثابرة والبراعة فى الإنشاء والعمارة . . إنها المدينة الأولمبية ومجمع سيول الرياضى ...

● ميدان أولمبياد ١٩٨٨

هنا نشهد صورة رائعة تتفق مع الشعار الذى اتخذته «لجنة سيول لدورة الألعاب الاولمبية « تحت عنوان » حسن التنسيق والحرص على النجاح» .

منذ اللحظة الأولى داخل أسوار المدينة الرياضية ، أحسسنا مدى الجهد الذى بذل لتأكيد تصميم كوريا الجنوبية ـ كأول بلد نام ينظم دورة الألعاب الأولمبية ـ على أن تجعل من الدورة حدثا رياضيا عالميا هاما وتجربة ثقافية رائدة . وكما قال لنا مرافقنا الذى تجول بنا بين أنحاء المدينة : « لقد صدقت نيتنا على أن نجعل هذه الدورة أكثر الدورات كفاءة وأنجحها اقتصاديا فى تاريخ الألعاب الأولمبية ، وبذلك نعطى مثلا يمكن أن تحتذبه سائر البلدان النامية ، وتصبح الألعاب الأولمبية حدثا دوليا بمعنى الكلمة ، ليس قاصرا على الدول المتطورة وحدها » .

المجمع الرياضى يحتل مساحة من الأرض تبلغ ٥٤٥ألف متر مربع ، والمدرجات فى صالاته معدة لاستقبال ٢٠٠ ألف مشاهد ، ومواقف السيارات تتسع لعشرة آلاف سيارة ، والمنشئات الرياضية استخدمت لإقامتها وتشغيلها أحدث الآلات الميكانيكية والإلكترونية والتقنية .

وندخل إلى حلبة الاستاد الأولمبى . .

الساحة مساحتها ١٣٢ ألف متر مربع ، والمدرجات تتسع لمائة ألف متفرج ، تتحرك كلها إلكترونيا بحيث تتداخل كل مقاعد المدرجات فى بعضها لتظهر لامعة نظيفة آمنة من جوانب الملعب قبل المباريات لاستقبال المشاهدين ، ثم تختفى تماما بعد خلو الملعب فى أقل من نصف ساعة ولايظهر منها شىء أما المدرجات فمغطاة بمظلة دائرية جذابة تمتد من جوانب الاستاد ، وقد صممت بطريقة تجمع بين هندسة العمارة الحديثة والنمط التقليدى الكورى . فى هذا الاستاد الرئيسى أقيمت مراسم افتتاح الدورة وختامها . وفوق ساحتها جرت مباريات كرة القدم النهائية ومسابقات الميدان وألعاب الفروسية .

شهدنا جملة من الإنشاءات الأخرى التى وضعت تحت تصرف اللجنة المشرفة على الإعداد للدورة منها ملعب « تونجدامون » المدرج وتتسع درجاته لثلاثمائة ألف متفرج وهو مخصص لسباق الخيل . وهناك ميدان الرماية الدولى فى «تايننج » شمال شرقى سيول، أما المساقات الأخرى فى الرماية بالسهام فقد أعد لها ميدان «هوارانج» وقد أجريت مسافات كرة المضرب فى صالة الألعاب المغطاة بجامعة سيول الوطنية . أما مسابقات الفولى بول فأجريت فى ملعب جامعة هانيانج المغطى على مسافة عشرة كيلو مترات من القرية الأولمبية ، وتتسع مدرجاته لثمانية آلاف متفرج . أما فى المدن الأخرى ففيها ملعب سوون المغطى وتتسع مدرجاته لحوالى خمسة آلاف فقد أقيمت مباريات كرة اليد ، بينما فى ملعب سونجام ويتسع لحوالى ٢٥ ألف متفرج أجريت مباريات الهوكى وحلقة المصارعة ، أما الملاعب البلدية فى تايجون وكوانجيو وتايجو وبوسان وتتسع مدرجات كل منها لحوالى ٣٠ ألف متفرج فقد خصصت للمباريات التمهيدية لكرة القدم .

تلك هى أحدث الإنشاءات التى أقيمت فى سيول ومايزال الاستاد قائما يؤدى دورا رياضيا كبيرا والآن . . نواصل تجوالنا فى مدينة سيول . .

ونبدأ التجوال بحضور مأدبة تكريم أقيت للترحيب بنا لنجرب من خلالها فنون المطبخ الكورى

• حكاية لحم الكلاب

قبل أن ندخل القاعة التى أقيمت فيها المأدبة ، تبادلنا وزميلى المصور نظرات التردد عندما وجدنا فى الصدر مائدة حافلة بالطعام الشعبى المميز ، وهو ماكان علينا أن نجربه فى البداية ، وأدركت مرافقتنا سر ترددنا وماكنا نخشاه فقالت باسمة :

ـ لاتخشوا شيئا . . المهم ألا تجربوا « البوشنتانج » !

كنا نسمع أن البوشنتانج نوع من الطعام يفضله الكوريون ، وبخاصة فى الريف . . وهو شواء من « لحم الكلاب » وبسببه كنا نتعمد ألا نأكل اللحوم فى أى وجبة إذا كانت خارج الفندق لهذا أعلنا لمرافقتنا أكثر من مرة أننا لن نجرب أى شواء !

ابتسمت وهى تقول :ـ عليكم أن تطمئنوا فالبوشنتانج ممنوع بأمر الحكومة فى كل المدن الكورية ، وإن كان البعض فى القرى مازالوا يفضلونه ، ولكن لماذا تتأففون ؟ لقد سمعت أن بعض القبائل العربية تأكل الجراد وفى أوروبا يأكلون لحم الخيل ، وفى فرنسا يتلذذون بأكل الضفادع ، والفلاحون فى بعض الدول الغربية يأكلون فيران الحقل، وفى بعض دول أفريقيا يأكلون دود الأرض الكبير مسلوقا ومقليا ومشويا أيضا . . !

كانت تقول الحقيقة . ولكننا عندما جربنا وجبة الطعام الشعبية لم نتناول سوى الأطباق الرئيسية من الطعام الكورى . . وهى الحساء والأرز والخضار المشكل مسلوقا والبقول المطحونة بالثمار و « الكمشى » وهو كرنب مخلل ومتبل حار المذاق ومرق الصويا ومعه منقوع « الجيزنج » وهو نوع من الأعشاب يعتقدون أنه يقوى الجسم ويجدد الشباب ! !

وكانت هناك أطباق أخرى تقدم كلها وتؤكل سويا . . من بينها « البولغوفى» وهو شرائح من لحم البقر تشوى على الجمر فوق المائدة بعد أن تتشرب مرق الصويا الممزوج بالزيت والسمسم والثوم وعدة توابل أخرى ، وذلك غير » الشينسوللو » ويجمع بين اللحم والبيض والجوز وخضراوات مرتبة بشكل فنى جميل فى طبق ذى مدفأة مصممة للمحافظة على حرارة الطعام عند درجة معينة ...

مثل هذه الأطعمة التى يتميز بها المطبخ الكورى جربناها بعد ذلك خلال جولاتنا بين معالم سيول الحديثة والقديمة . . خاصة عندما كنا نتنقل بين الأسواق الشعبية والأحياء التجارية التى لاتستطيع أن تقطع جولتك فيها لتعود إلى الفندق لتناول الطعام الغربى .

● الاسواق متعة وحدها

فى هذه الأوقات كانت متعتنا أن نتجول بين المتاجر والمعروضات داخل أسواق «نامدامون وتو نجدامون وإيتاون » ومراكز الصناعات التقليييدية فى مبنى دمون ، والأسواق الشعبية العامرة بالبضائع ذات الثمن الزهيد . هناك كنا نصاب بالدهشة أمام الطريقة التى يتعاملون بها مع كل راغب فى الشراء فى معارضهم ومتاجرهم ، فالبائعات عندما يريننا نقترب كن يخرجن إلينا من المعرض لمصافحتنا ببشاشة وود وترحيب ، ويجذبننا إلى الداخل ، وهو مايفعلنه مع الجميع . وطريقة البائعين محببة ومغربة فى عرض سلعهم التى يعرفون من خلال نظرتهم إلى المشترى والمتجول فى السوق كيف يجتذبونه ، وهم يدركون من خلال نظرتهم المتفحصة جنسية الزبون ومايود أن يقتنيه ومايمكن أن يغريه ، المساومات لابد منها وهى إحدى سمات التعامل التجارى وخاصة فى أسواق ايتاون التى يرتادها السياح من كل مكان . . وتستطيع أن تهبط بالثمن المعروض إلى ثلث القيمة أو نصفها فى كثير من الأحيان . ومهما دفعت من ثمن فلن تستشعر أنك كنت مغلوبا فى عملية الشراء خاصة عندما تشترى الملابس أو الأقمشة التى يفصلونها لك خلال ٢٤ ساعة لتتسلمها « بدلة » من ثلاث قطع غاية فى الأناقة والدقة وسلامة المقاس وبأقل الأسعار . . بل وحتى ملابس النساء يمكن تفصيلها خلال نفس المدة بعد اختيار نوع القماش ، وأجمل أنواع الحرير وبألوانه الزاهية الأنيقة ، ولكن هناك ماهو أكثر جاذبية من الملابس والأقمشة والأحذية . . إنها المجوهرات والصناعات التقليدية واليدوية والفنية التى تعمر بها المعارض والمحلات وحتى الأرصفة التى يفترشها الباعة على الجانبين ويعرضون عليها كل أنواع السلع ، بما فيها الأجهزة الإلكترونية والساعات والحقائب وألعاب الأطفال والمصنوعات الجلدية خاصة ، ومنتجات الكائنات البحرية المحببة والموجودة بكثرة فى كل مكان . وأجمل من

كل ذلك ماتجده فى أسواق تونجدامون من القطع الفنية التقليدية والتاريخية والأثرية وبخاصة المحفورة فى الخشب أو المصنوعة من السيلادون والسيراميك واليشب الأخضر الذى يبدعون فى تشكيله وصياغته ونجد له سوقا رائجة بين السياح القادمين من دول الغرب باعتبارها أجمل الهدايا التى تمثل إبداع الشرق . . على أنك طوال تجولك فى الأسواق الممتدة ومع مضى الوقت ستجد باستمرار مايخفف عنك التعب فى المطاعم والمقاهى وأندية الموسيقى والفيديو ، وكلها تتميز بالأناقة والنظافة والجاذبية فى كل شىء .

● مدينة الملوك

وبعيدا عن الأسواق نواصل جولاتنا فى سيول وهى فى الحق عروس تتألق فى كل شىء ، الجمال والأناقة والنظافة التى لاتجد معها ورقة أو عقب سيجارة فى الطريق أو على الرصيف أو أى نفاية يمكن أن تخدش جمال المدينة . بل إن ذلك الجمال يزداد جاذبية بما يعمرها من معالم معتنى بها كل العناية يمتد تاريخها إلى أكثر من ستمائة سنة من الثقافة الكورية ، يمثلها تراث وكنوز تجعل منها بانوراما ومتحفا مفتوحا لكل فنون البلاد وتاريخها وأمجادها .

على أن هذه السنوات الستمائة هى فقط الأكثر بروزا فى عمر سيول القديم الذى يمتد إلى ثلاث آلاف سنة فى عمق التاريخ . كانت المدينة فى أول أمرها تحمل اسم «ويرى سانسونج» ومعناها «القلعة» فى عصر مملكة بايكيزيا إحدى الممالك الثلاث الكبرى التى حكمت شبه الجزيرة الكورية منذ عام ١٨ ق. م حتى قامت مملكة شيلا الموحدة (٦٦٨ ـ٩٣٥ م) ثم مملكة كوريو (حتى عام ١٣٩٢ م) حيث بدأ عصر مملكة زوسان (عصر يى) التى امتد حكمها حتى بداية القرن العشرين عام ١٩١٠ واتخذت المدينة مقرا لحكمها بعد أن حولت اسمها إلى « هاينانج » .

خلال عصر « يى » شهدت العاصمة أزهى فترات تاريخها الذى لاتزال معالمه باقية حتى اليوم . فقد أقيمت على أسس هندسية متميزة سواء فى قصورها الرائعة أو معابدها الملكية ، أو أسوارها المحصنة التى كانت تحيط بالمدينة بطول ١٧ كم تتلوى بين جبل

نامسان وجبل بوك هانسان، ببواباتها الثماني التي مازال متبقيا منها خمس حتى الآن أعيد ترميمها وأصبح بعضها يتوسط أجمل الميادين وأفسحها مثل البوابة الجنوبية (نامد أمون) والبوابة الشرقية (تونجد أمون) .

بعد الغزو اليابانى لكوريا عام ١٩١٠ أعيدت تسمية المدينة لتصبح « كيونج سونج » وصلت تحمل ذلك الاسم حتى أغسطس عام ١٩٤٥ حين تحررت كوريا من الحكم الاستعمارى اليابانى وسمت عاصمتها « سيول » .

من خلال نظرة قريبة متعمقة تجولنا بين معالم رائعة من الآثار القديمة فى « مدينة الملوك » التى تم ترميمها والمحافظة عليها . روعة هذه المعالم تبدو فى القصور والمعابد والأضرحة والأسوار والبوابات البرجية والمتاحف التى تعطى للدارسين للحضارة الكورية ثروة ضخمة من المعلومات عن البلاد وسكانها ، وتمثل تاريخا مجيدا لعصر مملكة زوسان الذى امتد لأكثر من خسمة قرون .

تعال بنا نشهد بعض أمثلة ذلك التاريخ الذى يعتز به الكوريون ويغذون به أبناءهم منذ مرحلتى الرياض والابتدائى الذين تراهم يتجولون بين أنحاء القصور والمتاحف باحترام وهيبة ويسجلون فى دفاترهم الصغيرة كل مايرونه اعتزازا منهم بماضيهم التليد .

● عندما تحكى القصور

وندخل قصر « كيونج بوكونج » . . هو قصر سيول الرئيسى ، بناه الملك تايجو عام ١٣٩٤ ولكنه أحرق عند الغزو اليابانى عام ١٥٩٢ ، وترك القصر المدمر مخربا تماما حتى عام ١٨٦٧ حين قام الحاكم تاونجون بإصلاحه وترميمه ليكون مقرا لابنه الملك كوجونج ، ولأجل أن يجعل القصر آية فى العظمة أقام مجموعة من الأجنحة والقاعات الملكية تفوق ماكان عليه القصر الأصلى من فخامة ، واضطر لمواجهة النفقات الضخمة لإعادة تشييد القصر إلى فرض ضرائب ثقيلة على الشعب وصك نقدا بقيمة كبيرة لم يكن له غطاء ذهبى ، وسخر عمالا من جميع أنحاء البلاد ليشاركوا فى البناء . وقد أثقل ذلك كاهل الميزانية النقدية للمملكة حتى استنزاف أموالها لإعادة بناء القصر وكان هذا سببا غير مباشر وراء سقوط المملكة فى أيدى الغزاة عام ١٩١٠ . غير أنه لأهمية القصر

وارتباطه بالتاريخ القومى فقد اهتمت به الدولة بعد الاستقلال وأعيد بناء بوابته الرئيسية (كوانجدامون) عام ١٩٦٩ بقبابها الثلاث وأفاريزها المزدوجة وسقوفها القرميدية التى تعد من أروع الآثار القائمة فى المدينة ، وتطل على أكبر شوارع وميادين سيول ، ويقوم على مدخلها تمثالان لحيوانين أسطوريين يقال إنهما يحميان القصر من النار . . وإن كانت النار قد أحرقت القصر أكثر من مرة على مدى سنوات متتالية !!

لم نكد نجتاز باب القصر ونجتاز أسواره ذات البوابات الأربع حتى وجدنا أنفسنا فى ساحة متسعة تحيط بها الحدائق وأحواض الزهور ، وواجهنا فى وسط الساحة بناء رائعا يمثل « الباجودا » يعتبر من أجمل الآثار الملكية الكورية . والباجودا أحد معالم الفن الكورى المنقول عن الصين ، وهو عبارة عن برج شيد من الآجر ويرتفع فوق ثلاث قواعد من الحجارة ، تقام فوقها ثلاث طبقات ذات شرفات كبيرة يعلوها سبعة طوابق صغيرة مربعة ذات شرفات على نفس الهيئة ، وكل طابق يحمل تماثيل لبوذا وأتباعه المقدسين تتوسطه زهرة اللوتس . وقد اصطبغت الباجودا فى العقيدة البوذية ببعض الخرافات التى كانت منتشرة فى البلاد ، وكانت رمزا للتنبؤ بالغيب عن طريق الشقوق والعروق ، كما كانوا يعتقدون أنها تقى الناس غوائل الأعاصير والفيضانات وتسترضى الأرواح الشريرة وتجلب الرخاء ورغد العيش . لهذا فهى توجد بصورة أو بأخرى فى كل المعابد البوذية وقصور الملوك التابعين لهذه العقيدة . بجوار المبنى الرئيسى للقصر تقوم عدة أبنية منها قاعة استماع ومشاهدة تسمى « كونشجون » هى أكبر بناء خشبى فى كوريا . ويقوم صرح آخر يسمى » كيونج هورو » على أعمدة فخمة عددها ٤٨ عمودا حجريا وسط بحيرة رائعة أعدت كمقصورة للاستقبالات الملكية . . ويزين الصرحين والأفاريز تماثيل للتنين بألوان زاهية مستلقية وهى رافعة رؤوسها لحماية المكان الملكى . أما الزخارف الملونة فى السقف ، فهى على النمط الكورى التقليدى بنقوشة الزاهية ذات اللون الأحمر والأخضر والأصفر .

القسم الجنوبى من القصر تحول الآن ليكون مقرا للمتحف الوطنى . فى هذا المتحف شاهدنا كنوزا تاريخية قيمة من بينها تماثيل كبيرة من البرونز لبوذا ، ولوحات حائطية رائعة ترتبط بالعقيدة البوذبة التى كان يعتنقها ملوك زوسان جلبت من مقابر قديمة .

ومن أروع محتويات المتحف المجوهرات الملكية والتاج المصنوع من الذهب على درجة كبيرة من الروعة والفخامة والإتقان ، بالإضافة إلى قطع خزفية لاشبيه لها فى جميع أنحاء العالم مصنوعة من السيلادون « كوريو » ، الذى اشتهر فى ذلك العصر ، وبرغم المشاهد الرائعة للقصر ومايحيط به والتى فقدت الكثير من ماضيها الملكى التاريخى إلا أنها لاتزال مفخرة ودليلا على عظمة عصر زوسان الملكى .

● قصر شانج دوكونج

وننتقل إلى قصر « شانج دوكونج » قالت لنا مرافقتنا « أحلام » إن القصر تم بناؤه عام ١٤٠٥ كقصر ملكى شرقى جرى الآن ترميمه وإعادة إصلاحه . وهو أحد النماذج الرائعة للقصور الملكية فى سيول والأكثر اجتذابا للسياح على أمل أن يلتقوا بأميرتين لاتزالان تقيمان فيه ، وهما كل من بقى حيا من الأسرة المالكة التى أطيح بها ، وإن كانتا لم تظهرا لأحد من الزائرين أبدا بعدأن أغلقتا على نفسيهما الجناح الملكى الخاص بهما .

القصر يعتبر أكبر القصور الملكية الباقية على الطراز التقليدى الكامل . وينقسم إلى أربعة أقسام . . المبنى الرئيسى وقاعة الاستقبال الملكية وجناح الأسرة المالكة من السيدات ثم الحديقة السرية المسماة «يى وان» وتغطى مساحة ٧٨كم٢ ، وكانت ممنوعة إلا للملك والملكة ولايسمح لغيرهما بارتيادها . تضم مبانى القصر المقامة على النمط الشرقى آثارا ترجع إلى عهد آخر الأسرة المالكة فى كوريا ، وأغلب الغرف ماتزال مؤثثة ، كما كانت فى عهد الملوك وحاشيتهم ، وقد شهدنا العربة الملكية وأولى السيارات القديمة التى كان يستخدمها الملوك السابقون خلال الأيام الأخيرة للأسرة الحاكمة . وسقف الجناح الملكى من قرميد أزرق من نوع فريد زاخر بالزخارف وتماثيل التنين الحارسة ، كما توجد معروضات تضم الملابس التاريخية القديمة والأسلحة وسائر القطع الفنية التقليدية العتيقة .

تنقلنا فى القصر بين ١٣ مبنى و٢٨ مقصورة ، أما حديقته الخلفية فهى نادرة الجمال وتمثل النمط الأصيل للحدائق الملكية فى ذلك العصر ، وقد أنشئت الحديقة وبحيرتها

لإقامة الحفلات المفتوحة والمهرجانات البوذية ومعلقاتها من القناديل الملونة ، وتم توسيع الحديقة عما كانت عليه من قبل ، وأضيفت اليها إضافات تجعل منها متحفا للعمارة الكورية وفنون تنسيق الحدائق على النمط التقليدى ، ولايسمح بدخولها إلا لمجموعات صغيرة مع مرشدين للمحافظة عليها منذ إعادة ترميمها فى عام ١٩٧٩ .

تضم سيول مجموعة أخرى من القصور الملكية . كان آخر ماشاهدناه منها قصر تشانج بوكونج الذى تم ترميمه أخيرا ، وأما هذا القصر فتوجد حديقة ومقابر « شونجيو» حيث تحفظ لوحات بأسماء أسلاف الملوك والملكات فى عصر أسرة زوسان وعددهم ١٨ ملكا .

فى ساحة هذا القصر تقام الاحتفالات الكونفوشيوسية التى كانت تجرى من قبل خمس مرات فى السنة فى عهد مملكة زوسان وشهدنا إحداها وهى تقدم إحياء للطقوس الكنفوشيوسية ، وشارك فى إحيائها أحفاد مملكة زوسان وذلك للحفاظ على تقاليد ذلك العصر . كان المحتفلون يرتدون الزى التقليدى الملون ويشاركون فى تقديم المعزوفات على آلات موسيقية تنتمى لنفس الفترة .

ومازالت هناك معالم أخرى فى سيول تستحق الزيارة .

● بوابة نامدامون

هذه البوابة هى بوابة سيول الجنوبية الكبرى . تم إقامتها فى البداية عام ١٣٩٨ ضمن مشروع بناء جدار لتحصين العاصمة الجديدة . الاسم الرسمى المكتوب على البوابة ليس هو اسمها المعروف ، ولكن اللوحة تحمل اسم « سونيمون » وتعنى « بوابة الاحتفال البهيج » وتعتبر الكنز الوطنى الأول .

على مسافة قصيرة يقع سوق نامدامون . السوق كبيرة تشمل محلات كثيرة تحت الأرض ، وبها بسطات مفتوحة مع مبان متعددة بالأدوار متباينة المعروضات . وحتى ننزل فى المنحدر الأول نجد أنفسنا فى سوق السمك بروائحه وتعدد أصنافه وزبائنه الذين يمثلون مختلف وجوه السكان والمقيمين . أما المنحدر الثانى فنهبط فيه لنجد قسم ملابس الأطفال . . بينما منحدر ثالث يوصلنا إلى مختلف أصناف المأكولات

الأميريكية حيث الوجبات السريعة مثل مكدونالد وماك برجر وفراين تشيكن . ويتناثر فى هذا السوق أفراد يقومون بتبديل العملات الأجنبية والصرافة بعيدا عن البنوك حيث يبدلون العملات الأجنبية بأسعار أحسن من المصارف الرسمية وإن كان الأمر يحتمل الخطورة وهو تبديل غير مشروع .

● بوابة تونجدامون

البوابة الرئيسية الأخرى المتبقية فى مدينة سيول هى التى يطلق عليها اسم «تونجدامون » وقد تم اختصار اسمها الرسمى ليصبح « هو نجيمنى » بمعنى « بوابة الخير الرفيع »

تحيط بالبوابة طرقات كثيرة مزدحمة تقود إلى مجموعات كثيرة من الأسواق الداخلية والخارجية حيث يباع كل شىء بأرخص الأسعار . هنا أسواق مختلفة وعربات يد مكدسة بالثياب تختلط بمطاعم الرصيف المتنقلة. . وتباع فى أقسام السوق الأجهزة الإلكترونية والمعدات الكورية الصنع من حاسبات وأجهزة تلفزيون وأفران مكروويف ومعدات كهربائية للمنازل .

ويمكن للمرء أن يغرق فى الزحام ويخدعه انخفاض الأسعار ولا ينتبه إلى سوء تصنيع بعض الأجهزة التى لا تنتجها شركات أومصانع معروفة « فالغش التجارى قائم على قدم وساق والأسماء الرنانة فى العالم يجرى تقليدها وتزوير منتجاتها بأحسن طرق التزوير.

● بوابة التحول بالضوء

يوصلنا الطريق العام الذى يبدأ عند بوابة نامدامون إلى « بوابة التحول بالضوء » القائمة أمام المتحف الوطنى وكان من قبل يسمى الكابيتول . وعند التقاطع نجد تمثال الأدميرل « يى سون شى » وهو قائد بحرى من القرن ١٦ وهو مخترع « سفن السلحفاة » المدرعة التى هزمت الأساطيل الحربية اليابانية خلال الغزو اليابانى عام ١٥٩٢ .

غير بعيد من تقاطع الميدان يوجد المركز الثقافى حيث تعرض الفنون التقليدية والحديثة ، وعلى طول الطريق يقوم مبنى رئيسى يضم مجموعة من البنوك والمصارف الدولية ومكاتب الأعمال ونرفع عيوننا إلى برج مرتفع يسمى برج « جرس بوشنجاك »

وهو جرس كان يدق عند الشروق والغروب فى عهد « سلالة يى » لإعلان فتح أبواب المدينة وإغلاقها . وبعد تحرير كوريا أصبح الجرس يدق فى منتصف الليل فى آخر كل يوم من أيام السنة . ولكن الجرس تشقق بعد أن بلغ من العمر خمسمائة عام ، وكان آخر دقاته فى نهاية عام ١٩٨٤ ثم نزع من البرج ونقل إلى المتحف الوطنى وحل محله جرس جديد .

«بوابة التحول بالضوء » تتميز بلوحة مكتوبة بأبجدية هانجول بدلا من الأبجدية الصينية التقليدية ، ويحركها حيوانان أسطوريان يمنعان الحريق .

● البرج الذهبى

بخلاف برج نامسان يوجد فى العاصمة برج آخر هو « البرج الذهبى » وهو عبارة عن مبنى لمقر شركة ديهان للتأمين على الحياة . البرج يعد أطول المبانى فى المدينة وبه العديد من الأنشطة التى تثير اهتمام السياح والمواطنين .

فى الدور الستين من هذا البرج تقع منصة مراقبة . يمكن الوصول إليها بواسطة مصعد كهربائى سريع أو مصعد زجاجى خارجى . الإطلالة رائعة تملأ العين بمشاهد المدينة كلها حتى . المرفأ . وتوجد فى الأدواز العلوية مطاعم أنيقة . أما الدور الأرضى للبرج فيضم مركزا للبيع يختص بالبضائع الأمريكية مع مطاعم المأكولات السريعة الأمريكية والكورية واليابانية . كما يوجد فى الدور الأرضى ايضا أحد مسارح «ايماكس» القليلة فى العالم والتى تعرض الأفلام على شاشة أكبر عشر مرات من شاشة السينما العادية . وقد شهدنا فيه أول عرض حتى الصباح حيث قدم فيلما عن كوريا اسمه «كوريا الجميلة »

هناك صالة لمحبى الأسماك من مختلف الأنواع والأحجام يصل عدد أسماكها إلى أكثر من عشرين ألف نوع تعيش فى المياه المالحة والحلوة . عروضا يشترك فيها الدولفين وسمك القرش والأخطبوط تثير إعجاب الكبار والصغار .

● منتزه سيول

على طريق سيول ـ بوسان وعند قدم جبل شونجيسان مدخل حديقة الحيوان بالإضافة إلى ماتضمه من حديقة نباتية ومركز ثقافى للشباب ومتنزه للترفيه .

يوجد فى هذه الحديقة أكثر من أربعة آلاف حيوان من ٤٥٠ نوعا مما يجعلها خامس أكبر حديقة حيوانات فى العالم . ونستطيع أن نتجول بين جنباتها بواسطة . قطارات كهربائية . تنتهى عند مبنى تقدم فيه عروض شعبية للدولفين .

أما الحدائق النباتية فتنقسم إلى قسمين ... البيوت الزجاجية للنباتات ، وغابة تمرح فيها العصافير الملونة من مختلف الأشكال والأنواع

وفى الحديقة أربع مناطق تقدم فيها العروض المتنوعة «هى أرض المستقبل »أو « أرض العجائب » و « شبه الجزيزة الكورية » و » قرية العالم »

●الفن فى البيت الكورى .

شهدنا العرض الحى لأنواع الرقص والغناء والموسيقا التقليدية فى « البيت الكورى». أحد هذه العروض لموسيقا كلاسيكية مستوحاة من الطقوس الكونفوشوسية تسمى «الأك» . وهناك غير هذا النوع موسيقا ذات أصل صينى كانت تقدم فى حفلات القصر فى حضرة الملك والحاشية تسمى « كانجاك » وهى غير الموسيقا ذات الأصل الكورى وتسمى « هيانجاك » يضاف إلى كل ذلك أنواع من التراتيل البوذية والموسيقا الفولكلورية وفرق الفلاحين الموسيقية الشعبية .

الموسيقا المصاحبة لرقصة البلاط التقليدية تتميز بالهيبة والبطء والهدوء والتعقيد ، تتداخل أنغامها الطويلة الغنية بالزخارف الجميلة والعواطف المقيدة والانفعالات المكتومة . أما الآلات الموسيقية التى يلعب عليها العازفون فعتيقة أكثرها من أصل صينى ثم طورت . من بين هذه الآلات القيثارة والناى ومزمار الغاب ذو الفرعين وأنواع من الآلات الترددية . ويصحب صوت المغنى دقات الطبول الرتيبة لضبط الإيقاع . وتتميز الرقصات المصاحبة بالجلال والهيبة وحرفية الأداء .

على العكس من ذلك نجد أن الموسيقا الشعبية تتميز بالسرعة والحيوية والعاطفة المشبوبة . تصحبها رقصات طبيعية مفعمة بالنشاط ولاتخلو من حركات رياضية تغلب عليها الإيقاعات غير المنتظمة ذات التوقيت الثلاثى المركب ، وتستخدم فيها بعض الآلات التقليدية ، وإن كانت تعتمد أساسا على النواقيس المعدنية والطبول الشبيهة

بالساعات الرملية والمسماة « زانجفو » وآلات « الأبوا » التى تشبه النفير . ويصحب الرقص أصوات غناء تؤديه فرقة من وراء الستار تبدو وكأنها « السلويت » تعطى الإيحاء بتعبيرات إنسانية مفعمة بالحياة .

تبدو هذه العناصر الموسيقية الغنائية مجتمعة فى رقصة الفلاحين الفولكلورية ليشترك فيها فتيات وفتيان يعزفون على آلات نحاسية وطبول كبيرة وآلات نفخ . ويبدأ العرض بمشهد فوق الجبل الذى يعيش فيه إله القرية لينتهى فى بيت أحد الفلاحين . ويرتدى أعضاء الفرقة الموسيقية قبعات ذات ألوان زاهية . وتقدم الرقصات فى ستة أشكال متتابعة بعضها ذو إيقاع سريع ، والبعض بطىء الإيقاع ، تصحبها . دقات موسيقية على طبول زجاجية. وهذه الرقصات لاتزال تقدم خلال الاحتفالات الشعبية فى القرى خلال فترات الراحة فى الحقول .

الأسلوب الفنى للموسيقا الشعبية يبدو فى تباين الأنغام اللطيفة الناعمة فى العروض المختلفة . ولعل من أجمل ماشهدناه رقصة المراوح وهى مستنبطة من الطقوس التقليدية حيث تستخدم المراوح فى رقصة تتباين وتتمازج بين القوة والعاطفة فى إبداع فنى مثير.

وتحكى الرقصة كيف تحولت المروحة المستقيمة التقليدية مع الزمن إلى مروحة سهلة الطى ، زينت بزخارف ذات رسوم ملونة ، وأصبحت تنسجم مع ألوان الرداء التقليدى للفتيات الراقصات فى البلاط الملكى ، وهن يزين رؤوسهن بتاج من الزهور . وتحولت الرقصة التقليدية الملكية بما تبدو عليه من الهيبة والجلال لتصبح رقصة شعبية مفعمة بالمرح والعاطفة ، مع نغمات ناعمة نابعة بالحياة وأكثر المشاهد إثارة فى هذه الرقصة عندما تسرع الأنغام الموسيقية بينما تشكل الراقصات باقة واحدة من الأزهار تدور فى سرعة ، والمراوح تفتح على آخرها وهى ترتفع وتنخفض فى انسجام مع الحركة الدائرية البديعة .

ومن أجمل الرقصات التقليدية رقصة الشامانية . وهى العقيدة القديمة التى ماتزال حية فى أعماق غالبية الكوريين حتى بعد أن اتبع بعضهم عقائد وديانات أخرى . هذه العقيدة هى المنبع الرئيسى للثقافة ومصدر فنون الموسيقا والرقص والأساطير والحكايات

الشعبية عند الكوريين . وتقدم هذه الرقصات فى اثنتى عشرة لوحة تقدمها الراقصات فى أزيائهن الملونة البديعة وأغطية الرأس المزينة بالأزهار وبين أيديهن المراوح يتلاعبن بها خلال عروضهن التى من أبدعها رقصة سالبورى »التى تقدمها راقصة تحكى قصة تقليدية لزوجة تحركها مشاعر الرغبة واللهفة إلى مناداة زوجها الذى مات حتى يعود إلى الحياة . والرقصة تعبر عن تباين المشاعر والأحاسيس واندفاعات الأمل ثم انفعالات الألم النابعة عن اليأس عندما تدرك أن الميت لن يعود ... !

وشهدنا لوحة تعبيرية تسمى رقصة الطبول أو رقصة الراهب ، وهى مستوحاة من الطقوس البوذية . وتبدأ بأداء تقدمه راقصة تضع على رأسها غطاء الرهبان الثلاثى وحول صدرها وذراعيها « الشانجسام » ذو الأكمام الطويلة البيضاء . وتؤدى الفتاة رقصتها فى هدوء ، وخلفها طبلة معلقة تتدلى منها أطراف التنين ، ثم تتتابع الموسيقا فى سرعتها حتى تصل إلى قمة الإثارة حتى تصل الراقصة إلى الطبلة فتدقها بمضربيها المختفيين تحت الأكمام الطويلة ، لترسل نغمات متسارعة تعبر عن انفعالاتها الداخلية مع تفاعل الصراع الروحى فى أعماقها حتى ترتفع إلى سمو « النيرفانا » . .

الرقصة تعبر عن مشاعر الراهب البوذى الذى يبلغ مرحلة السمو الروحى « النيرفانا» بعد مراحل متتابعة من المعاناة والآلام تعبر عنها الحركات والنغمات ...

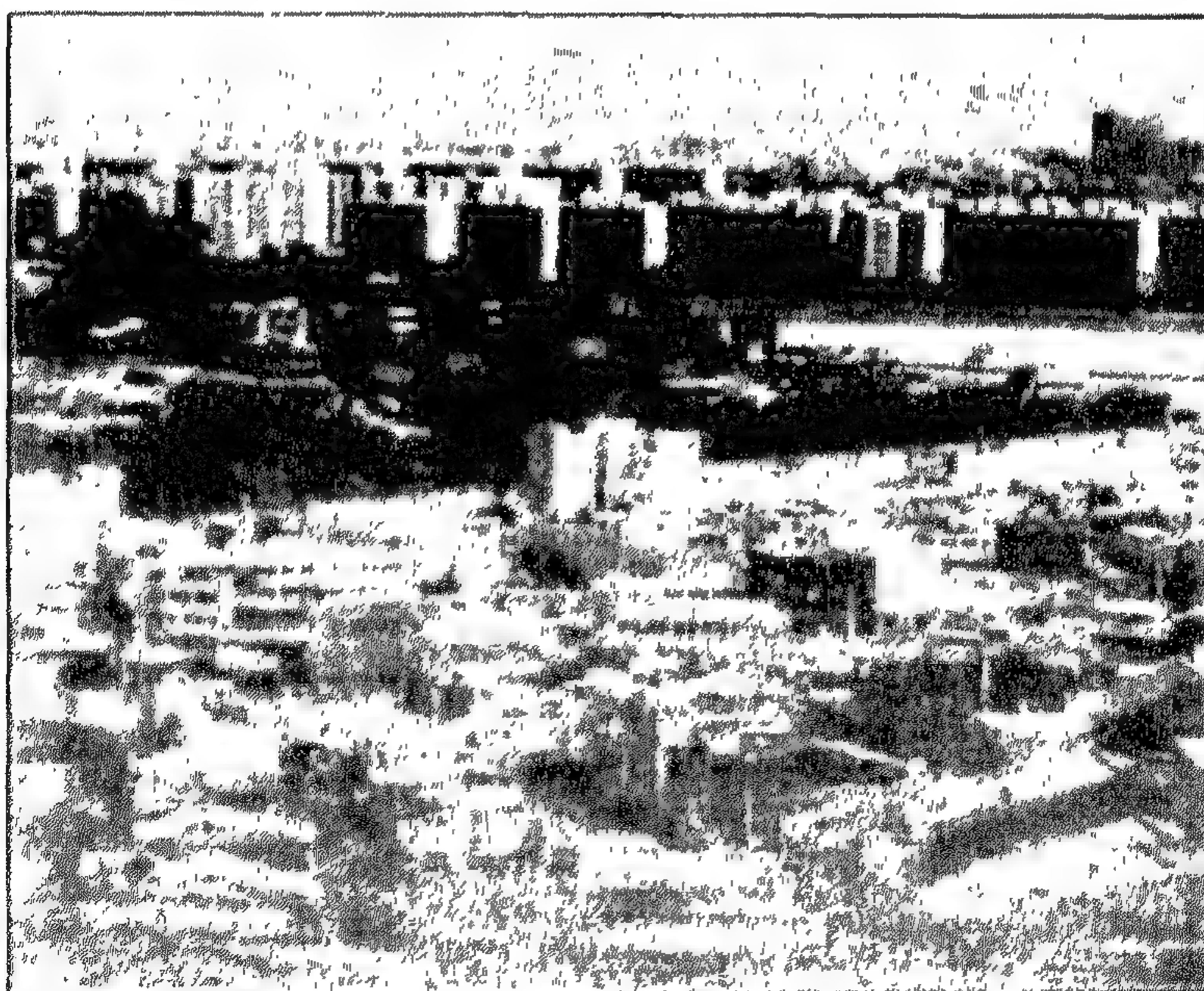
إذا كانت هذه هى أنواع الموسيقا والرقص التقليدى التى تقدم فى احتفالات الكوريين وأعيادهم ومسارحهم ، ويتسلون بها فى رحلاتهم وحفلاتهم سواء بالغناء المنفرد أو بالرقص الذى يؤديه الجميع كل بدوره ، فإن هناك أيضا أنواع من الموسيقا الغربية التى شهدت نجاحا سريعا مع دخول الثقافة الواردة فى أواخر القرن التاسع عشر . وهناك فرق سمفونية عديدة وفرق خاصة بالأوبرا ومعاهد للموسيقا العصرية . وتقام حفلات موسيقية يحييها موسيقيون كوريون أو أجانب وتلقى إقبالا كبيرا . إلى جانب ذلك فهناك تراث غنى فى ميدان المسرحيات التنكرية ، وهى خليط من التمثيل الصامت «بانتومايم» ورقصات الباليه التى تصور مشاهد دنيوية ساحرة ، مع رقصات ومشاهد للقصاصين المتجولين المنشدين على طريقة الربابة المعروفة ، كما أن هناك رقصات الأقنعة يؤديها راقصون وممثلون من الجنسين . .

هناك أنواع أخرى من الفنون برع فيها الكوريون شهدناها خلال زيارتنا للمتحف الوطنى للفنون الشعبية . ففى المتحف تعرض مشاهد ومعالم الحياة والأعمال الشعبية التقليدية منذ العصور القديمة ، مع اهتمام كبير . بعرض الأزياء التقليدية والأثاث والمجوهرات واللوحات الفنية . ومن خلال العروض يستطيع الإنسان أن يتبين أن الفن الكورى يعكس إحساسا بالبساطة التلقائية والقوة الخشنة . .

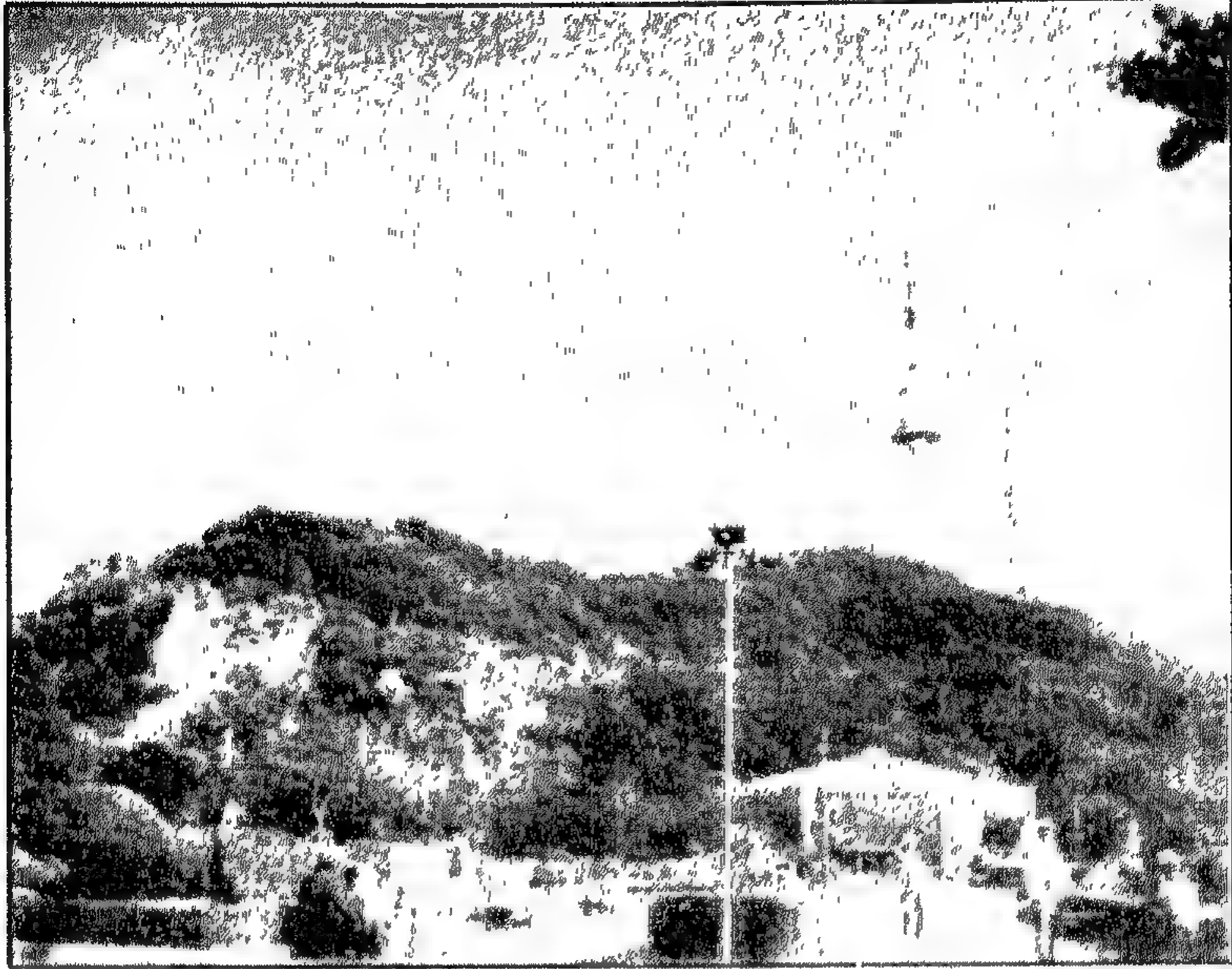
وتدل مشاهد الحيوانات الأسطورية المرسومة فى اللوحات الفنية سواء القديمة أو الحديثة على خيال خصب وهيام جامح هما من صفات الشعب الأصيلة الراسخة فى أعماقه .



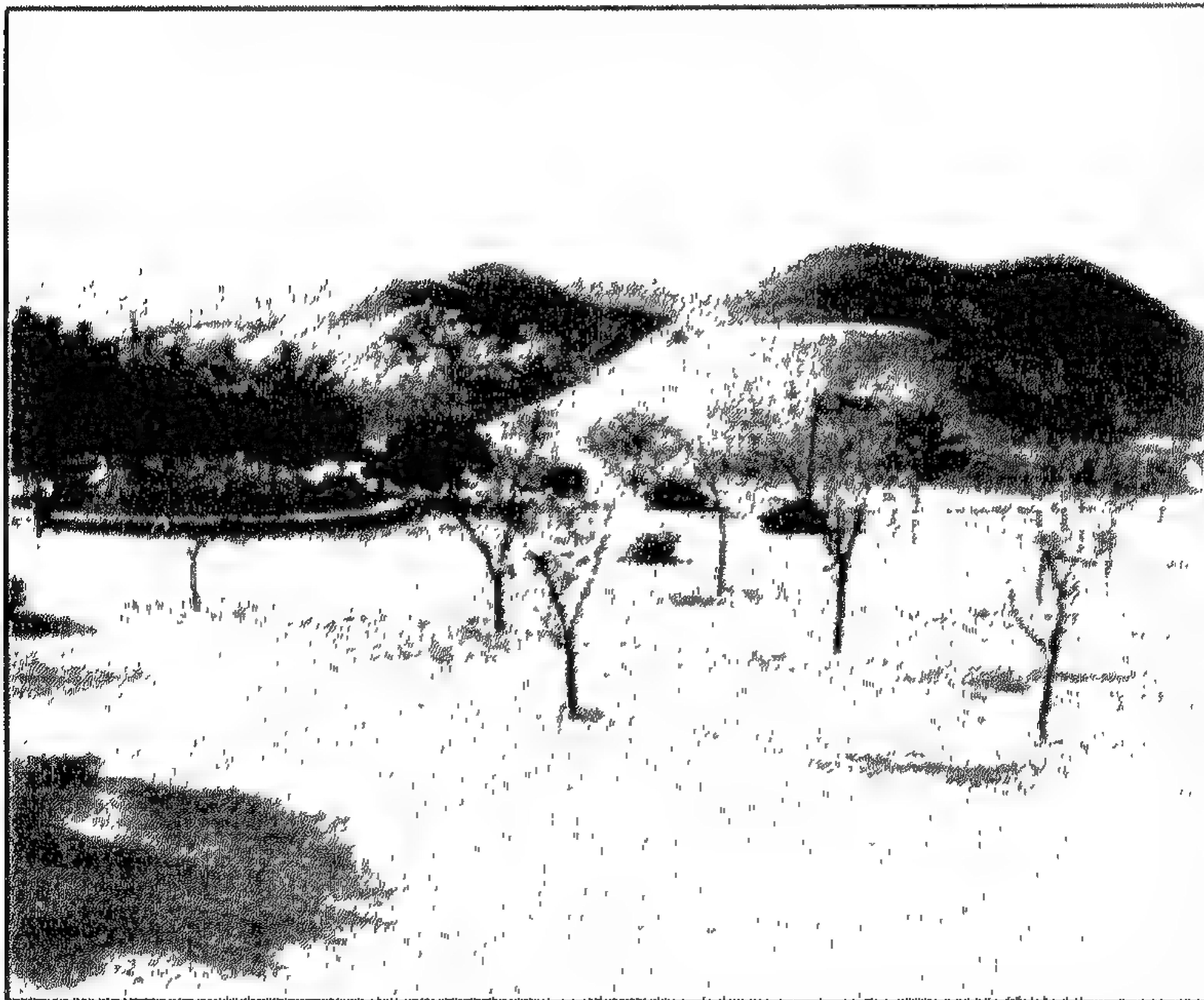
وكيل وزارة الإعلام [illegible]



[illegible]



برج ناماسان المطل على مدينة سيئول من فوق ربوة عالية



منظر عام للأضرحة الدائرية للملوك والملكات من عصر مملكة سيلا
والتي أقيمت في حديقة تومولي وسط المدينة



[illegible]



[illegible]



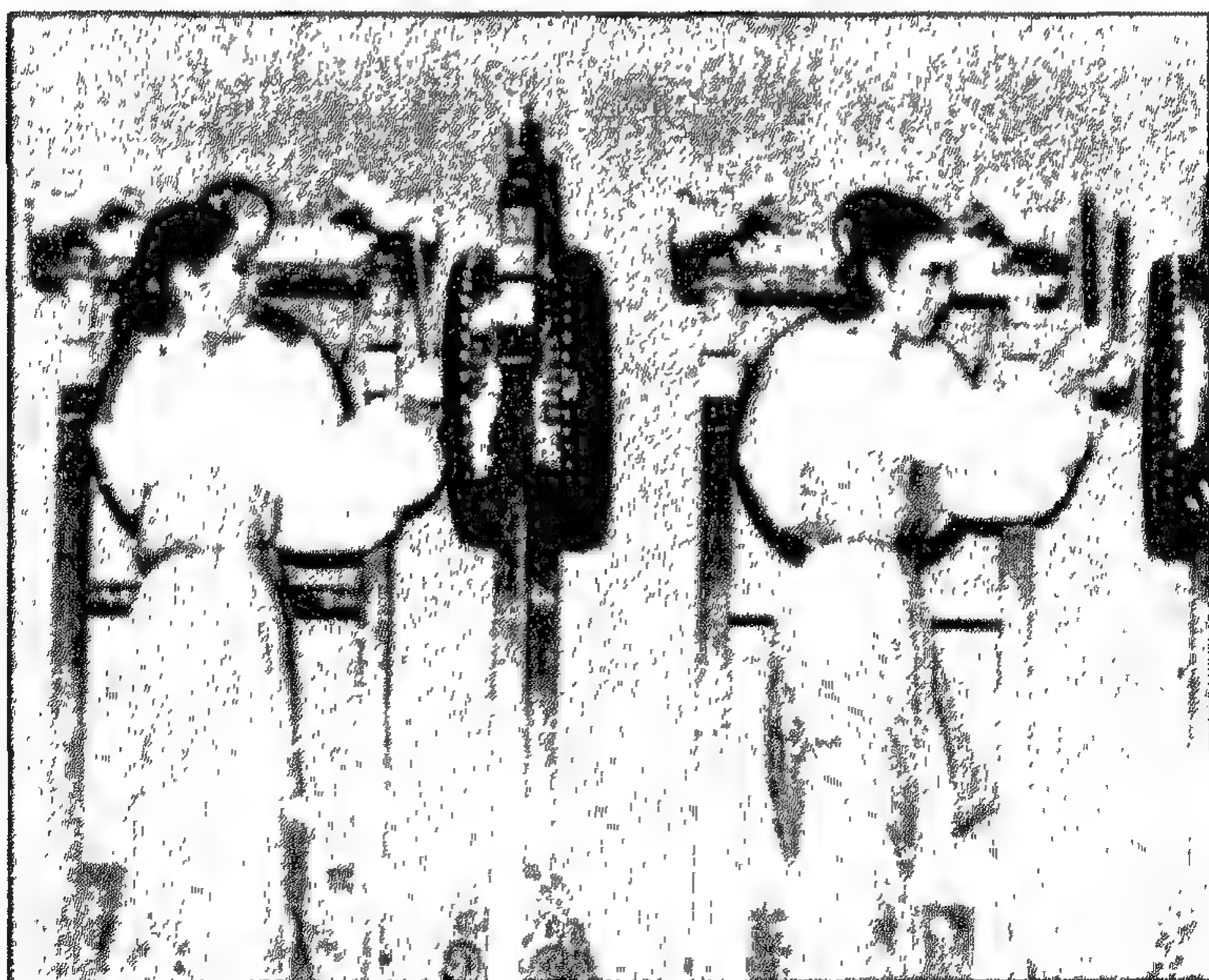
الأيادى الناعمة والتطريز على الحرير الذى يعتبر من أبرز الصناعات التقليدية والحديثة فى كوريا



الأصابع الرقيقة المبدعة فى مصانع الخزف



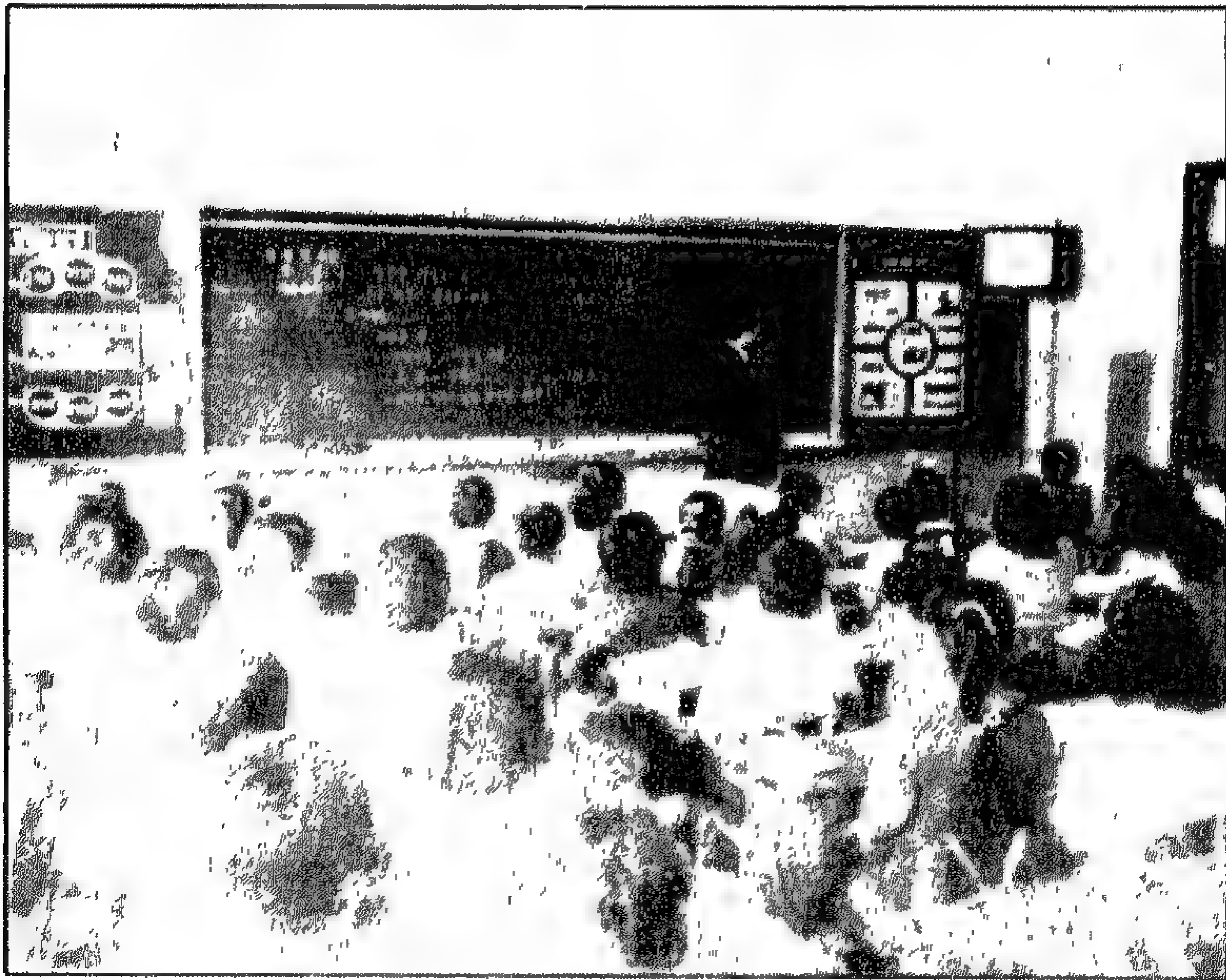
عروس في ملابسها [illegible]



[illegible] على الآلات [illegible]

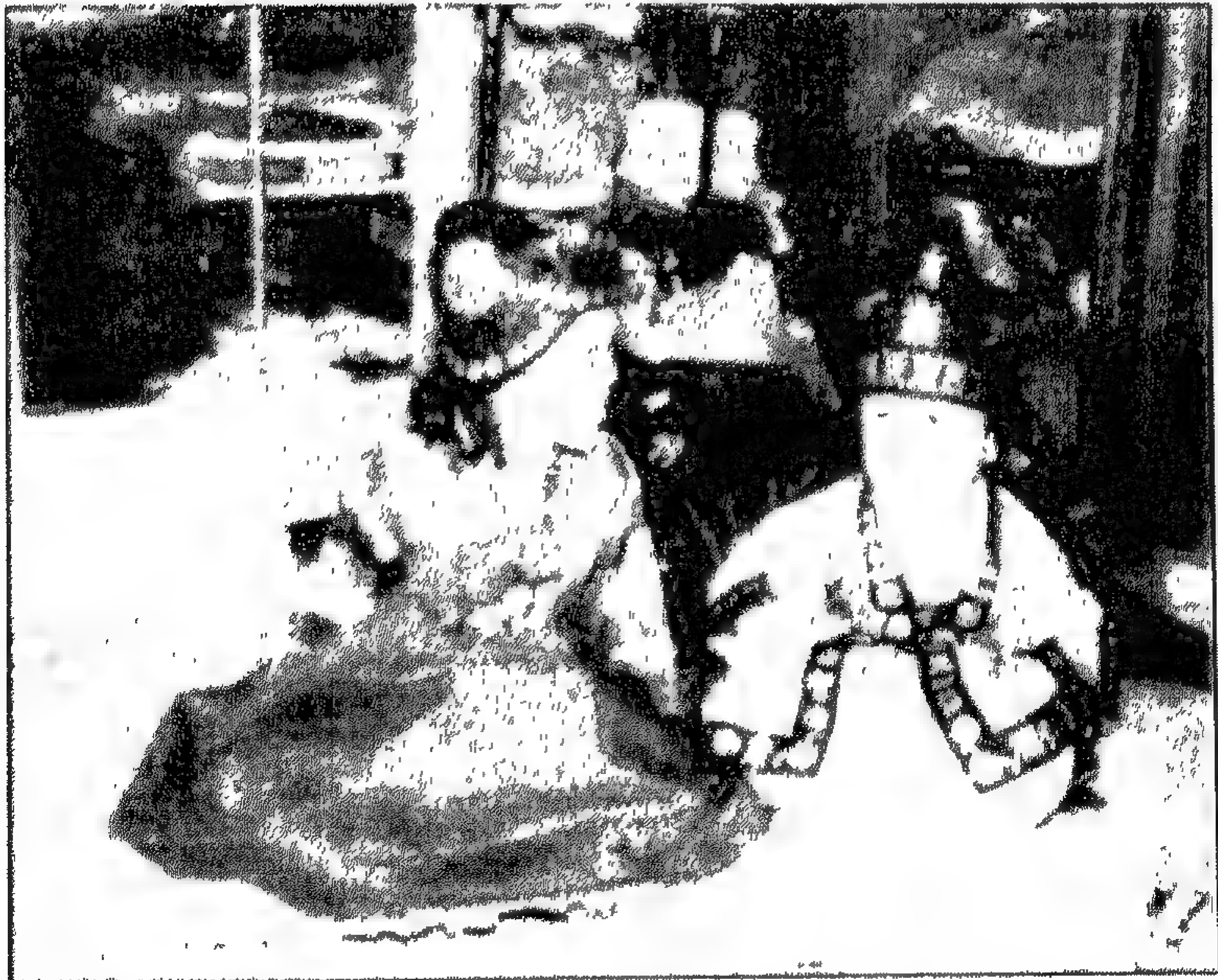


فنان شعبى يؤدى عمله فى صناعة التحفة وتلوينها



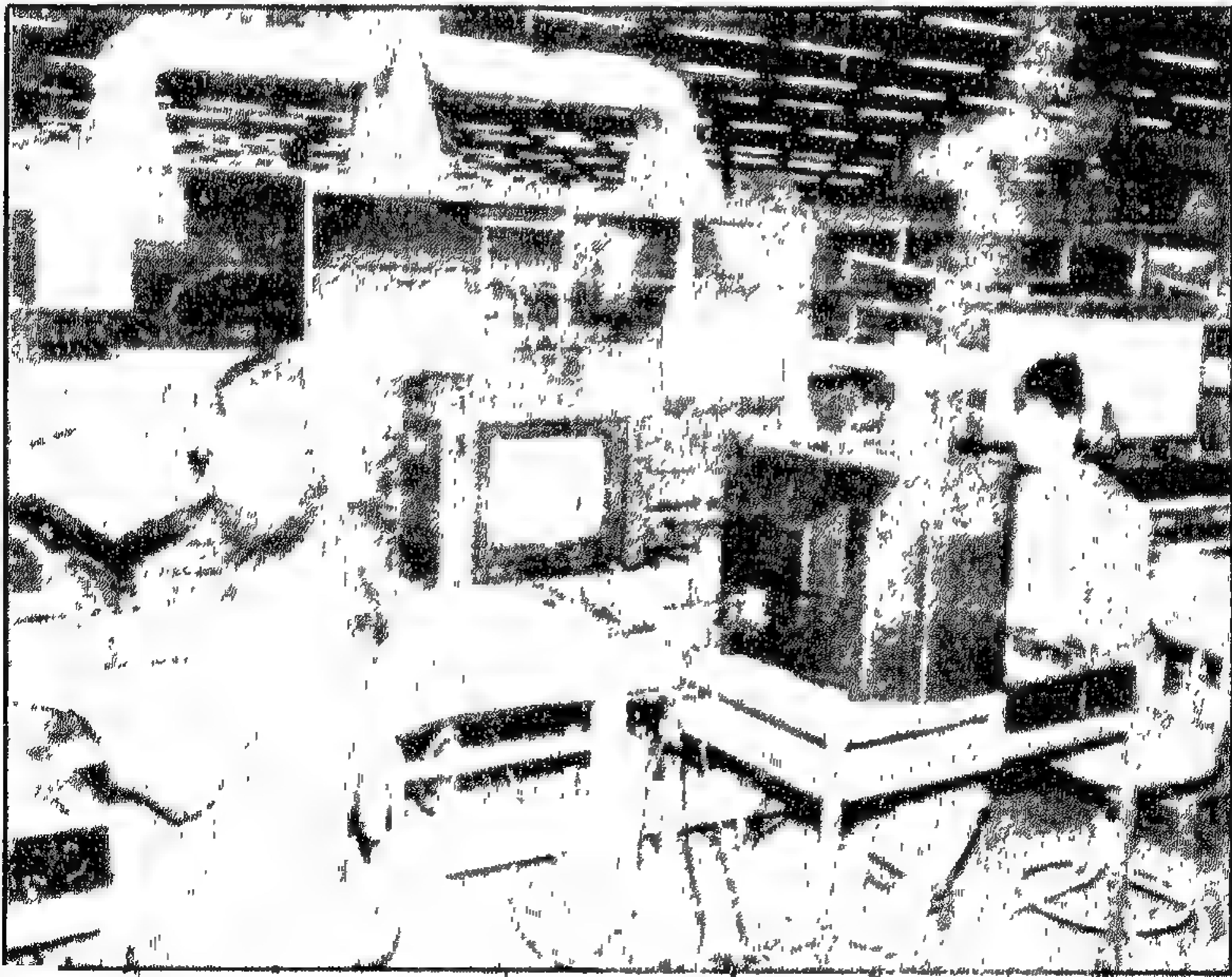
التعليم أولا   هو أساس نجاح التجربة الثورية







من الرقصات التقليدية فى كوريا الجنوبية



فى وسط من أجهزة التليفزيون ومركز الأخبار الفنية فى سول .



[illegible]


남대문가방

[illegible]

الفهـــرس

النمور الآسيوية

● يعتبر أدب الرحلات فى عمومه نوعاً من الأدب التقريرى، قد يتناول الوصف الجغرافى أو الجيولوجى للبلدان التى تمت زيارتها ، كما يتناول تاريخ تلك البلدان قديمه وحديثه ، وأوصاف الناس الذين يسكنون هذه البلدان وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم الدينية ومكنوناتهم الثقافية ، بل وقد يتناول أوصافاً لبيوتهم وعمائرهم السكنية ومعابدهم الدينية أياً كان الدين الذى يعتنقونه ، كما قد يستفيض فى وصف أكلاتهم ومشروباتهم ومآدبهم ومطاعمهم ، ووصف ملابسهم التقليدية وزينتهم وكل ما يتعلق بشئونهم الحياتية من تعليم وزراعة وصناعة وتجارة وأعياد شعبية.

● ومن حسن حظ الكاتب ـ وحظ قرائه ـ انه قام برحلات سياحية تغطى ثلاثة أرباع كوكب الأرض، زار فيها بلاد الله جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً . . .

● وفى هذا الكتاب سيلمس القارىء الكريم بنفسه مدى تمكن المؤلف من مواده العلمية والسياحية ، ومدى صدق المعلومات التى يعرضها المؤلف بأسلوب شيق جذاب ، لا يغفل صغيرة ولا كبيرة مما شاهده وعاينه وفحصه فى أرجاء تلك الدول الأربع : هونج كونج، وسنغافورة ، وتايوان ، وكوريا الجنوبية . . وهى الدول التى اصطلح عالمياً على تسميتها « النمور الآسيوية » .

«الناشر»



● تخرج فى كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٥١ ، وحصل على درجة الماجستير فى الصحافة من نفس الجامعة عام ١٩٥٥ .

● خدم الصحافة المصرية متدرجاً فى مناصبها محرراً وسكرتيراً للتحرير فى صحف : الزمان ، والمساء ، والشعب، والقاهرة ، والجمهورية ، ومجلة التحرير . ثم ارتقى إلى رئاسة تحرير مجلة بناء الوطن ومجموعة صحف دار التعاون . . ثم أصبح رئيساً لمجلس ادارة دار التعاون للصحافة والنشر .

● خلال إقامته الطويلة بدولة الكويت عمل مديراً لتحرير مجلة « العربى » الكويتية الذائعة الصيت .

● أصدر عشرات من الكتب القيمة ، تناول فيها موضوعات سياسية وثقافية وأدبية ، ودراسات عن العقائد الدينية السماوية وغير السماوية والفنون الشعبية وأدب الرحلات .



الدار المصرية اللبنانية

طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص ب ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO